

جرحى زیدان  
شجرة الدر



سلسلة تاريخ الاسلام



روايات لهلال

# روايات الهلال

صاحبها ورئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكري زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٣ \* مارس ١٩٤٩ \* جادى الأولى ١٣٦٨

## بيانات ادارية

ثمن العدد في مصر والسودان ٦٠ مليما - في الاقطار العربية عن الكميات المرسله بالطائرة : في سوريا ٨٠ قرشا سوريا - في لبنان ٨٠ قرشا لبنانيا - في فلسطين ٧٥ ملا - في شرق الاردن ٨٥ ملا - في العراق ٩٠ فلسا

قيمة الاشتراك عن سنة ( ١٢ عددا ) : في القطر المصرى والسودان ٦٠ قرشا - في سوريا ولبنان ٨٠٠ قرش سورى او لبنانى - في فلسطين وشرق الاردن ٨٠٠ مل - في العراق ٨٠٠ فلس - في المملكة العربية السعودية ٨٠ قرشا صاغا او ١٧ شلنا - في الولايات المتحدة وكندا وكولومبيا والمكسيك والارجنتين ٦ دولارات - في سائر انحاء العالم ١٠٠ قرش صاغ او ٦ / ٢٠ شلنا

## طريقة الدفع

في مصر والسودان : نقدا او بموجب اذونات او حوالات بريدية او شيكات - في خارج القطر المصرى : بموجب شيك على أحد بنوك القاهرة او حوالة نقدية (Money Order) او الى أحد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبول اذونات البريد او العملة الاجنبية

مركز الادارة : دار الهلال ١٦ شارع المتدين - القاهرة  
المكاتب : روايات الهلال - بوسنة مصر العمومية - مصر  
التليفون : ٤٦٠٦٤ ( ثمانية خطوط )  
الاعلانات : يخاطب بشأنها قسم الاعلانات بدار الهلال

## كلمة التحرير

تبتدىء رواية « شجرة الدر » بمقتل الملك المعظم  
طوران شاه آخر سلاطين الدولة الايوبية ، ومبايعة شجرة  
الدر زوجة الملك الصالح . وهى تأتى فى العصر التاريخى  
بعد رواية صلاح الدين التى صدرت فى الشهر الماضى  
اما ابطال هذه الرواية ، فمن المماليك الاتراك ، وكان  
الملك الصالح قد جعل منهم رجال دولته وخاصة بطانته .  
فلما راوا ان السلطة أصبحت فى ايديهم طمعوا فى الاستقلال  
بالحكم . حتى اذا توفى الملك الصالح وخلفه طوران شاه  
قتلوه شر قتلة . ثم اختلفوا على من يبايعونه من بعده ،  
فتداركت شجرة الدر الأمر ، فبايعوها بالملك ، فكانت  
اول امرأة ملكت فى الاسلام

ثم قام النزاع بينها وبين بعض أمراء المماليك ،  
فاستقالت مرغمة ، وبوع بعدها لعز الدين ايبك ولقب  
بالملك المعز ، وتزوجها ، فافضت السلطة الى المماليك  
الاتراك فتوارثوها

وقد تضمنت هذه الرواية وصف بغداد عاصمة  
الخلافة العباسية ، وما كان من زحف هولاكو التترى  
عليها وتخريبها وقتله الخليفة المستعصم بالله ، وانتقال  
مقر الخلافة الى القاهرة فى عهد الملك الظاهر بيبرس



وبهذه الرواية يكون قد صدر من سلسلة روايات  
تاريخ الاسلام ثلاث روايات . وقد رأينا ان نعود الى  
السلسلة من بدايتها فننشرها بالتتابع عدا الرواية الاولى  
منها ، وهى : « فتاة فسان » فسنؤجل نشرها لغرض  
ملائمة لطولها . ولهذا ستكون الرواية التالية : « ارماتوسة  
المصرية » تصدر فى ١٥ ابريل القادم . وفيها يرى القارىء  
بأسلوبها الشائق تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن  
العاص فى صدر الاسلام مع بسط احوال العرب وعاداتهم ،  
واحوال الاقباط والرومان فى ذلك الزمان



# شجرة الدر

تتضمن مقتل الملك طوران شاه آخر  
سلاطين الدولة الأيوبية ، ومبايعة شجرة  
الدر زوجة الملك الصالح وتنصيبها ملكة  
لمصر ، وهي أول ملكة في الإسلام

---

تأليف

جرجي زيدان

---

دار الهلال بمصر

## أبطال الرواية

- |                           |                                |
|---------------------------|--------------------------------|
| شجرة الدر *               | : زوجة الملك الصالح            |
| شوكار *                   | : جارية شجرة الدر              |
| عز الدين ايبك التركمانى * | : قائد الجيش                   |
| ركن الدين بيبرس *         | : أحد أمراء الجيش              |
| سلافة التركية *           | : جارية الملك الصالح           |
| سحبان *                   | : تاجر اقمشة من بغداد          |
| المستعصم بالله *          | : آخر الخلفاء العباسيين ببغداد |
| الأمير احمد ( أبو بكر ) * | : ولى عهد المستعصم بالله       |
| هولاكو التتارى *          | : حفيد جانكيز خان              |
| مؤيد الدين بن العلقمى *   | : وزير المستعصم بالله          |

## مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في سرد حوادث الرواية ،  
وكان شديد الحرس على أن تكون وقائمه الرئيسية صحيحة

- |                         |                                |
|-------------------------|--------------------------------|
| * حسن المحاضرة للأسيوطى | * سيرة الملوك                  |
| * تاريخ ابن الاياس      | * معجم ياقوت                   |
| * الملل مجلد ١٩         | * تاريخ ابن جبير               |
| * تاريخ الفخرى          | * تاريخ مصر الحديث لمرجى زيدان |

## فذلكة تاريخية

فرغنا من رواية صلاح الدين وقد دخلت مصر في حوزته ، وبنى بها قلعة القاهرة وجعلها كرسى ملكه ، ثم توارثها السلاطين من اولاده واخوته واولادهم وأحفادهم ، واقتسموا فيما بينهم ملك مصر والشام . حتى افضت السلطنة بمصر سنة ٦٣٧ هـ الى الملك الصالح بن الكامل ، فأكثر من اقتناء الممالك الأتراك ، وجع منهم نحو ألف مملوك بنى لهم قلعة في جزيرة الروضة أسكنهم فيها وجعلها سرير ملكه بدلا من قلعة القاهرة ونقل إليها أهله وحاشيته وممالكه

وفي أيامه حل الصليبيون على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وكان الملك الصالح مريضا فعاظم بامر هذه الحملة حتى أمر بالتجنيد والاستعداد للحرب ، لكن الصليبيين استولوا على دمياط بخيانة بعض أهلها وفرار بعض أمرائها . وتوفي الملك الصالح على أثر ذلك ، وخلفه ابنه غياث الدين توران شاه ، الذى لقب بالملك المعظم ، ولكن النفوذ كان لشجرة الدر إحدى جواري الملك الصالح ، وهى التى دبرت أمور الدولة بعده ، وكنمت موته حتى جاءوا بابنه غياث الدين من سورية وبايعوه سنة ٦٤٧ هـ

وعاد المصريون لمحاربة الصليبيين ، فغازوا وردوهم على أعقابهم بعد معارك شديدة ، وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وجنده .

ووقع الخلاف بعد ذلك بين رجال الملك المعظم غياث الدين ، ومماليك ابنه الملك الصالح ، فخرج هؤلاء المماليك عليه ، فخاف وأراد الفرار ، ولكنهم قبضوا عليه وقتلوه شر قتلة قرب فارسكور ، ثم اجتمعوا أمرهم على مبايعة شجرة الدر ، وهى أول امرأة تولت الملك فى الاسلام . وقام التنازع على السيادة بينها وبين بعض الأمراء المماليك ، وبين بقية الدولة الأيوبية وغيرهم من طلاب السيادة ، وافضت السلطة أخيرا الى المماليك الأتراك وتوارثوها ، وفى أيامهم سطا التتر على بغداد بقيادة هولاكو ، وقتلوا الخليفة المستعصم ، وانتقلت الخلافة الى مصر . مما سترى تفصيله فى هذه الرواية ان شاء الله

## في جزيرة الروضة

— ما أجل ضوء القمر يا شوكار !

— انه جميل يا سيدتي ، وليس أجل منه الا الجلوس بين يديك  
والتمتع بحديثك

— انك تملقيني يا شوكار ولا تقولين الحق . من منا أكثر تمتعا  
بصاحبها : أنا وليس في حديثي الا المتاعب والمشاكل السياسية ؟ .  
أم أنت وقد وهبك الله كل ما تتطلبه الفانيات من الجمال والدكاء ورخامة  
الصوت ولطف العشرة ؟ . وانت في مستقبل العمر وأنا في حدود الكهولة،  
وقد اناخ على الدهر بانقاله ومشاكله

فخجلت شوكار من هذا الاطراء وبادرت الى الجواب قائلة : « العفو  
يا سيدتي ، انك تخجليني بهذا الاطراء ، ومن اكون أنا حتى أعد شيئاً  
مذكوراً بجانب مولاتي شجرة الدر ، محظية الملك الصالح — رحمه الله —  
وأم ولده ؟ . وقد خصك الله بمواهب لم يخص بها أحداً من البشر  
سواك . ليس في النساء يا سيدتي امرأة تطمع في بعض ما نلته .  
زادك الله رفعة و .. »

فبادرت شجرة الدر الى قطع حديث جاريتها شوكار بأن وضعت  
يدها على فمها بلطف وهي تبسم لها ، وفي ابتسامها انقباض ، وقد  
أبرقت عينها من عظم التفكير ، ثم تنهدت تنهداً عميقاً وقالت :  
« تحسدني على ما توهمينه في من رفعة القدر ؟ . من هنا يأتي  
سبب إشغالي » . قالت ذلك وأطرقت وهي مقبضة الوجه ، فتهيت  
شوكار النظر اليها ، ولم تجيبها

وكانت شجرة الدر جالسة على مقعد من الابنوس ، في شرفة بأحد  
قصور الملك الصالح التي بناها في جزيرة الروضة ، تطل على مجرى  
النيل الى مسافة بعيدة . وجزيرة الروضة من أجل جزر النيل بين  
مصر القديمة والجيزة ، وطالما اتخذها الملوك متنزهاً ، وقد جعلها مولاهم  
الملك الصالح سريراً للملكة بدلا من القلعة حيث كان أسلافه يقيمون .  
وانشأ في هذه الجزيرة قلعة فخمة عرفت بقلعة المقياس ، نسبة الى



مقياس قديم للنيل ، وسموها ايضا قلعة الروضة او القلعة الصالحة . وكان في موضع هذه القلعة ابنية كثيرة فيها القصور والمساجد والمعابد ، ودور الصناعة لبناء السفن ، والهودج الذي بناه الامر بأحكام الله الفاطمي لجارته ، واشتهر امره . فهدم الملك الصالح كل هذه الابنية ، وبنى القلعة مكانها ، وانفق فيها اموالا طائلة . وفي جملة ما بناه قصور ومسجد ، نقل اليها العمدة والاساطين الصوان والجرانيت والرخام من الهياكل القديمة ، وغرس فيها الاشجار والرياحين . وبنى فيها ستين برجاً شحنتها بالاسلحة والآلات الحرب وما يحتاج اليه من الغلال والاقوات خوفاً من محاصرة الافرنج ، لانهم كانوا على عزم غزو مصر . وبالع في اتفاق تلك الابنية حتى قيل ان الحجر الواحد من احجارها كلفه ديناراً . وكان يقف بنفسه ويرتب العمل ، فلما تم بناؤها نقل اليها اهله ونساء وجواريه ، وفرق فيها ممالিকে ، وعددهم نحو الف مملوك . وانشأ خارج القلعة بناء عظيماً جمع فيه اصناف الوحوش من الاسود والتمور وغيرها

وكانت شجرة الدر في جملة جواريه ، وقد انجبت ولداً اسمه خليل ، فحربها منه ، كما كانت هي على جانب عظيم من الدهاء والذكاء ، فنالت نفوذاً عظيماً عنده . فلما مات في المنصورة سنة ٦٤٧ هـ كتمت امره ، وقامت بأمور الدولة ، وكانت توقع على الاوامر بتوقيعه خوفاً من الفشل وهم في حرب مع الصليبيين . لكنها أسرت الخبر الى كبار الأمراء ، ولا سيما عز الدين أيك التركماني ، وكانت بينه وبينها مودة ، فبعث اعيان الأمراء الى غياث الدين بن الملك الصالح فاستقدموه من حصن . كيفاً وولوه عليهم وواصلوا محاربة الصليبيين

اما شجرة الدر فانها عادت الى تلك القلعة واقامت فيها ، وفي خاطرها اشياء لم تطلع عليها أحداً ، ورغم ثقتها العظيمة بشوكار لم تفاتها بشيء منها . وفي تلك الليلة المقمرة جاشت اشجانها وأرقت لسبب تعلمه هي ولا يعلمه سواها . وكانت كثيرة الاستئناس بشوكار جارتها ، وهي جملة الطلعة رخيصة الصوت تتقن العزف على العود . فلما أرقت دعنها اليها للاستئناس بها واللهو بصوتها . واتشحت شجرة الدر بثوب بسيط ، والتفت بمطرف من الخز ، وجلست على الشرفة وأطلت على مجرى النيل ، وقد سكنت الطبيعة وهذا النسيم الا ما يبعث منه بشعرها المرسل على ظهرها وقد ضمته وارسلته بلا اعتناء . ولم تحسن ارتداء مطرفها ، حتى ليخيل الى الناظر اليها أنها في شباغل مهم ، ناهيك بما في عينها من دلائل القلق حتى يكاد الشرر يتطاير منها لفراط ما جاش في خاطرها من البلبلة . وهي

امراة ليست كسائر النساء ، فلها قلب الرجل ومطامع كبار الرجال .  
اذا عزمتم على امر فلا تبالي ما يقف في سبيلها من العقبات لانها تذللها  
بأية وسيلة كانت ، كما يفعل عظماء الرجال وأرباب المطامع  
وكانت شوكار جاريته الخاصة فتاة تركية مثلها ما زالت في مقتبل  
العمر ، فاحبتها واتخذتها مستودع اخبارها وأسرارها . وان كانت  
لفرط دهائها لا تفتح قلبها لاحد أو تأمنه على أسرارها المهمة . ولذلك  
كان كبار المالك يهابونها ويحسبون لها حسابا ، وقد استولت على  
قلوبهم تهيبا واعجابا



خرجت شجرة الدر تلك الليلة من قصر الملك الصالح أجل قصور  
تلك الجزيرة واتمنها رياشا وزخرفا ، ومعها جاريته شوكار . ومشت  
في ممر مسقوف يؤدي الى شرفة تطل على النيل ، فجلست على  
أريكة مغطاة بالدرياج المزركش ، وجاريته تعزف على العود وتغني لها  
أصواتا تمودت أن تطلب اليها انشادها ، وهي مستغرقة في هواجسها  
تنظر الى النيل وهو يبدو كالفضة اللامعة من تكسر نور القمر على  
سطحه . ولولا ما يتخلل بياضه من التموج والارتعاش لم تشك أنه  
فضة خالصة ، أو أنه مرآة صافية ، وكانت مراياهم تصنع من الفضة  
المصقولة بدل الزجاج اليوم

وكانها أحست بطول سكوتها واشتغالها عن غناء شوكار ، فاجالت  
بصرها في الضفة المقابلة من النيل في بر الحيزة ، وقد بدت فيها التخييل  
صفوا أرسلت رؤوسها في الفضاء كأنها أسراب من العذارى يحملن  
المظلات وقد وردن الماء ، فلما أشرفن على ضفاف النيل تهيبن فوقفن  
خاشعات ينظرن الى مجراه . وبانت ظلال التخييل في الماء ، واكسبها  
النيل حركة اهتزازية كان أولئك العذارى نزلن للاغتسال فارتعدت  
أجسامهن من البرد أو من الحياء . ووراء النخيل تراءى الهرمان  
كأنهما جبلان وقد انتصرا على طواريء الحدائق ، فأرادت شجرة الدر  
أن توهم جاريته أنها سكنت تهيبا للطبيعة الجميلة فقالت لها : « ما أجل  
ضوء القمر يا شوكار ! »

فسرت شوكار لأن سيدتها قد سرى عنها ، وزادت امتنانا لما سمعت  
أطراءها صوتها . لكنها ما لبثت أن رأتها عادت الى الانقباض وأخذت  
تشكو من حالها ، وأن ما تغبطها عليه من النعيم إنما هو سبب شقائها .  
فانقبضت نفس شوكار ، وألقت العود من يدها ، وتقدمت حتى جثت  
عند قدمي سيدتها ، وقبلت ركبتهما وقالت : « ما الذي يشغلك



جلست شجرة الدر على أريكه منشاة بالديباح ء  
وأمامها جارتها شوكار تغزف بعض الألحان



يا سيدتى ؟ وهل انت لا تثقين بى ، مع انى مستودع اسرارك ، وليس لى شافل سواك ؟ »

وشرقت بريقها من عظم التأثير ، فابتسمت شجرة الدر لها ووضعت يدها على رأسها وجعلت تعيث بشعر الفتاة ويوجهها كأنها شاب يداعب فتاة يحبها . وشوكر مطرقة يلد لها ذلك لأنه دليل ارتياح مولاتها اليها . وهان على شجرة الدر أن تصارح جاريتها ببعض هواجسها ، وهى تحسبها خالية الذهن من أمرها ، وتحسب سرها مكتوما عنها كل الكتمان ، وذلك من الأوهام الشائعة عند أصحاب الاسرار . يكتم الحب حبه ، ويلد له كتمان ، لتوهمه أنه لا يعلم به أحد سوى حبيبه . وقد يكون ذلك الحب حديث الجيران والخدم ليل نهار ، وقس على ذلك اكثر الاسرار ولاسيما ما كان منها يتعلق بالعامه ، فانه لا يخفى عليهم ، لكنهم يسكتون عنه فيتوهم صاحبه أنه سر مغلق على الناس كافة . وهب أنه يخفى على الجيران فهو لا يخفى على الخدم والجوارى لأن هؤلاء لا شافل لهم غير استطلاع الاسرار والتوسع فيها والتكهن بما يكون من أمرها ، لكنهم فى الغالب يشوهون الحقيقة بما تصوره لهم أفكارهم وميولهم

فكانت شوكر على بينة من هواجس سيدتها وان لم تصب الحقيقة تماما ، لكنها تجاهلت وطلبت الى شجرة الدر ان تكتشفها بسرها . فقالت لها شجرة الدر : « لست اخفى عليك سرا كما تعلمين ، لكن ما اكتمه ليس مما يهيك الاطلاع عليه »

فقالت : « لا اطلب الاطلاع عليه لأنه يهمنى ، لكننى اطلب ذلك لعلنى أن الانسان اذا اشتكى ما يكابده لشخص يحبه ويثق به ، فان وطاة ذلك السر تخفف عنه »

فضحكت شجرة الدر على سبيل المداعبة وقالت : « يظهر يا بنية أنك قد جربت الاسرار ولذة المكاشفة »

فأطرقت خجلا وقالت : « ليس عندى اسرار اكتمها أو أبوح بها ، وليست اسرارى مما يصح الاهتمام به . لكنى أعرف ذلك عن سواى ، فهل أنا مخطئة يا سيدتى ؟ »

قالت : « كلا ، أنك تقولين الصواب . ولكن دعينا من ذلك الآن واطربينا بشيء من غنائك الرخيم »

لم تعتبر شوكر ذلك الرقص مقصودا لأنها قرأت عكسه فى عينى سيدتها شجرة الدر - والعينان أصلق من اللسان - فاستأنفت الكلام قائلة : « اتى طوع ارادتك يا سيدتى ، لكننى أحب تخفيف قلقك »

فأحبت شجرة الدر أن تكون جاريتها البائدة بالحديث فقالت لها :  
« ماذا تظنين سبب قلقي ؟ »

قالت : « من أين لي أن أعلم ذلك ؟ . ليس فيما أعلمه من أحوالك  
إلا ما يوجب السرور والفخر ، حتى فيما له علاقة بالقلب ، أعلم أنك  
قد نلت منه ما لم ينله سواك . أن الأمراء كافة يتمنون رضاك ، ويعدون  
التفاكك نعمة . ويكفي لاكتساب قلب أحدهم أن تنظري له نظرة  
رضا . على أنك في غنى عن ذلك بموقعك الجميل من قلب مولاى  
عز الدين أيبك ، وهو كبير الأمراء ، ويتمنى لفته منك و . . »

فلما سمعت شجرة الدر اسم عز الدين تصاعد الدم الى  
وجنتيها ، وقطعت كلام جاريتها وهى تظهر عدم الاهتمام وقالت :  
« ليس هذا الامر مما يهتم له أمثالى يا شوكار ، وإنما هو للفتيات  
أمثالك »



وأظهرت شوكار أنها صدقت سيدتها ، مع أنها تعلم حق العلم بما  
بينها وبين عز الدين أيبك التركمانى كبير الأتراك من صلات المحبة ،  
ثم حولت كلامها الى موضوع آخر وقالت : « أصفحى يا مولاتى عن  
جرائى وأغفري لى خطئى ، فلعل شواغلك تتعلق بأحوال الدولة ،  
على أثر وفاة سيدى الملك الصالح رحمه الله »

فابتدرتها شجرة الدر قائلا : « نعم . نعم . أنها تتعلق بما نحن فيه  
من الخطر ، والحرب قائمة بيننا وبين الأفرنج فى المنصورة وفارسكور »  
فقالت : « ولكن الاخبار الواردة علينا حسنة على ما أعلم . ألم يأتنا  
الطائر مبشرا بالنصر ، ثم حل إلينا الرسول خبر انتصار جنودنا على  
الفرنسييس ، وأنهم قتلوا منهم ثلاثين ألفا ، وأسروا ملكهم لويس ،  
وجسوه فى دار ابن لقمان . . ثم جاءنا رسول يحمل رسالة أخرى ،  
وعليه ثوب ملك الأفرنج نفسه ، وهو المخمل الأحمر بفرو سنجابى  
وقلنسوة من ذهب . وقد زينت له القاهرة زينة لم يسمع بمثلا ؟ أم  
أنت تظنين ذلك غير الواقع ؟ »

قالت : « بل هو الواقع عينه »

قالت : « إذن ما الذى يقلقك يا سيدتى ؟ »

فتنهدت وقالت : « لقد أخرجتنى يا شوكار . فلا بد من اطلاعك  
على بعض الخبر . أن قلقي ليس خوفا من الأفرنج فإن جندنا كلهم أشداء —  
ولا سيما هؤلاء الأتراك الذين بنى لهم مولانا الملك الصالح هذه القلعة —

وفد ظهرت بسالتهم في الحرب التي ذكرتها . ولكنني أخاف الانقسام بين جنودنا من سوء تصرف الملك العظيم طوران شاه ! » . قالت ذلك وهزت رأسها هز الأسف

فقالت شوكار : « هل تأذن مولائي بكلمة ، وإن كنت لا أفهم شيئاً من أحوال الدولة ولا شأن لي بتدبير المملكة ؟ . اظنكم أخطأتم باستقدام هذا السلطان من حصن كيفا وتوليته السلطة . وعندكم من الأمراء من هو أكفأ منه »

فقالت : « ولكن الناس لا يدعون للسلطان إلا إذا كان من الأسرة المالكة ، أسرة آل أيوب ، ولولا ذلك لهان الأمر . ولو كان طوران شاه هذا عاقلاً لاستقام الأمر ، ولكنه غلام جاهل أحق يشرب الخمر ، فإذا سكر فعل ما لا يفعله الأطفال . بلقني أنه يصف الشموع في الليل أمامه ، ويأخذ السيف بيده ويضرب به تلك الشموع ويقول : ( هكذا أفعل بالممالك البحرية ) . يعنى ممالكنا الأتراك . وما برح منذ جاءنا - ولم يمض عليه شهران - يفضل ممالكه الأكراد الذين أتوا معه على ممالكنا ، ويعرض بذلك في مجالسه ، مع أن النصر في حروب الأفرنج إنما كان بفضل أبطالنا ، ولا سيما عز الدين أيبك وركن الدين بيبرس وسيف الدين قطز وأمثالهم . فأخاف أن يطول النزاع ويفتقم العدو تفرقنا فيكر علينا ! » . وسكنت لحظة وهي مطرقة ، ثم بلغت ريقها واستأنفت الحديث قائلة : « ولكنني دبرت تدبيراً إذا أفلح سلمنا من الخطر ! » . ثم نهضت ، وظهرت أنها في شغل خوفاً من أن تستزيدها شوكار ببائنا وهي لا تريد كشف ذلك التدبير لها

ادركت شوكار غرض سيدتها ، لكنها تشاغللت باصلاح العود وهي تنظر الى النيل . لكنها ما لبثت أن لاحظت عن بعد اضطراب صفحة الماء ، فتنظمت فإذا هي ترى شبحاً كبيراً سابحاً قادمها من الشمال ، ولم تتمالك حين تبينته أن صاحبة : « هذه سفينة قادمة إلينا . لابد لقدمها في هذا الليل من أمر مهم ! »

وكانت شجرة الدر تتشافل باصلاح شعرها ، فلما سمعت صيحة شوكار التفتت نحو السفينة وصاحت : « هذه عشائرية عز الدين ما الذي جاءنا به يا ترى من الأخبار ؟ » . قالت ذلك وهزولت وهي تلتف بالمطرف ، وتبعثها شوكار في مثل دهشتها نحو المرفأ

وكان الروضة مرفأ جميل تقف عنده السفن منذ كانت فيها دار الصناعة ، ومن هذا المرفأ الى داخل القلعة طريق مختصر . لكن شجرة الدر - بعد أن دفعتها الدهشة الى طلب المرفأ - عادت الى رشدتها .

وتراجعت ، وأظهرت أنها ذاهبة الى الايوان الكبير الذى كان الملك الصالح يستقبل فيه الوفود والأمراء والوزراء



كان ذلك الايوان من افخر الأبنية ، بذل الصالح جهده فى اتقانه وزخرفته ، وهو قاعة كبيرة قائمة على أساطين الرخام ، وقد زين سقفها بالصور المذهبة والنقوش من النوع المعروف بالقرنص ، وعلى جدرانها كتابة جميلة بصفاتح الذهب والرخام الابنوسى والكافورى والمجزع ، مما يبهج النفوس ويستوقف الابصار

ولم تدخل شجرة الدر هذا الايوان منذ شهرين وبعض الشهر بعد ان توفى الملك الصالح ، فاضطرت لاختفاء اضطرابها أن تنزل اليه ، فأمرت بعض الخصيان أن يفتحوه ، ودخلت وشوكر وراءها وقد أدركت قلقها وتوهمت أنها تريد الخلوة هناك فتراجعت عند الباب وقالت : « أستأذن فى الانصراف يا سيدتى »

قالت : « الى أين ؟ » . قالت : « الى حيث تأمرين . وانما أخاف أن يكون فى وجودى ما يشغل عليك »

فأشارت اليها أن تدخل وقالت : « تعالى يا شوكر . لا ينبغي أن أخفى عليك شيئاً » . فدخلت ، وجلست شجرة الدر على سرير من الذهب فى صدر الايوان كان يجلس عليه الملك الصالح ، وأشارت الى شوكر فجلست على كرسي مذهب بين يديها ، وقد أضيء الايوان بالشموع وظهرت نقوشه الجميلة . وتأملت شوكر فى سيدتها وهى جالسة على سرير الملك وضحكت ، فلحظت شجرة الدر ضحكها وسألتها : « ما بالاك تضحكين يا شوكر ؟ » . قالت انى مسرورة يا سيدتى من جلوسك هنا ، وقد استبشرت به خيراً . ان هذا المجلس لائق بك ! »

فخفق قلب شجرة الدر لهذه البشرى ، لأنها كانت راغبة فى السيادة ، وهى أهل لها ، لكنها أتكرت ذلك على شوكر ، وأظهرت أنها تستبعد هذا الامر . وانها ليست أهلاً له ، وشغلت نفسها باستدعاء قيم تلك الدار . فلما حضر أمرته أن يذهب الى المرفأ ، وإذا جاء أحد برسالة فليات بها اليها فى ذلك الايوان

وجلست وهى تظهر الجلد ، لكنها كانت على مثل الجمر من القلق . وجلست شوكر بين يديها تشاغلها بالحديث عما فى تلك القاعة من التحف ، وما أنفقه الملك الصالح فى تلك الأبنية ، وهذه تظهر الاهتمام



بالموضوع وتقص عليها ما رآته من عناية الملك الصالح باتقان ذلك البناء وبينما هما في ذلك اذ سمعت شجرة الدر صوت نفر من بعيد ، فعلمت انه اشارة وصول السفينة الى المرفأ ، فحقق قلبها وظهر القلق في وجهها ولحظت شوكار ذلك ولكنها تجاهلته . ولم يمض وقت يسير حتى جاء الغلام يقول : « ان الامير ركن الدين يبهرس بالبواب » فقالت شجرة الدر : « ليدخل »

فدخل شاب طويل القامة ، قد تزل بعباءة تغطيها كله ، ثم نزع العباءة فاذا هو جميل الخلقة صبح الوجه عليه هيبة الشيوخ ونضارة الشباب ، لم يتجاوز عمره يومئذ ٢٣ سنة ، وعليه الدرع والخوذة كأنه في ساحة الحرب التي قدم منها . فلما دخل حى شجرة الدر تحية لم تحى بمثلها من قبل ، ففهمت ما عناء لكنها تجاهلت وقالت : « ما وراءك يا ركن الدين ؟ »

فالتفت يميناً وشمالاً كأنه يحاذر ان جسعه أحد . فادركت انه يحمل سرا لا يجب ان يقوه به جهارا ، فأشارت الى الخدم بالمرجوع واحتفظت بشوكار ، وأشارت اليه أن يتقدم نحوها ، فتقدم فقالت : « ما وراءك أيها الامير الشاب ؟ قل ولا بأس من وجود عزيزتي شوكار ، بل لا بد من وجودها فهي طالما أعجبت بشهامتك ، قل . ما وراءك ؟ »

فاستغربت شوكار ما روتها شجرة الدر عنها من أنها معجبة بركن الدين ، ولم تجد باعنا على ذلك في تلك الساعة فسكتت ، وانجھت بكليتها لسماع ما يليق به ركن الدين . أما هو فلما سمع قول شجرة الدر عن اعجاب شوكار به التفت اليها فوجدها في غاية الجمال واللطف ، وفي عينيها معنى جمع بين الذكاء والسحر . وكان يسمع برخيم صوتها لأن ذلك كان شائعا في القصر . لكنه توجه نحو شجرة الدر وقال : « ان ورائي امرا ذا بال وخبرا مهما لا ادرى ايسر مولائي ام يسوءها »

فأجفلت ونظرت في عينيها باهتمام وقالت : « قل ما هو . . ولا يهمك ساعني ام سرنى ، فاني لا اتوقع من هذه الدنيا سلامة »

فقال ان الملك المعظم طوران شاه بن مولانا الملك الصالح قد لاقى اجله في هذا الصباح ، وبمعنى مولاي الامير عز الدين اييك لانقل هذا الخبز اليك ريثما يصل هو الى هنا في صباح الغد ، ولم يشأ ان يرسله مع الطائر مبالغة في الكتمان ، لكنه دفع الى هذه البطاقة الصغيرة محتومة ، وأمرني ان أدفعها اليك يدا بيد . قال ذلك واستخرج من جيبه بطاقة دفعها اليها

فلما سمعت شجرة الدر بموت طوران شاه بانث الدهشة في

عينها ، لكنها تجللت وتناولت البطاقة وفضتها ، واقتربت من المصباح وقرأتها فإذا فيها : « أما بعد فإني مسرع في إرسال البشارة بذهاب ذلك الشاب المغرور الى سبيله ، على كيفية قصصها عليك الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى حامل هذه البطاقة اليك . وقد كان لهذا الأمير النصيب الأكبر من العمل في هذا السبيل وهو يستحق التفاتك . وغندى خبر آخر سأتلوه عليك في الغد شفاهاً ان شاء الله »

قرأت البطاقة لنفسها وعادت الى مخاطبة ركن الدين كأنها لم تقرأ شيئاً فقالت : « آنت على ثقة من قتل الملك المعظم ؟ »

قال : « نعم يا سيدتى . كل الثقة »

قالت : « هل قتل سرا ؟ »

قال : « كلا يا سيدتى ، انه قتل جهاراً » . قالت : « من قتله ؟ »

قال : « نحن قتلناه ، لأنه لم يترك للصلح مكاناً ، وقد بالغ في الطيش والهوج ، وكرر مفاضبتنا وأسمعنا الاهانة ، ولم يعجبه الممالك البحريون ، مماليك أبيه الملك الصالح ، وكلما ذكروا أمامه استخف بهم ، مع أنهم أصحاب السيف حاة هذه الدولة . . وهم الذين ردوا الافرنج عن هذه البلاد . وقد صور له طيشه أنه الفاعل لما يريد ، واننا حشرات لا يعتد بنا ، حتى بلغنا أنه كان يصف الشموع وياخذ رؤوسها بالسيف ويقول أنه هكذا سيفعل بنا . وقد صبرنا على ذلك ، حتى بلغنا أن هذا لا يرضى مولاتنا أم ولد الملك الصالح رحمه الله ، فاضمرنا له السوء ، فلما كان صباح اليوم جلس في موكبه والأمراء والأكراد وأصحابه بين يديه ، ورؤوس النواب واقفون أمامه بعضى كسيت بالذهب ، كأنه يقول لنا انى سلطانكم رغم أنفكم . فصبرنا عليه حتى مضى الموكب وبقي وحده وحضر السباط فجلس عليه على العادة ، فتقدم اليه جماعة منا بأيديهم السيوف وضربوه على أصابعه فقطعوها ، فقام وهرب ودخل البرج الخشبي ، وأغلق عليه باباً ، فاطلقنا النار على البرج ، فخرج منه وألقى نفسه في البحر وصار يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية وهو يقول : « خلدوا ملككم ودموني أرجع الى حصن كيفا » ، فلم يقفه أحد . ومازال على ذلك حتى قتل ، فكانه مات حريقاً غريباً قتيلاً ، فأخرجناه من البحر وثر كنائه على الصعيد وسيبقى كذلك حتى لا يعرف له قبر »



كان ركن الدين يقص خبر مقتل طوران شاه ، وشجرة الدر مصفية

لا تبدى حراكا ، لكن الاهتمام باد في عينها فلما فرغ من كلامه قالت :  
« مات طوران شاه ارحمه الله ، انه اخطأ في تصرفه ولم يحسن سياسة  
الملك الذى اعطيناه اياه . وكل من لايسوس الملك يخلعه ! » . ثم  
نظرت الى ركن الدين وقالت : « وهل هناك خبر آخر غير هذا ؟ »  
قال : « عدى خبر سيتلوه عليك مولاى الامير عز الدين ايبك في  
صباح الغد »

قالت : « لعله خبر مهم ؟ »

قال وهو يتسمم : « اظنه كذلك »

فأدركت شيئا من مراده لكنها حولت الحديث وقالت : « لم تخبرنى  
من القواد الابطال الذين فتكوا بالملك المعظم . هل انت منهم ؟ »  
قال : « نعم انى اصغرهم شانا ، وقد فعلت ذلك بأمر مولاى الامير  
عز الدين »

فأعجبها تواضعه واحتشامه فقالت : « اراك تتنصل كأنك تعدد  
هذا العمل جريمة وعارا . . انه عمل عظيم يحق لك الافتخار به ، وقد  
نجيت البلاد من الغراب ، لان هذا الملك لم يكن أهلا للسلطة ، ولوطال  
مكثه في هذا المنصب نجرت علينا الدمار . فلا تخف ، وقد أنبأنى عز الدين  
ببلائك ، وأنا طالما توسمت فيك البسالة والاقدام ، وسيكون لك شأن  
عظيم ، فاذا صدق توسمى فيك أهدتك أثمن ما عندى » . قالت  
ذلك ونظرت الى شوكار وضحكت ، فأدركت شوكار غرضها فغلب  
عليها الحياء لأنها لم يخطر ببالها حب احد . وقد كفاهها من نعم المولى  
أن تكون حائزة رضا سيدتها شجرة الدر ، فلما سمعت تلميخها  
تصاعد الدم الى وجنتيها وأطرقت ، وودت لو أنها بالنقاب لتغضى  
وجهها ، لكنها لم تكن تتنقب بين أيدي الأمراء

أما ركن الدين بيرس فأعجبه اطراء شجرة الدر شجاعته ، وكان  
يسمع بحسن شوكار ولطفها وجمال صوتها ولم يكن يتوقع أن يأتى  
يوم ينالها فيه ، فلما رأى شجرة الدر اشتربت في نيلها أن يصدق  
توسمها فيه لم يدر بماذا يجيب ، فقال أخيرا : « أشكر مولائى حسن  
ظنهما ببسديهما ، وأرجو أن أكون أهلا لثقتها . وفى كل حال انى رهين  
أشارتها وما تأمرنى به ، وأقديها بروحى »

قفرحت شجرة الدر بهذا التصريح لأنها إنما أرادت أن يكون طوع  
أرادتها لتستخدمه فى إفراضها لما رآته فيه من البسالة ورباطة الجأش  
ولما سمعت شوكار جواب ركن الدين أحست بشيء لم تحس بمثله .

قبلا ، وبان التائر في عينها ، وخفق قلبها خفقانا لم تعرفه من قبل .  
لكنها أطرقت وظلت ساكنة

وأما شجرة الدر فقد سرها ما وفقت اليه من مقتل الملك المعظم ،  
اذ هي التي أمرت المماليك أن يقتلوه ، ولولا ذلك لم يجسروا على قتله .  
وقد أغراهم على ذلك عز الدين أيك حبيبها ، وهو كبير قواد المماليك .  
وكان لركن الدين بيبرس اليد الطولى في هذا العمل ، وكانت قد  
سمعت من عز الدين عن بسالته وتقانيه في طاعته وطاعتها فأرادت أن  
تزيد إخلاصه في طاعتها فوعده بشوكار . فلما لحظت تعلق آماله بها  
تحركت في مجلسها كأنها أرادت استئناف الحديث ، فقالت : « ومتى  
يصل إلينا الأمير عز الدين ؟ »

قال : « أظنه يصل في صباح الغد ، وسيأتي معه سائر الأمراء  
والعسكر ، وسيحدث تغيير عظيم في أمور الدولة . وقد حفظ الأمير  
عز الدين حق هذه البشارة لنفسه وهو كبيرنا ومولانا »

فضحكت شجرة الدر وهي تنهض عن السرير وقالت : « أظنك  
نلت جائزة حسنة . . وإنما أرجو أن تحقق ظنى فيك ياركن الدين »  
.. فانذرك أنها تصرفه ، فتحول وهو يلتفت الى شوكار لفظة الوداع  
وهي لا ترفع بصرها اليه ، لكنها رائه وراها وتفاهم النظران وتناجى  
القلبان . وما أسرع تناجيهما اذا توافقت الطباع

خرج ركن الدين وقد شغله ذلك الوعد عن دهشة الخبر الذي حله  
من فارسكور الى القاهرة ، وما يرجى أن يحدث من التغيير في أمور  
الدولة بسببه ، ساروا الى برج من أبراج القلعة كان يقيم فيه مع  
بعض المماليك من رفاقه



## عز الدين أيبك

مشت شجرة الدر - بعد أن توارى ركن الدين - نحو شوكار وهي  
تجر مطرفها وراءها ، فنهضت لها احتراماً ، وأطرقت شكراً ، وهي  
لا تدرى أحسنت إليها بذلك الوعد أم أساءت . ولم تستقر أفكارها  
لتحكم في الأمر فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « أرجو أن تكوني مسرورة  
من هذا النصيب يا شوكار »

فرفعت بصرها وانجفل يغشاها فرات شجرة الدر تنظر إليها نظر  
المداعب فاجابتها : « يظهر أن سيدتي ملت رفقتي ؟ » . وضحكت

فقالت شجرة الدر : « لا ، لكنني نظرت الى مستقبلك ، فمن كانت  
في مثل ما أنت فيه من الجمال والعلم ورخامة الصوت يجب أن تنال  
نصيهاً حسناً . وأنا على ثقة أن هذا الشاب الباسل من خيرة الشبان ،  
وله مستقبل مجيد . فإذا أخطأ ظني فيه ولم يكن الرجل الذي أَرْضاه  
لك لا أزوجه بك . لا تخافي أنني شديدة الغيرة على مصلحتك لأنك  
بمنزلة ولدي كما تعلمين . . . والآن ينبغي لنا أن نطلب الرقاد فقد تعبنا »

فقالت شوكار : « ولكن التعب جاء بنتيجة ترضيها يا سيدتي . .  
إن الرجل الذي كنا نشكو منه قد مضى لسبيله وعادت الأمور الى  
مجاراها . فمن يا ترى سيتولى هذه السُلطة ؟ . أرجو ألا يعودوا الى  
بيت أبوب مرة أخرى . إن هؤلاء قد مضت أيامهم ولكل أيام دولة  
ورجال »

فاظهرت شجرة الدر أنها خالية الذهن من أمر المستقبل ، وإنها  
تتوقع أن تعرف الحقيقة في الغد بعد مجيء عز الدين . فأكبت شوكار  
على يد سيدتها وقبلتها للوداع ، فقبلت شجرة الدر رأسها

وحالما خلت شجرة الدر بنفسها انصرفت من باب سرى في الايوان  
الى قصرها وقدرت توسط الليل ، فلما صارت في غرفتها كان الخدم قد  
أناروها ، وهي في أجل ما يكون من الرياش ، وعلى جدرانها ستائر  
الديباج عليها الأنبيات الشعرية أو الصور والنقوش بأزهى الألوان .  
وما كادت تدخلها حتى استلقت على سريرها واستغرقت في

هو أجسها، وجعلت تناجي نفسها قائلة: «قتلوا طوران شاه - لا أقامه الله - وقد قتل بسعنى عز الدين حبیبی». ولما ذكرت اسمه تنهدت وقالت: «هو حبیبی لكنه شرير لا أظنه أميناً في حبه. وهؤلاء الرجال لا يؤمن جانبهم. ما لي وله؟! فليكن كما يشاء. ألم يخدمني في هذا الأمر؟! ليس بعد قتل طوران شاه إلا أن يعود الملك إلى يدي. هكذا وعدني عز الدين فهل تراه قد بر بوعده؟! فإذا صرت ملكة فانا أول ملكة في الإسلام. وسأجازي عز الدين خيراً لأنه أخلص في خدمتي»

قضت هزيعاً من الليل في مثل هذه الهواجس، ولما نامت حلمت أنها تولت الملك وقبضت على صولجانه، وذلك لفرط رغبتها في الملك بهذا يكلفها الوصول إليه، فأنها من طلاب السيادة بآنة وسيلة كانت وقد نبت ذلك في خاطرها منذ ولدت للصالح ابنها خليلاً لملكها أنه سيكون وسيلة إلى تحقيق مطامعها أو أنه يكون هو السلطان وهي الوصية عليه، لكنه توفي طفلاً

وفي صباح اليوم التالي جاءتها الجارية الموكلة بتدبير غرقتها وقالت:

«ان الأمير عز الدين أيبك ينتظر في الأيوان يا سيدتي»

فنهضت وأصلحت من شأنها، وبدلت جهدها في الزينة لتظهر بين يدي حبیبها في أجل حالاتها. وهذه طبيعة النساء على الأجل، فكيف بمن تعلق على ذلك الحب غرضاً سياسياً مهما؟ لبست ثوباً مخططاً معتم اللون، وضفرت شعرها صفائر قليلة أرسلت منها اثنتين إلى جانب وجهها، وغطت رأسها بغطاء مرصع بحجارة كريمة فوق الجبين له ذيل مزركش يغطي العنق من التقا حتى يسترسل على الظهر، وقد تقلدت بمقدين أحدهما من اللؤلؤ والآخر من العقيق وغيره، وتمنطقت بمنطقة مشبكها من الذهب المرصع، وهي مع كونها على أبواب الكهولة لا يزال ماء الشباب يتلألأ في محياها، ولا تزال عيناها ترسلان السحر إلى قلوب الناظرين، فتتملكهم الهيبة والقوة، لا اللطف والوداعة، كما ينبعثان من عيني شوكار

وكان عز الدين أيبك يشعر بقوة تلك المرأة وسيطرتها على قلبه ويحبها حب تهييب واحترام لا حب شغف وتلهف. وزاده رغبة فيها ما كان يعلمه من منزلتها عند الملك الصالح وتقدمها في داره ونفوذها عنده. فتودد إليها وبادلته هي حباً بحب، ووافق ذلك هواها لأنها مع مطامعها الواسعة لاحول لها، وهي امرأة لا تطمع في قيادة جند تستعين بهم في نيل أغراضها، فرأت في ارتقاء عز الدين إلى منصب كبير أمراء المماليك فائدة لها فأغاثته على نيل ذلك المنصب في زمن الملك الصالح، وهو لم ينس هذا الجميل لها. ولما سنحت فرصة

أخرى يخدمها فيها بقتل طوران شاه لم يضيعها ، وإن كان قد فعل ذلك لمصلحته أيضا

فلما اتم عمله أمسى أنفذ بعض الخبر مع ركن الدين واحتفظ بيقينه لنفسه ليتلذذ بسماع الاطراء والاعجاب بدهائه وبسالته . وجاء في ذلك الصباح على جواده مع جماعة من حاشيته وقواده ، ولم يسترح الا قليلا ثم جاء الى الايوان ، وبعت الى شجرة الدر لتوافيه



لم تمض هنيهة حتى دخل الفلام يعلن قدومها ، فوقف لها عز الدين ، ثم أكب على يديها كأنه يقبلهما ، فأجفلت وأشارت اليه أن يجلس ، وجلست هي على السرير وجلس هو بين يديها ، وأمرت الخدم بالخروج . ولما خلت به قالت : « أهلا بك يا عز الدين . قد بلغنا بلاؤك في انقاذ البلاد من ذلك الفلام ، جزاك الله خيرا . أنها خدمة للمسلمين »  
قال بلهفة المحب الولهان : « إنما فعلت ذلك خدمة لسيدتي وحبيبتى شجرة الدر وطوعا لا مرها »

فأثر كلامه في خاطرها لأنها تحبه ، فهاجت أشجانها وقالت : « انى أعرف هذا الجميل لك يا عز الدين . وليست هذه هي المرة الاولى التى برهنت فيها على صدق مودتك ، فانا أسيرة وداك »  
قال : « بكفينى منك لفظة رضا يا سيدتى ، ولا سيما الآن بعد أن صرت ملكة المسلمين »

فتظاهرت بالاستغراب وقالت : « ملكة المسلمين ؟ ماذا تقول ؟ » . قال : « أنت الآن ملكتى والقابضة على قلبى وستصبحين غدا ملكة المسلمين وعصمة الدنيا والدين » . قالت : « وكيف ذلك ؟ أفصح »

قال : « لما قتل الملك المعظم أمس اجتمع الأمراء ودار الحديث على من يتولى السلطة بعده ، واختلفت الآراء فقلت لهم : « اننا لا نحب أن نستقدم أحدا من آل أيوب ، وقد رأينا مصيرنا معهم ، وشدد آخرون فى أن يكون السلطان من البيت الايوبى ، فقلت لهم نعمل عملا ونسطا نحن إنما نحترم من الايوبيين مولانا الملك الصالح - رحمه الله - ولا نؤمن أحدا من أهله ، وهذه أم ولده خليل كانت من أعز الناس عنده ، وهى عاقلة مدبرة ، ومن أبناء جلدتنا وتغار علينا ، فأرى أن نوليها هذا المنصب . فرضى القوم بذلك ، واتفق رأيهم على أن تكونى ملكة مصر . الا يحق لى أن أقبل يدك وأطلب رضاك ؟ »

قالت : « معاذ الله : استغفر الله . انك حبيبى وصاحب الفضل على ،

لأنى لولاك لم أحصل على هذا المنصب . فإذا تم لى الملك فانت صاحب النفوذ الأول فيه ، فادعوك مدير المملكة . ومن هو أولى به منك ؟ »

فانشرح صدر عز الدين لهذا الوعد ، وهو ما كان يتمناه وقد حصل عليه على أن يتدرج منه الى ما هو اعظم . فاظهر الشكر وانه لا يستحق هذا الالتفات ونحو ذلك من أسباب الجمالة

أما هى فانها عرفت لصديقها فضله ، واخذت تشنى على علو همته وغيرته ، وانها لا تثق الا به ، وقالت له : « انى لا أستغنى عنك فى تدبير المملكة »

فقال : « أنت فى غنى عن تدبيرى لكننى طوع ارادتك وما تأمرين » وقضيا ساعة فى الحديث ، وكل منهما قد طار قلبه فرحا بما ناله ، ثم قالت : « ومن الحكمة أن نفرق المناصب على أصحابنا الذين معنا من الجند لتتأيد هذه الدولة فماذا ترى ؟ »

قال : « دبرت كل شئ ، ولا يخفى على سيدتى شجرة الدر أن جندنا مؤلف من اتراك وجركس وروم واكراد وتركمان ، وأكثرهم من المماليك المتباينين . وانما يهمننا نحن أن تقوى الاتراك لأنهم جندنا الاصليون فنقدمهم فى مناصب الدولة ، وهم كما تعلمين طبقات من حيث المناصب ، وفيهم أمراء المثين وأمراء الألوف ، وكلهم من الفرسان الأشداء ، وهم عضد الجند وقوته ، فنفرق هذه الوظائف على كبار الأمراء الذين أخذوا بناصرنا فى هذا العمل . ومناصب الدولة غير الجندية عديدة أعظمها منصب أمير السلاح الذى يتولى حل السلاح للسلطان فى الجامع الجامعة ، والداودار الذى يبلغ الرسائل عن السلطان ويرفعها اليه ويستقبل من يحضر ويقدم البريد ويأخذ خط السلطان على جميع المناشير والتواقيع والكتب ، والحاجب الذى يقف بين الأمراء والجند ، وأمير جاندار الذى يسلم الزردخانه ويقتل من أراد السلطان قتله ، والأستاذ دار واليه أمر بيوت السلطان كلها ، وغير ذلك من المناصب . فما الذى تريه من أمر هذه المناصب ؟ ثم لابد من ارضاء الجند بالعطايا »

قالت : « انى تاركة أمر ذلك كله اليك لأنك ستكون مدير المملكة ، فتولى هذه المناصب من تثق بهم من رجالك وترى فيهم الاخلاص لنا ، لكننى اطلب أمرا واحدا وهو أن تنظر فى أمر ركن الدين بيبرس الشاب الذى بعثت رسالتك معه . انه من خيرة الأمراء فوله منصباً بحيث يكون قريبا منا »

فلما سمع اطراءها ركن الدين أحس بالغيرة ، ورغم ثقته به حدثته



غيرته أن يطعن فيه - والغيرة تعمى وتصم - ولكنه رجع الى صوابه ودعائه وقال : « ان ركن الدين من خيرة الامراء ، صدقت . وارى ان توليه الداودارية ، وبذلك يكون قريبا منا »

واحسنت شجرة الدر بغيرة عز الدين - والمرأة أرق شعورا من الرجل ، لكنها تجاهلت واغضت لأنها لم يكن لها مطمع في خب أحد ، وإنما هي تحب العلى وتهوى السلطة وتبذل كل شيء في سبيلها ثم قالت : « ومنى يأتى الامراء من المنصورة ؟ »

قال : « اظنهم يكونون هنا غدا ليحتفلوا بتولية شجرة الدر ملكة على هذه الديار . ما أجل هذا الاسم في فمى ! وما اللطف وقعه في قلبى ! فهل لاسمى شيء من ذلك في قلبها ؟ » . قال ذلك ونظر اليها نظرة عتاب

فانظرت اليه وقد أدركت مراده وقالت : « سترى ثقتى وحبى ، وستعلم مركزك بالفعل لا بالكلام . أراك تلمح وتستطلع كأنك تشك في صدق مودتى . ساحك الله يا عز الدين .. » . وبان العتب في عينيها فاعتقد صدق قولها وقال : « معاذ الله ياسيدتى .. »

فابتدته قائلة : « لا تقل سيدتى ، أنت حبيبى ، أنت سندی ، أنت موضع ثقتى وعليك اتكالى . كن واثقا بذلك .. »

قال : « انى واثق ولكن المحب كثير .. » فقطعت كلامه وقالت : « دعنا من ذلك فانه مفهوم بيننا ، وهلم الى تدبير شؤوننا .. انى أسمع لفظا فى الدار »

فأسرع عز الدين وهو يقول : « إظن الامراء قد وصلوا من المنصورة ، ولعلهم يطلبون تقديم تيجانهم لك »

قالت مبالغة فى اكتساب قلبه : « وهل ترى ان استقبلهم ؟ »

قال : « لا أرى بأسا من استقبالهم اذا طلبوا ذلك لانهم أصحاب فضل فى هذا الامر ، وقد رأيت منهم ادعانا سريعا لما اقترحت ان نصير السلطنة اليك . ولكن طبعنا بسترسلين السريينك وبينهم ، ولا سيما انت الآن ملكة المسلمين »

فانظرت اليه بطرف عينها وهى تبسم وقالت : « ان عز الدين غيور ، ولكن يسرني ذلك ، لان الغيرة دليل المحبة ، على انى لم اكن احتاج الى تنبيه ، وانت تعلم انى لا ألقى احدا كما ألقاك » . قالت ذلك وأبشرت الى الخصى الواقف فى خدمتها أن ينزل الستر . ولم يكذب يفعل حتى جاء الحاجب يقول : « ان كبار امراء الجند يلتمسون التشرف بمقابلة السيدة الجليلة » . وذكر الحاجب اسماء الامراء بليلى الرشيدى وفارس الدين أقطاي وبيرس ركن الدين التتدقارى وستقر

الرومى . فقال عز الدين بالنيابة عنها : « فليدخلوا »

دخل كبار الامراء وحياوا تحية طيبة فاستقبلهم عز الدين بلطف .  
ثم تكلم الفارس اقطاعى عنهم قائلا : « ان الامراء قادمون لرفع واجب  
التعزية الى السيدة ام خليل فى القضاء الذى نزل بطوران شاه ،  
ولابلاغها ان اختيارهم قد وقع عليها لتتولى امور المسلمين ، فعسى  
ان يقع ذلك لديها موقع الرضى »

فاجاب عز الدين عنها قائلا : « ان مولاتنا السيدة الجليلة قد بلغها  
بلاؤكم الحسن ايها الامراء فى سبيل مصلحة الدولة وقد وقع القضاء  
على ذلك الملك فأسفت لما أصابه ، ولكنه جنى على نفسه رحمه الله »  
فقال الامير سنقر الرومى : « انه الجانا الى ما اتيناه لانه لم يجعل  
لنا يدا فى شؤون الدولة . وان مولاتنا زوج ملكنا المرحوم الملك الصالح  
أولى الناس بهذا الامر »

فاجابتهن من وراء الحجاب : « انى شاكرة مروءتكم وحسن ظنكم ،  
ولا يسعنى الا الانصياع لما تم اتفاقكم عليه وانتم نخبة الامراء اصحاب  
السيوف . وانما اقبل هذا المنصب اعتمادا عليكم وثقة بكم لانى  
لا أستطيع عملا ان لم تأخذوا يدي »

فصاحوا بصوت واحد : « نحن طوع امر مولاتنا نفديها بانفسنا .  
وغدا نحتفل بتوليتهما فى القلعة ان شاء الله »

ثم تحولوا للخروج فرافقهم عز الدين وهو يقول لهم : « ان مولاتنا  
شجرة الدر كانت تجدثنى قبل وصولكم مثنية على بسالتكم  
وشجاعتكم ، وقد أعدت الهدايا للامراء والرجال ، وقالت لى انها انما  
ترضى بالسلطنة لاتكم اخترتموها لها »

وقد صدقوه ، وسرهم ما سينالونه من الهدايا - وهى العطايا  
يعطيها السلطان عند توليته - وقد اعتزمت شجرة الدر ان تجعلها  
كبيرة لعلها بما يعتور سلطنتها من العقبات لانها أول امرأة تولت ذلك  
فى الاسلام

وخرج عز الدين لوداعهم وهو يثنى على همهم ويمنيهم ، ثم عاد  
الى شجرة الدر يلفتها الى الهدايا وقيمتها ، ثم افترقا على أن يمضى  
لتهئية الاحتفال



لم تطلع شمس ذلك النهار حتى علم اهل جزيرة الروضة بما نالته  
شجرة الدر ، وانها أصبحت سلطنة مصر . وقد وقع الخبر موقع

الاستغراب عند كثيرين ، وموقع الغيرة والحسد عند زميلاتها جواري الملك الصالح - وكل ذى نعمة محسود - وكانت أشدهن غيرة جاربة كردية الاصل اسمها سلافة ، كانت تفاخر سائر الجواري بأنها من قبيلة الملك الصالح ، وكان هو يقربها حتى جعلها قيمة قصره ، لكنها لم تلد منه كما ولدت شجرة الدر ، فأصبحت هذه أقرب جواريه اليه . وكانت سلافة بارعة الجمال لكنها قليلة الدهاء شديدة الغيرة سرية النعمة

وكانت مشهورة بجمالها الغتان ، يتحدث أهل الروضة والقاهرة بحسنها وإن لم يرها منهم الا القليلون . ومن بين الذين أتيح لهم رؤيتها تاجر بغدادى اسمه سحبان كان يتردد الى مصر ومعه الاقمشة الفارسية والهندية ، وكان الملك الصالح يدعوه اليه ويتنازع منه ما يختاره لنسائه من الانسجة الجميلة ويطلب منه احضار ما يحتاج اليه من مصنوعات العراق وفارس وغيرهما . فاتفق له وهو يعرض عليه بعض المنسوجات النسائية ، وكانت سلافة حاضرة لتختار نوعا منها ، أن وقع بصره عليها فأخذت بمجامع قلبه ، لكنه تجددوتهيب ، وشعرت هى بما جال فى خاطره ، وتجاهلت أنه أصبح بعد تلك المقاتلة يفتنم الفرص لأبلاغها ما يكنه فؤاده من الحب لها بهدايا يبعث بها اليها على أيدى بعض المحصيان دون أية اشارة ، فيظهر ذلك منه مظهر الأكرام للملك الصالح لأنها قيمة داره ورئيسة جواريه

فلما توفى الملك الصالح ضعف شأن جواريه ، فتوسم سحبان بابا للنظر الى سلافة نظر المحب الطامع بالقرب ، فاحتال يوما ببضاعة حلها الى القصر كمادته ، فلقبه استاذ الدار وتساوما ، ولم تتأت له مشاهدة سلافة ولا مخاطبتها ، وقد علمت هى بمجيئه وتجاهلت ، وفى خاطرها أن تراه ولكنها لم تكن تعرف سبيلا الى ذلك ، ولا حاجة لها اليه لأنها لم تشعر بالميل اليه

فلما علمت بما صارت اليه شجرة الدر فى ذلك اليوم ، وانهم سيحتفلون فى الغد بتوليبتها ملكة ، وإن ذلك انما جرى بسعى عز الدين ايبك - ولم تكن تخفى على سلافة علاقته الودية بشجرة الدر - هبت نيران الغيرة فى قلبها ، واصبحت تتقلب وتتعذب كأنها على قطع الجمر ، وأخذت تفكر فى ايقاع الاذى بشجرة الدر ، لا لسبب غير الغيرة ، فانما لديها أن ترى تلك النعمة قد زالت عنها . ذلك هو داء الحسد العضال ، وبين مرضاه من يفضل أن يشترك هو نفسه فى الاذى الذى ينوئ ايقاعه محسوده على أن يراه راقلا فى نعمته

ضاقت سلافة ذرعا بطول التفكير وهى جالسة فى غرفتها ، فأرادت

التشاغل ببعض الشؤون ، فتنقبت والتفت بملاءة من الحرير ، وخرجت من قصر النساء من ممر يؤدي الى حديقة تابعة لذلك القصر فيها الاشجار والجداول والرباحين والازهار كان الملك الصالح قد تعود ان يقعد فيها صباحا . وجاءها احد خصيان القصر مسرعا يعدو وهو يقول : « ان الشيخ سحبان جاء بانسجة جديدة »

فلما سمعت اسمه أجفلت ، لكنها أحست بانفراج كربها قبل ان تفكر في كيفية ذلك - وهو تنبؤ نسائي مبني على مجرد الشعور بلا برهان . فان المرأة تأتيها الفكرة أولا ثم تفكر في برهانها - فالتفت سلافة الى الغلام وقالت : « اين هو ؟ »

قال : « هو في فناء القصر ، وقد ذكرك بالتخصيص ، وقال ان بين أقمشته أشياء تسرك »

فقال : « لا اري أن أعود الى هناك . دعه يدخل الى هذه الحديقة من بابها الخارجى لأرى بضاعته » . قالت ذلك وأصلحت من شأنها وتنقبت بطرف الملاءة ، وأصبح قلبها يخفق ، ولم تكن تشعر بشيء من ذلك في مقابلاته السابقة

وبعد هنيهة دخل الغلام من باب الحديقة وهو يقول : « هذا الشيخ سحبان ياسيدتى » . ورجع

وكانت جالسة على كرسي بين الازهار فالتفت نحو الباب فرأت الشيخ سحبان كما كانت تراه قبلا بقلنسوته الفارسية وجبته السوداء ولحيته القصيرة الخفيفة وعينه البراقتين ، لكنها تفرست فيه هذه المرة فرأت في وجهه معنى لم تلحظه من قبل . فلما دخل حيائها فردت بمثل تحيته ، وأشارت اليه ان يتقدم وقالت : « اين الأقمشة ؟ »

فتقدم وقال : « انها لا تزال في القصر مع الجمال ، فاذا اذنت باستجلابها الى هنا فعلت »

قالت : « لا بأس ، دعها الآن هناك .. تفضل اجلس » . وأشارت الى حجر منحوت كالكرسي ، فجلس عليه وهو يصلح لقلنسوته ، فقالت له : « لم تكن عادتك اذا جئت بأقمشة أو نحوها ان تطلب سلافة باسمها »

قال : « وهل ساءك ذلك ياسيدتى ؟ »

قالت : « كلا .. لكننى لم أفهم السبب لتغيير عادتك معى »

قال : « غيرت عادتى جريا مع التغييرات الكثيرة التى انتابت اهل هذا القصر في هذا العام »

فتصاعد الدم الى وجنتيها ، وبانت البغته في عينيها ، وتذكرت ما هي فيه فقالت : « صدقت ، ان التغيير كثير - رحم الله الملك الصالح ، انه كان حرزا لهذه الدولة ، فلما مضى اضطربت احوالها . وظهرت في ماقيها دمة أوشكت ان تسقط

فقال سحبان : « نعم ، رحمه الله ، ولكن ما العمل ؟ هذا قضاء مبرم ياسيدي ، والدنيا دول » . قالت : « اعلمت ماذا جرى ؟ »

قال : « اذا كنت تعنين ما صارت اليه شجرة الدر فقد علمت »

قالت : « نعم ، اياه أعنى . وكيف تراه يا سحبان ؟ »

فاستانس بمناداتها له باسمه بلا لقب وقال : « أرى ؟ ماذا أرى ؟ أرى أمرا أقل ما يقال فيه انه لم يسبق له مثيل في الإسلام »

فابتسمت وقد أشرق وجهها ، وقالت : « أرايت مثل هذه البدعة قط ؟ » . قال : « لا . لكننى » . وبلغ ريقه كأنه يحاذر أن يبدى رأيه

فقالت بلهفة : « قل . ولكن ماذا ؟ . قل »

قال : « ولكن . كيف توصلت هذه الجارية الى هذا المنصب ؟ لا أدري »

قالت : « ألا تعرف عز الدين ابيك التركمانى امير الجيش ؟ »

قال : « نعم اعرفه . قد فهمت مرادك ياسيدي . نعم فهمت الآن عرفت الفرق بين السيدة سلافة الكردية والمحظية شجرة الدر التركية »

فتوسمت من عبارته ما يوصلها الى الموضوع الذى تريد الحوض فيه فقالت : « وما هو الفرق ؟ »

قال : « الفرق ان هذه وفيت بالامانة فى حق مولاه . وان تلك أشركت سواه فى حقه »

فاظهرت انها تعارضه وقالت : « لا . لا تقل ذلك انها ام ولده خليل . لا . لا تقل ذلك »

فأدرك سحبان انها تتظاهر بالاعتراض ، فقال : « قد قلت يا سيدتى ، انى أتردد على هذا القصر منذ عدة اعوام ، وقد رايت سلافة مرارا وعيناي شاخصة اليها ، وفى كل مرة أحاول أن اكسب منها لفنة فلا تفعل . ولم أر غيرها يحرس هذا الحرس . استاذنك ياسيدي فى هذا التصريح . وأما سواك فمع كونها ام ولده فان علاقتها مع عز الدين ابيك مشهورة ، ومع ذلك فهى الآن ملكة المسلمين ، ولا بد لكل منا أن يصدع بأمرها »

فصاحت فيه : « انها لن تكون ملكة واذا صارت فالى أجل قصير » . ثم رأت انها قد تورطت بالتصريح بما فى نفسها ، فتراجعت والتفتت

الى ما يحيط بها ، وتشاغل بزهرة قطفتها من شجرة الى جانبها  
وهي مطرقة وقد علت الحمرة بخياها

فتوسم سحبان في ذلك المنظر فرجا فقال بصوت منخفض :  
« ياسيدي لا ينبغي لنا أن نطيل الحديث بلا جدوى . اذا كان لابد لامرأة  
من اهل هذا القصر أن تحكم فانت أولى من سواك لأنك أرقى درجة  
من سائر نسائه ، وانت من عصبة الملك الصالح رحمه الله ، ولكن »

فقطعت كلامه قائلة : « لا . لا أريد أن أحكم . ان النساء لم يخلقن  
للحكومة يا سحبان ، ولذلك قلت لك ان شجرة الدر لا ينبغي أن تبقى  
في السلطة طويلا ، والآن أقول لك لا ينبغي أن تبقى أبدا » . قالت ذلك  
وبان الغضب في عينيها

وأدرك هو أنها تستحنه على مساعدتها في هذا الامر فقال : « اذا  
كنت ترين في مكانا لثقتك فاني رهين اشارتك . أفصح لي عما  
ترينه » . فغلب عليها الحياء ، والوردة في يدها ، فجعلت تشاغل بنشر  
أوراقها بين أناملها كما يفعل المضطرب الافكار وهو لا يدري ، فابتدورها  
سحبان قائلا : « اذا كنت لم تفهمي مرادى بعد فاني أتجاسر وأفصح  
عما بكنه ضميري لك يا سيدة الملاح . . اني أسير هواك منذ عرفتك ،  
وكلماً زدت اعراضاً عني أيام الملك الصالح ازددت اجلالا لأخلاقك  
الفاضلة . وأما الآن وقد مضى ذلك الملك الى سبيله ، فهل ترين  
في سحبان ما يستحق التفاتك وثقتك ؟ »

فازدادت حياء ، وتوردت وجنتها ، وشعرت بخفقان قلبها ،  
وأوشكت أن تنسى الامر الذي كان شغلها الشاغل في ذلك الصباح .  
ثم التفتت الى ماحولها فلم تر غير الاشجار والرياحين ، ولم تجد  
ما تشاغل به عن الجواب ريثما تعمل فكرتها . وأدرك سحبان ما دار  
في خلدها فتحفز كأنه يريد النهوض ، فمدت يدها نحوه وأشارت  
اليه أن يمكث . وظلت ساكنة وهي تعض شفتيها وتمسح جبينها  
وتصلح ثيابها فقال لها : « دعيني أنصرف الآن فربما كان وجودي معك  
سببا للقييل والقال »

فنظرت اليه نظرة اخترقت أحشاءه وقالت : « واى قيل وقال ؟  
اننى لا أخاف أحدا ، وأما وجودك هنا فانه لازم لى »  
فهش لها وضحك كأنه نال أمرا لم يكن يتوقع الحصول عليه وقال :  
« اذا كان وجودى هنا لازما لك فاني رهين أمرك »



اعتدلت سلافة في مقعدها ، والجد بادق عينيها ، ولو كشفت عن

وجبهها لظهرت دلائل العزم والاصرار حول شفيتها ، وقالت : « هل أنت صادق فيما تقول ؟ »

قال : « جربى يا سيدتى . بعد أن تسمعينى كلمة منك يطمئن لها قلبى . الا ترى فى الرجل الذى يستحق رضاك ؟ »

فأشارت برأسها وعينها وقالت : « بلى ! والدليل على ذلك انى سأعرض عليك أمرا خطيرا لا يجوز أن يطلع عليه أحد على وجه الأرض » وسكت

فقال : « تفضلى يا سيدتى » . قالت : « وسالكفك بمهمة لا تخلو من الخطر »

قال : « روحى فداك . لا أبالى ان أموت فى سبيل رضاك » . فقالت : « أنت من اهل بغداد تسافر اليها كل عام ، اليس كذلك ؟ » قال : « أسافر اليها متى شئت » . قالت : « ولماذا لا تمكث هناك ؟ » قال : « لابد من الجواب عن هذا السؤال ؟ » . قالت : « نعم »

قال : « ان هذه الجلسة التى سمح الزمان بها على قصرها جعلتنى أشعر ان قلبنا متحدان من عهد بعيد . فأذننى لى أن أخاطبك بجسارة وصراحة » . قالت : « هذا ما أريده منك »

قال : « لا أقيم فى بغداد لأنى شيعى ، والخلفاء العباسيون يكرهون الشيعة ويطاردونهم ، ولأسيما فى بغداد ، فانه لا تمضى سنة لا يقاسون فيها تعديا أو اضطهادا أو نهبا أو قتلا ، ففضلت الرحيل عن ذلك البلد ، وأن كنت فى غنى عن التجارة ، ولكننى جعلتها سبيلا للأسفار . وإذا سافرت الى بغداد فلا أمكث فيها الا ريثما ابتاع البضاعة وأعود »

قالت : « هل تعنى أن الخليفة المستعصم الحالى يطارد الشيعة ؟ » قال : « أكثر الخلفاء العباسيين فعلوا ذلك ، والمستعصم هذا من أشدهم وطأة علينا ، فقد قاسيننا فى أيامه الإمرين » . قال ذلك والغضب يتجلى فى وجهه

فأطرقت وبان التردد فى عينها وسكتت ، فقال : « مالى أراك تترددين ؟ قولى ما يخطر لك » . قالت : « أخاف ان يكون فى قولى تعب عليك » . قال : « لا لدة فى الحب ان لم يرافقه التعب »

ولما ذكر الحب اختلج قلبها فى صدرها وقالت : « انت تطلب ذلك باسم الحب يا سحبان ؟ » . قال : « اذا كنت تأذنين »

قالت : « نعم . أنظر يا سحبان . ان هذه الجارية التركية لا ينبغي ان تبقى ملكة الا ريثما تصل أنت الى بغداد وتعود منها »

ففهم مرادها وقال : « لك على ذلك . وهل تريد أن اذهب بهذه

المهمة من عند نفسى أم أكون رسولا منك ؟ »  
قالت : « بل تكون رسولا تحمل كتابا منى الى بغداد ، ولا يصل  
الكتاب حتى يأتى الجواب بخطمها لا بحالة »

قال : « لمن تريد أن يسلم الكتاب ؟ » . قالت : « سلمه الى قيمة  
قصر النساء هناك . أنها صديقتى ، ولى معها مودة . هل تفعل ذلك ؟ »  
فنهض وقال : « أفلعله الساعة . هاتى الكتاب » . ومد يده الى  
منطقته واستل منها دواة مغروسة فيها واستخرج القلم منها ودفعه  
اليها وأخذ من جيبه ورقة بيضاء دفعها اليها فتناولت الورقة والقلم  
وهى تتفرس فى وجه سحبان وهو ينظر فى عينيها . بقيا لحظة على  
هذه الحال كأنهما يتفاهمان بالعيون . ثم قالت سلافة : « ان هذه هى  
المرّة الاولى التى تخاطبنا فيها ، ألا تعد ذلك تسرعا منى ؟ »

قال : « جسى قلبك . . فمن القلب الى القلب دليل . وإذا كنت فى  
ريب من صدق خدمتى أقسمت لك بما تريد » . وهم أن يقسم  
ولكنها أمسكت بيده وقالت : « لا حاجة الى اليمين »

وكانت هذه هى المرة الاولى التى تلمس فيها يدها يده منذ تعارفا ،  
فأحس كلاهما بالقشعريرة وهى دليل التحاب ، ولا تحدث عند كل  
تلامس بين الجنسين ، وإنما تقع بين اثنين فى قلبيهما استعداد الى  
الاتحاد . او بالتعبير العلمى « بين كهربائيهما تجاذب » . ويزيد هذه  
القشعريرة ظهورا قلة الاختلاط بين الجنسين والمبالغة فى التحجب ،  
ويلوح للباحث فى نواميس الحب وظواهره أن أسبابه تقوى أو تضعف  
على حسب الامزجة والأشخاص ، أو كان الواحد متمم للآخر ، فإذا  
التقى اثنان من هذا النوع شعرا بالتجاذب لأول مرة على أن للجمال  
المادى والعنوى قوامد أجمع الناس عليها ، يظلب فى أصحابها أن يلفتوا  
أنظار الناس ويحتدبوا قلوبهم

فلما أحسنت سلافة بتلك الرعشة اتخذتها دليلا على صدق مودة  
سحبان ، وتناولت الورقة وأخذت تكتب ، وكانت بارعة فى الخط  
والإنشاء لأن السلاطين كانت لهم عناية فى تعليم الجوارى الكتابة واللغة  
والادب . ولما فرغت من الكتابة أفلت الكتاب ودفعتة اليه وقالت :  
« هذا سرى قد عهدت به اليك . اذا أفلحت فقد برهنت لى على  
ما تقول »

فتناوله وقال : « أستودعك الله » . ومشى وهو يلتفت اليها حتى  
خرج من الحديقة ، وظلت هى بعده واقفة تفكر فيما فعلته ، فخالج  
ذهنها ندم على تسرعها ، لكنها راجعت ما رآته وشاهدته منه ،  
وتذكرت تاريخ معرفتها به ، فلم تجد ما يوجب الحذر



## أول ملكة للمسلمين

أصبحت القاهرة في اليوم التالي وأهلها في هرج ، والناس يزحم بعضهم بعضا نحو القلعة ، بين راكب وماش ، رجلا ونساء . حتى أصبحت ساحة الرميلة تحت القلعة غاصة بالناس من كل الطبقات ، وقد اختلط بهم الباعة يحملون أنواع الكعك والفاكهة والثمار والمملحات والحلوى والمأكولات الجافة . وبينهم حلة الودع وكشاف البخت وفاتحو المنديل ، ينادى كل واحد على بضاعته على اختلاف الألحان وطبقات الاصوات ، وقد علت ضوضاء الناس وأصوات الحيوان

ولو أشرفت على الرميلة من سور القلعة لرأيت الساحة بقعا ، يشغل كل بقعة جماعة متشابهون لباسا وشكلا ، أكثرهم قاعد القرفصاء ، يلهو الواحد منهم بشيء يمضغه أو عود ينكت به الأرض أو أداة يلاعب بها أصابعه . وهناك جماعات التفت على رجل يلاعب دبا أو قردا ، ثم يدور عليهم بدفه يجمع ما يجودون به من الدوائق ، وجماعات هدا جوههم لاشتغالهم بحديث يقصه عليهم شيخ منهم يذل جهده في اجتذاب قلوبهم ونيل إعجابهم ، وهم يتناولون بأعناقهم نحوه ، وقد أخذهم الاستغراب

ولو أتيت لك حضور تلك المجالس لرأيت عجبا وأخذتك الدهشة من أخلاق العامة وسرعة تصديقهم للفرائب ، لأنك قد تسمع حديثا أنت أعلم الناس به فتجده تشوه واضطرب حتى انقلب إلى غير ما تعرفه ، وقد تنكره وتظنه حديثا آخر . ويزداد تحريفهم للأحاديث بنسبة ما تحويه من الغرابة عن مألوفهم ، فما ظنك في موضوع ذلك اليوم ، وهو تنصيب امرأة ملكة على المسلمين ، مما لم يسبق له مثيل في تاريخهم . فتضاربت أقوالهم في ذلك ، واخترعوا للأسباب الباعثة عليه ، وافترضوا الأسرار ، وتكهنوا بمصير هذه الحال ، وزعم بعضهم أنهم صاروا في آخر الزمان ، وسوف تنقضى الدنيا ، لأن ذلك من دلائل الفناء

وبينما هم في ذلك إذ سمعوا نفيخ الأيواق وقرع الطبول ، ثم رأوا موكب أمراء المماليك البحريين متوجها نحو القلعة وفي مقدمته كبراء

الفرسان بالملابس المذهبة تتلألأ في شمعاع الشمس حتى يكاد يرىها يذهب بالابصار ، وبعدهم هودج شجرة الدر تحمله البغال وقد تجل بالحرير المزركش ، وأحاطت به الفرسان في ازهى الملابس وأجلها وفيهم حلة الاعلام ، ووراءهم كوكبة من الفرسان اصحاب الزاريق ثم كوكبة من حلة الرماح . ووراءهم جاهيز الناس مشاة على اقدمهم يوجون كالبحر الزاخر ، وفيهم من تبطل وأوقف غملة لمشاهدة موكب الملكة ، وهو لا يرجو شيئا من وراء تلك الخسائر ، وإنما يساق العامة الى ذلك بفطرتهم الساذجة وميلهم الطبيعى الى مشاهدة الغرائب ، فهم يؤخذون بالظواهر ويتبعون كل ناعق . ولذلك كان اجماع العامة على أمر ما لا يدل على صوابه

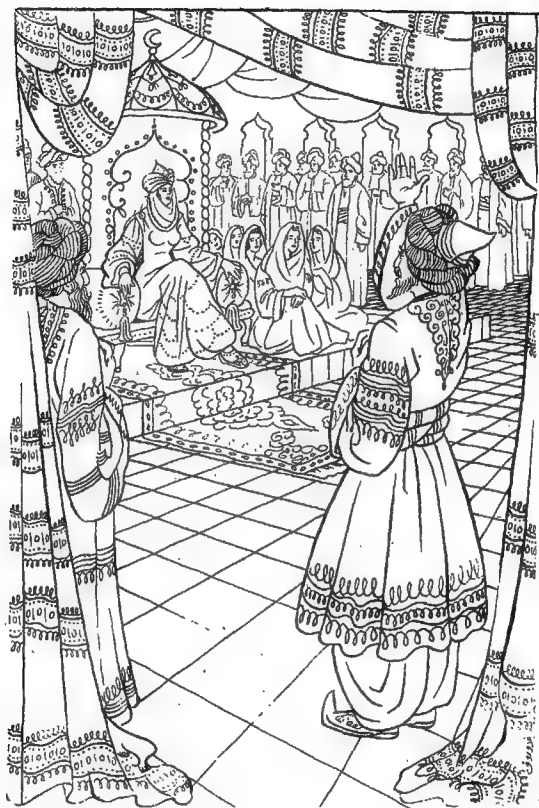
وصل الموكب الى باب القلعة الكبير المواجه للقاهرة ، ويقال له الباب المدرج ، وكانت طائفة من الجند قد وقفت هناك بالسلاح لت منع الناس من الدخول . وللقلعة باب آخر نحو القرافة أقفلوه في ذلك اليوم ثلثا تنزاحم الاقدام في ساحة القلعة ، وهى ساحة كبيرة في وسط القلعة تنتهى بمصطبة ورائها باب كبير هو الباب الداخلى المؤدى الى الابنية الخاصة بسكنى السلطان والأمراء والأجنساد ، وفيها الجامع والايوان

دخل الموكب القلعة من بابها المدرج ، وظل العامة خارجها يكتفون بما يسمعون من قرع الطبول ونفخ الأبواق . وقطع الموكب الساحة حتى وصل الى الباب الداخلى المذكور ففتحوه ، ولم ياذنوا لغير الخاصة بدخوله ، ولا سيما الأمراء وأرباب المناصب ونحوهم ، وخلفوا في الساحة جمعا من الخاصة اكتفوا بأنهم امتازوا عن سائر العامة بدخول القلعة

ودخل الموكب من ذلك الباب الى معر فسيح تحف به الابنية وهناك ترحل الفرسان ، وأعتنى جماعة بشجرة الدر فانزلوها عن الهودج ، وبينهم وبين الايوان الكبير ممرات وأبواب لا بد من اجتيازها ، وكانوا قد فرشوها بالسجاد وعلقوا على أبوابها الرياحين والاعلام ، ومشى عز الدين ايبك وسائر الأمراء - وهم بملابسهم الفاخرة - بين بدى شجرة الدر ، وهى في ذلك اليوم في أبهى ما يكون من اللباس . وكانوا قد أعدوا لها قبة من الحرير المطرز قائمة على أربعة أعمدة يحملها نفر من القواد ، وقد أرخيت ستائرهما . وشجرة الدر في داخلها ، ومعها جازيتها شوكار وبعض الصيغات



لم يصل الى الايوان الكبير الا الخاصة وكبار الموظفين وهم اصحاب



« ووجه عز الدين ايبك خطابه إلى الجمع قائلا : نحن الآن  
نحتفل بتنصيب مولانا الصالحة شجرة الدر على العرش ... »



الطامع وطلاب السيادة ، يسخرون العامة لأغراضهم ويسوقونهم كالأنعام لا يدرون مصيرهم ، وربما اكتسبوا رضاهم بأكلة يطعمونهم أياها أو بضلة يتلونها بين أيديهم ، أو دعاء لولى أو قديس يعرفون أنهم يعتقدون كرامته

وظل أصحاب القبة سائرين حتى وصلوا الى صدر الايوان ، وكانوا قد نقلوا اليه سرير السلطنة الذهبى ، فجعلوا القبة فوق السرير وأرخوا ستائرهما حوله فقامت شجرة الدر على السرير وبين يديها شوكار والوصائف يأتمرن بأمرها ولا يراها أحد من الحضور . ثم دخل قاضى القضاة فقام الى يمين القبة ، ووراءه صاحب بيت المال وناظر الحسبة ، والى يساره كاتب السر وغيره من كبار أرباب المناصب وذوى السن وأمرأء المشورة ، وجلس بين يدي القبة فى وسط الايوان الأمير عز الدين أيبك أمير الجند ، وكبار أمرأء الماليك وبينهم ركن الدين بيبرس . ووراء القبة والسرير صفان من حلة السلاح ، ووراءهم الحجاب ونحوهم ، وأتوا فى جملة ذلك بجماعة من أسرى الأفرنج عليهم البسة الأسرى مبالغة فى الامتزاز

وبعد أن استقر بهم الجلوس على هذه الصورة وقف عز الدين أيبك ووجه خطابه الى الجمع وقال : « أيتها الأمراء والقواد . لا يخفى عليكم ما أصاب الملك العظيم طوران شاه . انه أساء السيرة وأراد التنكيل بجند هذا البلد البحرين الذين عرفتم بلاءهم فى زمن الملك الصالح رحمه الله فى حرب الأفرنج وغيرهم ، فوقع القضاء عليه ، ولما خلا كرسي السلطنة ممن يسوسها لم نجد من هو أولى بها من أصحاب الحق فيها الا مولانا الصالحة شجرة الدر والددة خليل وصاحبة الملك الصالح لما نعلمه من ثقة مولانا المرحوم بها وهى أم ولده ، فلجمع رأى الأمراء والنواب والقضاة على اختيارها ملكة تتولى شؤون الدولة بمساعدتهم . وقد عهد أصحاب السيوف بطاعتها لاحقاق الحق وحماية بيضة الدين . ونحن الآن نحتفل بتنصيبها ، وسندعو لها على المنابر بعد مولانا أمير المؤمنين المستعصم بالله . وسننقش اسمها على الدنانير والدراهم فادعوا أمير المؤمنين »

فضج الجميع بالدعاء للخليفة وهم وقوف ، ثم تقدم قاضى القضاة فدعا لشجرة الدر قائلا : « واحفظ اللهم ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح »

فقال عز الدين أيبك : « وقد عهدت الى فى تدبير الملكة باسمها ، وولت الأمير ركن الدين بيبرس الداودارية الخاصة . وأمرتني أن أثبت أصحاب المناصب المواليين لنا فى مناصبهم من أصحاب الاقلام

وأصحاب السيوف » . ثم أشار الى صاحب الستر الواقف بجانب القبة فأزاح الستر ، فبان داخل القبة فإذا هى مبطنة بأطلس أصفر مزركش ، وفي صدرها شجرة الدر جالسة على السرير قد أرخت النقاب وعلى رأسها العصائب السلطانية وهى صفر عليها القاب الملكة مطرزة بالذهب

فعاد الناس الى الدعاء لها ، ثم أرخوا الستر وعاد عز الدين الى الكلام فقال : « وعمّا قليل نحتفل بقراءة المرسوم الذى سيرد علينا من أمير المؤمنين المستعصم بالله يؤيد سلطنة مولانا حفظها الله »

وكان الناس فى أثناء الاحتفال سكوتا كان على رؤوسهم الطير ، وقد أخذتهم الدهشة لأنهم لم يسمعوا بمثل هذه الولاية ، وفيهم الغاضب والعائب والمعترض ولكن لم يجسر واحد منهم على الكلام لعلمهم أن هذه السلطنة إنما كانت بتواطؤ الممالك البحرين أصحاب القول فى ذلك العهد

وقبل الفراغ من الاحتفال أشار عز الدين الى بعض الوقوف من الداودية فمضى وعاد ومعه الاطباق عليها صرر النقود ، فأخذوا يوزعونها على الحضور وعلى كل صرة اسم صاحبها

ولما هم الحضور بالانصراف وقف عز الدين ايبك وقال : « ايها الامراء : ان مولانا ملكة المسلمين اقتضت ارادتها أن تنقل دارالسلطنة من جزيرة الروضة الى هذه القلعة ، وستكون هذه القلعة مقر ارباب المناصب بدلا من قلعة الملك الصالح فى الروضة ، لأن السبب الذى من أجله جعلها الملك المرحوم كرسيا للسلطنة قد زال »

فكان لهذا التغير وقع حسن عند بعض السامعين ووقع سيئ عند آخرين ، ولكن لم يجسر واحد على ابداء رأى أو ملاحظة . واقتضت الحفلة وانصرف كل الى مكانه ، وانتقلت شجرة الدر الى قصر خاص بالسلطنة هناك . وأخذوا فى نقل الرياض وغيره من جزيرة الروضة ، ولم تعد تلك الجزيرة كرسيا للسلطنة من ذلك الحين ، وأخذوا فى تمريرتها من زخرفها ونقوشها ولاسيما لما صارت السلطنة الى عز الدين ايبك فإنه أمر بهدمها ونقل ما كان فيها من الأعمدة والنوافذ والسقف والاشباب لبناء مدرسة باسمه فى القاهرة

وكانت شوكار فى أثناء الاحتفال مع شجرة الدر فى الهودج كما تقدم . فلما رفع الستر أنزوت فى مكان ترى الحضور منه ولا يرونها ، وكان نظرها لا يتحول عن ركن الدين وهو بلباسه الرسمى ، على رأسه القلنسوة الجندية ولباسه مزركش بالقصب وقد زانه شبابه . وسرها على الخصوص ما سمعت من أنه صار داودارا لسيدتها لعلمها أنه

اصبح اقرب اليها اذ يكثر ترده الى قصر الملكة لقضاء مهام منصبه ،  
فخفق قلبها فرحا وتحققت قرب السعادة لانها ستكون زوجة  
لداوداد السلطنة



انتقلت شجرة الدر بعد انقضاء الاحتفال الى قصر السلطنة ، وقد  
اعدوا لها فيه غرفة فرشوها بأحسن الرياش . ودخلت الغرفة يحيط  
بها الجوارى والوصائف وفي مقدمتهن شوكار فاخذن في تبديل  
ملابسها ، ثم امرت الخدم بالانصراف ، فلما خلت بنفسها اخذت  
تفكر فيما صارت اليه مما لم تكن تحلم به في صباحا ، وتذكرت صباحا  
وكيف كانت تنظر الى السلاطين والملوك ، وما كانت تراه بينها وبينهم  
من المسافات البعيدة ، وكيف أصبحت اليوم ملكة المسلمين تطأ  
لها الرؤوس وتغنو لها الرقاب . فلما تصورت ذلك انشرح صدرها  
وانبسطت نفسها ، لكنها ما لبثت أن فكرت فيما يعتور ذلك المنصب  
من المشاق ، وما في مصر يومئذ من المشاكل والحروب مع الصليبيين ،  
عدا الاحزاب المختلفة بين رجال الدولة والجند ، فانقبضت نفسها . .  
لكنها لما تذكرت عز الدين مدبر المملكة ومن معه من الامراء الذين  
ياخذون بناصرها للعصية أو للعطاء ، هان الامر عليها ، وان بقي  
الانقباض ظاهرا في وجهها

وبينما هي في ذلك اذ دخلت عليها جاريتها شوكار والفرح يتجلى في  
وجهها واكبت على يد سيدتها وقبلها وهي تقول : « الحمد لله على نعمه  
يا سيدتى . . انت ملكة المسلمين . . ألم أقل لك عندما رأيتك على  
ذلك السرير انه لائق بك ؟ . مالى أراك منقبضة النفس ؟ . هل ساءك  
مجيئى الآن ؟ هل تمارين بانصرافى ؟ »

فطوقت عنقها بيديها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهي تقول :  
« كيف تنصرفين يا شوكار ؟ ! . لا . لا . لست منقبضة من شيء .  
انى شاعرة بالسعادة التى انا فيها والحمد لله . ولكننى افكر فى المهام  
الكثيرة التى بين يدي . كنت قبل الآن اتمنى أن يتم هذا الامر لى ،  
فلما تم ذهب شهوة ذلك الميل ، وتبين لى المنصب بما يحف به من  
المشاكل والمسئوليات »

فأرادت شوكار مداعبتها لتشغلها عن تلك الهواجس فقالت وهي  
تضحك : « اذا كنت قد كرهت هذا المنصب فانا اخذه منك وأخفف  
عنك مهامه »

فابتسمت شجرة الدر وقبلت شوكار ثانية وقالت : « لم اكره هذا

النصب يا عزيزتي ، فاني لم أذق منه شيئاً بعد ، لكن لا ينبغي لي أن  
انفاسي عما يحيط به من أسباب العناء »

قالت : « ان هذه الأسباب لا يد منها . وهذا مولانا عز الدين مدير  
الملكة يحمل منك كل انقائها ، وهذا ركن الدين . انه بطل » . ولما  
ذكرته خجلت وأطرقت حياء

فضحكت شجرة الدر من قولها ومدت يدها الى جبينها تمسحه  
وقالت : « ان ركن الدين بطل . واذا شئت أن ترى ذلك وتختبريه  
فاني ساكفه بمهمة ذات بال لا أرى بين الأمراء من أثق به وأعول عليه  
في قضائها غيره . هل تأذنين في ذلك ؟ »

فخجلت شوكار من هذا الاستئذان وقالت : « من أكون أنا ليؤخذ  
الأذن مني ؟ السفا جميعا عبيدا نصدع بالأمر ؟ »

فلما سمعت هذا التعبير - وهو مما يقال للملوك - عظم الامر  
عندها ، لكنها كانت عاقلة تنظر في الأمور الى حقائقها ، ولا يهمها  
الزخارف فقالت : « كلنا عبيد يا شوكار ، وانما تسألتك لأن ركن الدين  
يهلك الآن . اليس كذلك ؟ »

فقالت وقد توردت وجنتاهما من الحجل : « هبى أنه لي ، فانا لم أكن  
لاحصل عليه لولاك » .

قالت : « ليس هذا هو المهم في الأمر يا شوكار ، ولكنني احب  
قبل أن يعقد له عليك أن يأتي عملا يوجب له الفخر على أقرانه ، فاذا  
تزوجك بعد ذلك زاد افتخارك به »

قالت : « الأمر لك في كل حال » . لكنها في الحقيقة لم يسرها هذا الأمر ،  
لأن ركن الدين من الأمراء المعروفين ، واذا لم يكن بد من زيادة أسباب  
شهرة فليكن ذلك بعد العقد . . وقد أصبحت لفرط غبطتها بذلك  
النصيب تخاف أن يؤخذ منها ، لكنها لم تستطع اظهار غير الرضا .  
أما شجرة الدر فانها لحظت ترددها وما خامر ذهنها من هذا الامر  
فتنهدت ونهضت وقالت : « اتبعيني يا شوكار »

فتبعتهما وهي تفكر في غرضها من هذا النهوض ، فاذا هي قد مشت  
في ممر الى غرفتها الخاصة . وهي غرفة أعدوها لها باثمن الرياش ،  
فدخلت واستلقت على سريرها بلا كلفة وهي تقول : « آه يا شوكار ،  
لقد تعبت من التفكير ، وشعرت بثقل العمل الذي أخذته على عاتقي . .  
أطربيني بصوتك الرخيم لعلى أروح عن النفس قليلا »

فسرها هذا الاقتراح ، وأمرت بعض الظلمان باحضار العود ، فتناولته  
وأخذت تضرب عليه باتقان ، وتضنى أغاني تعلم أن شجرة الدر تطرب



لها . فأنست منها استحسانا كثيرا وهي تضحك لها وتعجب بها ،  
وشوكل تآهة الفكر في ركن الدين ، وتود أن يكون حاضرا لتراه لعلها  
تتحقق منه شيئا . لأنها لم تملك فرصة تسمع منه فيها قوله أنه  
يحبها ، وأحست هي أنها أحبته وخافت ألا يكون قد بدلها حبا بحب ،  
وبان انقباض قلبها في وجهها ، وظهر أثر ذلك في ضربها وغنائها ، فقالت  
لها شجرة الدر : « ما بالك يا شوكار ؟ » فانتبهت لنفسها وقالت :  
« لاشيء يا سيدتي » . ثم ابتسمت لتخفي ما بها وقالت : « شكرا  
يا مولاتي .. أتى محاطة بكل أسباب السعادة والحمد لله » . وسكنت  
وفي سكوتها شبه انكار

فلحظت شجرة الدر شيئا مما اعترى جاريتها شوكار فقالت :  
« لاشيء يا سيدتي » . ثم ابتسمت لتخفي ما بها وقالت : « شكرا  
خاطرك شيئا تكتمينه . هل ساءك ما قلته عن ركن الدين من امر  
السفر ؟ »

قالت بلهفة : « كلا يا سيدتي ، أن ما تأمرين به لا يكون فيه غير  
أسباب الراحة والسعادة ولكن » . واطرقت حياء

قالت : « ولكن ماذا ؟ . أن هذا الاطراق يعجبني من الفتاة في مثل  
هذه الحال ، يظهر أنك تشتاقين رؤية ركن الدين قبل سفره . ولعلك  
تحبين أن تعرفي رأيه فيك . أتى سادعوه الساعة يجالسنا بحجة  
عزى على تكليفه بتلك المهمة » . وضغقت فجأة بعض الغلمان فأمرته  
أن يدموا الداوادر ركن الدين ، وعادت الى مشاطة شوكار فقالت لها :  
« لا يمضى كثير حتى يأتى ركن الدين .. غنى شيئا من عندك »

فأخلت تفنى ، وقد فرحت بقرب قدوم ركن الدين ، لكنها أحست  
بخفقان قلبها فتشاغلت بالضرب والغناء

وبعد قليل جاء الغلام يقول : « أن الأمير ركن الدين بالباب » .  
فقالت : « يدخل » . وأشارت الى شوكار أن تسكت

فدخل وألقى التحية ، فابتسمت له ، وقد ألت النقاب بعض الشيء  
على رأسها ، وفعلت شوكار مثل فعلها . وقالت شجرة الدر : « مرحبا  
بالبطل ركن الدين .. تفضل » . وأشارت الى كرسي بين يديها ، فجلس  
عليه وهو يتأدب في نظرائه ويفكر في سبب تلك الدعوة ، فقالت شجرة  
الدر : « أعلم يا ركن الدين لماذا دعوتك ؟ » . قال : « لا يا سيدتي .  
وانما أعلم أنى سيف من أسياف مولاتي ترمى بى حيثما شئت » .  
فقالت : « بارك الله فيك . لكن هل تفعل ما تفعله أكراما لى وحدى ؟ »

فلما سمع قولها علم أنها تداعبه وتشير الى علاقته المستقبلية  
شوكار ، فسرر أنها بادرت بالحديث فقال : « نعم يا سيدتي ، لأنك

انت صاحبة الامر والنهى من كل وجه . والتفت الى شوكار وابتسم  
فخجلت شوكار وبان الحجل في عينيها واطرقت ، فقالت شجرة الدر :  
« ارى شوكار قد خطت ، ويعجبني الحياء منها ، لكننى احب ان  
تسمعن لحناً آخر يشبه ركن الدين في سماعه . ما رايتك ؟ »

فقالت : « انى رهينة امرك يا سيدتى » . قالت : « اسمعينا او  
اسمعيه ، لعله يسمعا ما يطرب من غير لحن او نغم »

فتناولت شوكار العود وأخذت تضرب عليه وتغنى حتى أخذت  
بمجامع قلب ركن الدين ، فطرب طربا كثيرا وهاجت عواطفه ، وكان  
قد سمع عن صوت شوكار ولم يسمعه . أما وقد سمعه فازداد إعجابا  
به وتعلقا بزواجها ، وعلم مقدار النعمة التى وهبته اياها شجرة  
الدر لما وعدته بتلك الغادة المطربة

وكانت شوكار تضرب وتغنى وعيناها تراقبان حركات ركن الدين ،  
فراته قد هاجت أشجانه وبان الطرب والهيام في وجهه ، ولولا تهيبه  
من وجود الملكة لقال أشياء كثيرة . ولحظت شجرة الدر ايضا ذلك  
وسرها ما لحظته ، لأنها كانت تريد أن تقبض على قلب ركن الدين  
لتستخدمه فيما تريد من الأمور ، أذ أصبحت - بعد أن صارت  
ملكة - تخاف من الدسائس والمناظرين من الداخل والخارج . وقد  
توسمت في ركن الدين همة عالية وبسالة فأرادت أن تملك قلبه ليكون  
طوع ارادتها فيما قد تعزم فعله ، لأنها كانت سيئة الظن فيمن حولها  
حتى عز الدين ايبك صديقها ، كانت ترى أنه غير أمين لها وأنه إنما  
يظهر الطاعة مؤقتا

فلما رأت هيام ركن الدين بشوكار قالت له : « هل أمجبك صوتها  
يا ركن الدين ؟ »

فتحرك احتفاء بذلك الاستفهام وقال : « تسأليننى عن صوتها ؟  
الا يكفي أنه يعجب ملكة المسلمين ؟ ومن لا يطرب لهذا الصوت  
الرخيم ؟ »

قالت : « وهى تضحك : « أرجو الا يكون الصوت وحده الذى  
أطربك » . فالتفت خلسة الى شوكار وسكت

فقالت شجرة الدر : « أراك تستشيرها في ذلك ، هل تشك في أنها  
تعجب بك ؟ »

قال : « اذا كانت ترى في شيئا حسنا فانما تراه بناء على رضا  
مولاتى الملكة عنى »

قالت : « لا أنكر انى وسيلة التعارف بينكما ، لكنها تسمع عن البطل

ركن الدين من قبل ، ويكفى ما تسمعه منى عن بسالتك . ويعجبني منها انها لا يعجبها غير رجال الحرب المستبسلين في الدفاع عن الدولة . ولذلك سالتك حين دخولك هل تعلم لماذا دعوتك فاجبت جوابا وقع من نفسى موقعا حسنا ، ولا شك أنه وقع مثل هذا الموضع عند شوكار . وقد لحظت ذلك في عينيها ، وبدلا من ان اتم حديثى معك طلبت اليها ان تسمعك صوتها وقد فعلت . . واتى في غاية السرور من تقارب قلبيكما . فلنعد الى ما كنا فيه . قل لى هل تعلم لماذا دعوتك ، ونحن فيما نحن فيه من امر الافرنج في دمياط وحولها ؟ »

قال : « انك تريدان ان اكفيك امرهم ، وهذا هين »

قالت : « سيعهد اليك الامير عز الدين غدا في ذلك ، ولكننى احببت ان اطمنئك ان هذا العمل يرضى شوكار ، وانها تحب الشجعان البواسل . ومن الجهة الاخرى لحظت من شوكار انها » . وضحكت وهي تنظر اليها ثم قالت : « لحظت انها تحب ان تتحقق راي ركن الدين فيها »

فقلب الحياء على ركن الدين وقال : « هل لركن الدين راي بعد امر مولاتنا الملكة ؟ »

قالت : « هى لا تريد ان يكون حبك لها طوعا لامر الملكة »

قال : « ان امر الملكة كان فاتحة الكلام ، ولكننى احبها الآن طوعا لامر قلبى . ويكفينى ان يكون عندها نصف ما عندى » . قال ذلك ونظر الى شوكار فاطرقت خجلا ، وتكلمت عيناها بما يعجز اللسان عن الافصاح به



لما وثقت شجرة الدر من ترابط قلبى ركن الدين وشوكار ، التفتت اليه قائلة : « والان يا ركن الدين كن رجلا مثل عهدى فيك . ان نجاحك في هذه المهمة ضامن لوصولك الى الرتب الرفيعة : سر بحراسة الله ، ولكن قبل ذهابك صافح شوكار وضع يلك في يدها . انى اسمح لكما بذلك »

فتقدم ركن الدين ومد يده ومدت شوكار يدها وتصافحا ، وهي اول مرة تلاست فيها يداهما ، فكانهما تفاهما وتعاقدا . ثم انحنى ركن الدين امام شجرة الدر وودعها وخرج ، فاحسنت شوكار كان قلبها قد خلع من صدرها وستار معه

فابتدتها شجرة الدر قائلة : « ألم اقل لك انه يتفانى في حبك ،

وسيزداد حبك له عندما ترينه عاد ظافرا من ساحة الحرب . انه سيناضل ويحارب باسمك . . فاهنتك يا عزيزتي بهذا البطل »

فاطرت وقلبا يخفق طربا ، ثم اذنت لها بالانصراف ليتفرغ لمهام الدولة . وبما كادت تخرج من عندها حتى جاءها الحاجب ينبتها بقدم عز الدين نائب السلطنة فقالت للحاجب : « قل له ينتظرني في الايوان » وكان عز الدين قد جاء الى الايوان للاقاة حبيبته على خدة ليهنئها بما نالته ، وهو يتوقع أن تكثر من الثناء عليه عند المقابلة على انفراد لأنه كان السبب في نيلها ذلك المنصب الذي لولاه لم تكن لتناله فلما لم يجدها هناك . . قصد اليها في غرفتها ، ولكنه رأى ركن الدين يخرج من عندها ، وعلى وجهه امارات الهيام ، ودعش ركن الدين عند مشاهدته وحياء وقد ظهرت البغته في كلامه . اما عز الدين فان الشك تسرب الى فكره ، وشبت الغيرة في قلبه فلم يزد على رد التحية ، وعزم على استطلاع سبب وجود ركن الدين هناك حالا يلاقى شجرة الدر في غرفتها

فلما عاد اليه الحاجب بأن ينتظر شجرة الدر في الايوان زادت وحشته وعظمت غيrote وخيل اليه أن شجرة الدر غلبت الكبرياء على قلبها حتى أصبحت تستنكف من ملاقة صديقها وسبب نعمتها في غرفتها . لكنه أخذ يغالب شكوكه وتجلد وذهب الى الايوان في انتظارها . واتفق أنها تباطأت في الوصول ريثما بدلت ثيابها ، ثم جاءت وهي تجر ذيل ثوبها الملكي والوصيفات بين يديها . فلما دخلت وقف لها ورحب بها فحيتها وشكرت اليه أن يجلس وصرفت الخدم

فلما رآها تهش له تغير ما في نفسه وانغضى عما سبق الى ذهنه وقال : « جئت لاهنيء مولاتي بمنصبها ، وأرجو أن تتأيد دولتها » فابتسمت ابتسامة الشكر وقالت : « اني لا انسى فضلك في ذلك يا عز الدين . ولا بد لي من الاعتكال عليك في فض المنازل التي تتناوب الدولة »

قال : « اني رهين الإشارة يا سيديتي »

قالت : « أنت تعلم ما يحيط بنا من الخطر وما يحلنا من الأعداء ولا سيما الأفرنج فانهم لا ينامون من مناواتنا »

قال : « لا يشغلك شاغل من أمر هؤلاء فاني مدير أمرهم »

قالت : « بارك الله فيك . . غير أنني رأيت ركن الدين يلبق بهنذا العبد . وقد سمعتك تشي على سيادته . . وقد لحقني أني رأيت اليوم وذكرت أمر الأفرنج بين يديه فرائت منه ارتياحا الى الخروج اليهم غير أنني أحييت أن يكون ذلك برأيك »

فلم يعجبه قولها انها رآته اليوم، وكيف تراه ان لم يكن ذلك على موعد بينهما ؟ . وكيف يكون ذلك في غرفتها لا في الايوان ؟ . لكنه تجاهل وقال : « ان ركن الدين اهل لثقتك . لا بأس من ان يعهد اليه في ذلك بأمر منك راسا »

فعدت يدها الى جيبها واستخرجت ورقة ملفوفة وقالت : « اليك ما كتبته له في ذلك »

فتناول الورقة وفضها فاذا هي أمر صادر الى ركن الدين هذا نصه :

« من ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجليل ، والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح رحمه الله الى القائد الباسل الامير ركن الدين يبرس البندقداري . نظرا لثقتنا الكبرى ببسالتك وعلو همتك ، ولما ظهر من بلاتك في دفع الافرنج عن بلادنا ، ولما كان هؤلاء الملاعين لا يزالون بناوثوننا في جهات دمياط ، عهدنا اليك بعد مشورة مدير مملكتنا الامير عز الدين ابيك أن تخرج اليهم برجالك الذين تختارهم وتكفيهم أمرهم . وعليك السلام ورحمة الله وبركاته  
« والدة خليل »

فلما قرا الأمر اعجبه قولها انها فعلت ذلك بمشورته ، فطوى الكتاب وبعث به الى ركن الدين ، وعاد الى محادثتها في شؤون الدولة ، وهي تبذل جهدا في مجاملته ليطمئن قلبه لها ، ولا يزال الشك يخامرهم - والمحبة كثير الشكوك - لكنه كان يطرد تلك الشكوك من خاطره ، فلما انصرف من عندها وخلا الى نفسه عادت اليه الشكوك

أما ركن الدين فانه لما جاءه كتاب شجرة الدر بادر الى تنفيذه ، وقد اتسعت آماله فيما تطمح اليه نفسه من الارتقاء في مناصب الدولة ، وهو يرى نفسه أهلا لأكبر المناصب . فانه كان كبير المطامع عالي الهمة ، والدولة في اضطراب ، وقد خطر له أن الدولة التي تستطيع امرأة أن تصير ملكة فيها لا يعجز فيها عن نيل ذلك مثله ، ولكنه يعلم أن مطلبه عسير وعز الدين أمامه ، وهو صاحب النفوذ الأقوى عند الجند وعند شجرة الدر نفسها . على أن ما آتته من ملاطفة في ذلك اليوم بعث في نفسه بعض الشجاعة ، فحكم مطامعه هذه عن الجميع لعلمه بما يتصور ذلك من الخطر . ومع ذلك فان حبه شوكار هون عليه كل عسير وصار من أقوى الدوافع له على طلب العلاء

أما شوكار فاتها أصبحت بعد سفر ركن الدين الى دمياط شديدة الميل الى سماع اخبار الحرب واستطلاع ما جرى ، وهي تصبر نفسها

وكلما طال انتظارها ازدادت شوقا ولهفة . وأما هو فكان يفتنم قدوم  
بعض خاصته للسؤال عنها وتتبع أحوالها  
ومضى على ذلك ثلاثة أشهر لم يأت إلى القاهرة خلالها إلا مرتين ،  
فاجتمع فيهما بشوكر على علم شجرة الدر وسمع غناءها . وفي المرة  
الثانية تواعدا على العقد بعد رجوعه ، فمكنت تنتظر ذلك بفارغ  
الصبر كان قلبها دلها على سوء سيصيبها



مشى عز الدين بعد خروجه من الايوان الى المنزل الخاص به في  
القلمة ، ودخل غرفة فيه تطل على القاهرة ، وقد تعمد الخطوة ليفكر  
في تلك الظنون التي غزت قلبه ، وهو لا يزال في أول هذا الدور  
الجديد ، وجلس على مقعد بجوار النافذة ، فوقع بصره على القاهرة  
وما وراءها من الفسطاط الى النيل وفيه جزيرة الروضة ، فتذكر  
الملك الصالح ، وأيامه هناك مع شجرة الدر ، فمر في مخيلته تاريخ  
علاقته بها ، فلم يجد ما يوجب شكاً فعاد الى حسن الظن

وبينا هو في ذلك اذ جاءه غلام ينبئُه بمجيء امرأة منقبة تريد  
مقابلته ، فسأل الغلام من هي تلك المرأة فقال : « لم أستطع تمييزها  
لأنها منقبة وقد غطت وجهها »

فنهض وهو يفكر فيمن عساها أن تكون ، وسار الى غرفة خاصة  
بمقابلة القادمين ، فوجد تلك المرأة جالسة على المقعد وقد التفت بملاءة  
ثينة ، وبدل مجمل حالها على انها لم تأت لطلب صدقة ، فدخل وحياتها  
فردت التحية وهي تتحفر للنهوض ، فأشار اليها أن تقعد فقعدت ،  
وقعد هو بين يديها وقال لها : « من أنت وماذا تريدين ؟ »

فأزاحت النقاب عن وجهها ولم تحب ، فاذا هي سلافة قيمة قصور  
الملك الصالح ، وكان معجبا بجمالها ، وله معها مواقف كانت هي الظاهرة  
فيها نظرا لما كان لها من المنزلة عند الملك الصالح ، وكان يحترما من  
أجل ذلك ، ولم يكن يتوقع أن يراها آتية اليه على هذه الصورة .  
فحالما كشفت وجهها بادر الى الترحيب بها فقالت : « لم آت اليك  
لضيافة ، ولكنني جئت التمس منك شيئا أنت صاحب الامر فيه »

فقال : « وما هو ؟ » . قالت : « علمت اليوم أن أمور الدولة صارت  
الى صديقتك شجرة الدر ، وأنا كما تعلم قيمة قصور الملك الصالح ،  
والملك الصالح مات ، وقصوره نهبت ، وأثاثها نقل الى هذه القلمة ،  
وصارت الحكومة الى إحدى جواريه . لا تؤاخذني على هذا التعبير .

انها جارية ولكنها صديقة عز الدين ابيك وهو الذى رفعها الى مقام الملك . أنت رفعتها الى ذلك المقام لأنها صدقتك . ولك الخيار فيما فعلت ، هناها الله بهذا المنصب . وانما جئت الآن اطلب منك أن تطلق سراحي من الخدمة ، ولم يبق لى عمل فى هذه القصور ، اذ لم يبق فيها دور للحريم ، بعد أن صارت ملكتنا من الحريم ، فاصرفنى . أم أنت لا تقدر أن تفعل ذلك من تلقاء نفسك بدون أن تشاور ملكة المسلمين ؟ »

وكان لكلام سلافة وقع شديد فى نفس عز الدين وهو فى تلك الحال من التردد والشك ، وكان يحل قدرها ويحب التقرب منها ولكن لم تكن تسمح له فرصة فى حياة مولاها . ولما جاءت فى تلك الحال وقع فى حيرة ، وتنبهت فيه عوامل كثيرة أهمها احتقار نفسه لأنه خضع لامرأة لم تعرض امرأة مثلاً أن تخضع لها ، وتنبه فى خاطره حب كان كامناً فهاجته لقاءه لسلافة . ولم يسعه السكوت مع ذلك عن الدفاع عن شجرة الدر حفظاً لكرامته فقال : « ان شجرة الدر لم تصل الى هذا المنصب الا لأنها ام ولد السلطان كما تعلمين »

قالت : « صدقت ، بارك الله فيكم . لم تبايعوها الا لأنها ام ولد السلطان . ما شاء الله ! وأين ذلك الولد ؟ لقد مات . واذا كان الغرض المحافظة على نسب السلاطين الأيوبيين فى هذه السلطنة أفلم يكن الأولى أن تولوا عليكم أيوبيا يكون الأمير عز الدين وصياً عليه ؟ ان الأمير عز الدين الآن مدبر المملكة ولكن هل الامر بيده ؟ أنا أعرف جنس النساء ، انهن لا يحفظن الوداد . لا أقول هذا عن شجرة الدر وحدها ، لكن هكذا طبيعتنا نحن النساء . ويؤيد ذلك ما جاء عنهن فى كتب الدين ، وعلاوة على ذلك فان هذه السلطنة لا تثبت ان لم يأت كتاب أمير المؤمنين العباسى راضياً عن هذا الاختيار »

فقال : « وهل تظنين أمير المؤمنين يعترض على هذا التعيين ؟ » .  
قالت : « لا شك عندي فى ذلك »

قال : « أظنك مخطئة يا سلافة ، لأن شجرة الدر حكيمة عاقلة ، وقد اختارها الأمراء والقواد ، فلا اظن أمير المؤمنين يخالفهم » .  
قالت : « أؤكد لك أن أهل بغداد سيفضون لهذا العمل وليس الخليفة فقط . وسوف ترى .. انى أعرف هذه الامور من قبل .. مالنسا ولذلك انما اطلب منك الآن أن تصرفنى وتطلق سراحي ولكن دون مشورة أحد »

قال : « والى أين تذهبين اذا اطلقت سراحك ؟ » . قالت : « اذهب فى هذه الدنيا » . وغصت بريقها وتساقطت دمعتان على خديها فمسحتهما وظهرت أنها خجلت من الضعف الذى ظهر عليها وسكتت

فأثر منظرها في قلبه وقال : « بدلا من ذهابك في هذه الدنيا ، أمكني عندنا » . قالت « أين أمكن ؟ قد ذهبت القصور والنساء ، وحيثما مكنت سأكون أسيرة سجين ، أورهينة رضا ملكة المسلمين أو غضبها . وهذا لا صبر لى عليه مثل صبركم أيها الرجال العظام والقواد البواسل ، فاني امرأة ضعيفة »

فأحس بالتهكم الذي يتخلل أقوالها ووجدها مصيبة فيما تراه ، وأعجب بجسارتها حتى تقول ذلك له ، فقال لها : « يا سلافة .. كفى تأنيبا وتعنيفا . ما حدث قد حدث ، وأنا أعرف قدرك ، ولا أحب أن تخرجي على هذه الصورة ، فامكني عندي و ... »

فقطعت كلامه قائلة : « أمكن عندك ؟ ! مسكين ! . وما الذي يصيبك لو علمت شجرة الدر بوجودي هنا ؟ »

فوجد الحق معها ، لكنه كبر عليه أن يعترف بهذه الحقيقة فقال : « مالها ولمن عندي . أنا لا أعرض لما عندها ؟ »

قالت : « وما هو الفرق بين الملوك وسواهم ؟ . هل يجوز لنا ما يجوز للملوك ؟ هل يخيل اليك أنك لو رأيت رجلا خارجا من غرفة شجرة الدر صديقتك الحميمة - وأنت الذي وضعتها في هذا المنصب - بحق لك أن تسأل عن سبب وجوده هناك ؟ . أما هي فلها أن تعد أنفاسك وتحاسبك على كل خطوة »

فتذكر رؤيته ركن الدين في ذلك الصباح خارجا من عندها وما خامره بسبب ذلك من الشكوك . فأترق هنيهة يفكر ، لكنه خاف أن يدل ذلك على ضعف فيه ، وهو لا يريد أن يظهر ذلك خصوصا بين يدي سلافة بعد ما أسممته آياه من اللمز والتعريض فقال : « أنت تعتقدين إذن أن وصول شجرة الدر الى هذا المنصب أبعد ما بينها وبينى ، فحق لها أن تتصرف كما تشاء . فما الذي يمنعني من أن أفعل أنا ما أريده ولا التفت الى ما يرضيها أو يفضيها ؟ »

فقالت : « لا .. لا أشير عليك بذلك . أنه يكون سببا لتفويض العيش . ولا أحب أن يكون ذلك بسببي »

قال : « هل تظنين وجودك عندي يفضيها ؟ . ومع ذلك لا أرى حاجة الى اطلاعها على وجودك عندي »

فهزت رأسها وقالت : « أنها جراحة عظيمة منك ياسيدي ، اذ أحببت أن أكون تحت ظلك . ولكني لا أرى أن أقيم معك في منزلك ، بل أقيم في مكان آخر . وأنا في كل حال صديقتك ، وسأبقى على وداك ولو ضرت ملكة المسلمين .. على اني لا أضمن ذلك . لأن الإنسان عرضة للتغيير » . وضحكت



فقال : « ما الذى يجول بخاطرك وتخافين أن يتغير ؟ » . قالت :  
« يجول بخاطري أن النساء لا يصلحن للحكومة ، وأن السلطنة لا تليق  
إلا بك ، فأنت قائد الجند ، وأنت حاربت الأفرنج وقهرتهم ، وأنت  
دبرت كل شيء . هذا ما أراه الآن ولا أغير فكري فيه » . فكان لهذا  
الأطراء وقع جيل في قلبه

والإنسان تخدعه ميوله حتى تربية الأسود أبيض والخرافة حقيقة ،  
ومن فطرته أن يعتقد صدق مادحه وإخلاصه ويميل إليه بقلبه ، وقد  
عرف هذه الطبيعة أصحاب التدبير الذين يحتاجون إلى مصانعة  
الناس في التجارة أو غيرها فاتخذوا مدح عملائهم وأطراء مناقبهم  
وسيلة للتقرب إليهم واكتساب ثقتهم ، واتخذ هذه الخلة أيضا طلاب  
رضا النساء ، وجعلوا أطراء جمالهن وسجايهن وسيلة لاكتساب  
قلوبهن ولذلك قال أمير الشعراء :

خدموها بقولهم حسناء . والفواني يفرهن النساء  
والحقيقة إن النساء لا يفر الفواني فقط ، بل هو يفر كل إنسان ،  
ويندر أن ينبج عاقل من الوقوع فيه

فلما سمع عز الدين قول سلافة اعتقد صدقها وأنها مصيبة فيه ،  
وتوهم ألا غرض لها غير تقرير الحقيقة ، وتمكن اعتقاده في إخلاصها  
وصدق مودتها ، وكان ذلك باعثا على التباعد بينه وبين شجرة الدر  
بدون أن يشعر . وافترقا على أن تقيم سلافة في قصر خاص بها  
وتكون تحت رعايته

وبعد ذهابها أخذ يفكر فيما قالته فوجدتها على صواب ، إذ كان  
يجب أن يتولى السلطنة أحد غلمان بنى أيوب ، على أن يكون هو مدبرا  
للمملكة ولا يكون هناك باب للاعتراض ، وذلك أفضل من أن تتولى  
الدولة امرأة



## خلع شجرة الدر

أصبح أهل القاهرة يتهايمسون عن رسول قادم من عند أمير المؤمنين العباسي وقد نصب فسطاطه خارج القاهرة ، وأخذوا يتكهنون فيما عسى أن يكون كنه رسالته ، اذ يندر أن تأتي رسالة من الخليفة العباسي إلا إذا كان هناك أمر مهم من عزل أو تولية

وكان الرسول حين أشرف على القاهرة قد بعث أحد رجاله بنبيء القواد والأمراء بقدمه ليرسلوا من يستقبله كما هي العادة احتراماً للرسالة التي يحملها من خليفة الرسول . ولم يمض كثير حتى ضجت المدينة وغصت الشوارع بالمارة والوقوف ، ولا سيما في الشوارع الممتدة من باب النصر الى القلعة حيث يمر الرسول . واستعد الأمراء والقواد في القلعة للاجتماع وسماع الرسالة عند تلاوتها ، وأكثرهم يظن أنها تتعلق بسلطنة شجرة الدر ، والأرجح عندهم أنها تثبيت لها في المنصب كما تعودوا فيمن ولوهم من السلاطين . وتقاطر الأمراء والقواد الى الديوان ، وفي مقدمتهم عز الدين أيبك وغيره من الأمراء البحرية ، إلا ركن الدين لأنه كان غائبا في دمياط . أما شجرة الدر فقد كانت على سريرها في صدر الايوان ، وعليها ثوبها الملكي الذي لبسته يوم الاحتفال بتوليبتها منذ ثلاثة أشهر ومعها شوكار ، وكانت هذه حزينة لغياب ركن الدين فانها كانت تود حضوره

أما سلافة فكانت أعلم الناس بفحوى تلك الرسالة ، اذ جاءها رسول خاص من قيمة قصر الخليفة المستعصم بالله كان مرافقا لرسول الخليفة ، وقد أنبأها ان الرسالة تضمنت خلع شجرة الدر عن سلطنة مصر ، فكاد قلبها يطير فرحا ، وأجبت ابلاغ ذلك الى عز الدين ، وكان يتردد عليها في أثناء هذه المدة ، وقد تحابا وبلغ خبرهما الى شجرة الدر فاستاءت لكنها كظمت غيظها . فلما علمت سلافة بقدم رسالة الخليفة بعثت الى عز الدين فجاءها ، فقالت له : « بلغني انه جاءكم رسول يحمل كتابا من أمير المؤمنين ، ما هو فحواه يا ترى ؟ » . قال : « لا أعلم » . قالت : « وما ظنك أن يكون فحواه ؟ » . قال : « قلت لك أمي لا أعلم ، فهل أنت تعلمين ؟ »

فضحكت وقالت : « نعم أعلم ، وقد قلت لك عن فحواه منذ ثلاثة أشهر . ألا تذكر ؟ » . فاطرق وهو يفكر ، فتذكر حديثها الاول معه يوم جاءته الى القلعة ، وذكرت له يومئذ ان الخليفة لا يسلم بسلطنته شجرة الدر فقال : « اظنك تعنين حديثنا عن شجرة الدر ؟ » . قالت بتهكم : « نعم عن ملكة المسلمين ! »

قال : « اذكر انك تنبات ان الخليفة لن يوافق على توليتها ، فهل جاء الرسول بهذه المهمة ؟ » . قالت « نعم جاء بهذه المهمة . وفحوى رسالته خلع هذه المرأة عن الملك »

فادهشته هذه المفاجأة لأنه لم يكن ينتظرها ، واستغرب اطلاق سلافة على ذلك الخبر قبل كل انسان ، والرسول لم يدخل القلعة بعد ، والكتاب ما زال في حقييته ، فقال لها : « كيف عرفت ذلك ؟ »

فضحكت وقالت : « عرفته وتنبات به قبل حدوثه ، لعلمي ان تلك التولية لا ترضى امير المؤمنين . والان كن حازما ، واعلم ان الراى الذى ذكرته لك منذ ثلاثة اشهر هو الراى الصواب . هل تذكره ؟ »

فظهرت الدهشة على عز الدين ، فشمر بضغفه بين يدي تلك المرأة ، وفكر فيما تطلبه منه ، فتذكر انها اشارت عليه يومئذ ان يولى أحد أبناء الأيوبيين ويكون هو مدير الملكة والوصى على العرش ، ثم يفتنم الفرصة ويستقل بالسلطنة بعد أن تستقر قدمه فيها فقال : « نعم أذكره . لكن ما هو السبيل الى اتمامه ، ومن هو الغلام الأيوبي الذى يمكننا تنصيبه ؟ »

قالت : متى بلغت الى هذا الامر فانا ادلك على من يصلح لذلك

قال : « قولى الآن فرجا لاستنح الفرصة باعادة النظر »

قالت : « صدقت . اعرّف موسى بن صلاح الدين بن مسعود بن الكامل ؟ » . قال : « نعم أعرفه لكنه غلام لم يجاوز الثامنة من عمره »  
قالت : « لو كان فى الخامسة لكان أصلح لما نريده . هذا الغلام هو أولى الأيوبيين بهذه السلطنة ، ومتى كنت أنت الوصى عليه كان كل شيء اليك »

قال : « ولكن من يضمن لى الوصاية عليه ؟ »

قالت : « انا أضمنها لك بشرط الا تظهر ضعفا ، وان تكون انت المقترح لسلطنة موسى هذا ، واقام ذلك على »

قال : « وهل تحضرين الاحتفال معنا ؟ » . قالت : « احضر مع النساء من وراء الستر » . فودعها وخرج من عندها وقد ملكت عقله بعد أن ملكت قلبه . ولما وصل الى القلعة وجد الأمراء فى انتظاره

وكانت شجرة الدراكثرهم قلقاً على غيابه ، فقد علمت بغيابه وهي وراء  
الستر ، وكان قلبها دلها على تنافر بينهما . ومكثت تنتظر وصول  
الرسول وتلاوة الكتاب وهي لا تعلم ما هو نجوى لها



كانت الجماهير توج في ساحة القلعة منذ صباح ذلك اليوم ،  
وجاء الخبر بوصول الرسول ، فتقدم الحاجب لاستقباله حتى دخل  
الأيوان ، ووقف الأمراء على الجانبين ، وشجرة الدر فوق سريرها وراء  
الستر ومعها شوكار . وقد لحظت هذه اضطراب سيدتها وخوفها  
فاخذت تخفف عنها وتطمئنها وتدأبها وهي تتجلد وتصفي لما يدور  
من الحديث في الخارج ، ثم سمعت من الدين يقول : « أيها الأمراء .  
هذا رسول مولانا الخليفة أمير المؤمنين المستعصم بالله حفظه الله ،  
ومعه كتاب من الخليفة يحيتلوه علينا ، فاسمعوا له وأطيعوا الطاعة  
لا يحويه ، لأنه من خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم » . فصاح  
الجميع : « نحن مطيعون للرسول وخليفته »

فتقدم حامل الكتاب ، ووقف على منصة وفضه ، وأخذ يقرأ  
والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير ، ويكاد أحدهم يقطع نفسه  
لئلا يكرر عليه سمعه وهذا نص الكتاب :

« من أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بالله أمير المؤمنين  
إلى أمراء الجند والوزراء في مصر . السلام عليكم . وبعد فقد بلغنا  
أنكم وليتم أمركم شجرة الدر ، جارية الملك الصالح ، وقد غمها  
أمور الدولة ، وجعلتموها سلطنة عليكم . فإذا لم يكن عندكم رجال  
يصلحون للسلطنة فأخبرونا لترسل إليكم من يصلح لها . أما سمعتم  
في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( ما أفلح قوم ولوا  
أمرهم امرأة ) »

ولم يفرغ القاريء من تلاوة الكتاب حتى ضجع للناس وعلت الضوضاء ،  
ولا تسب عن شجرة الدر وما أصابها لما سمعت ذلك . لكنها كانت عاقلة  
حازمة ، فلما سمعت أمر الخليفة وعلمت أنه لا مندوحة لها عن العمل  
به تجلست وأرادت إلى الحاجب أن يزعج البستر للمنصب بينهما وبين  
الجلوس ، فأزاحه وأتفت الناس نحو السرير وتهييوا ، ولبثوا ينتظرون  
ما يبدو من شجرة الدر بعد تلاوة الكتاب ، فإذا هي تقول : « يا معشر  
الأمراء . قد سمعتم ما أمر به أمير المؤمنين ، وطاعته يرضى على كل  
مسلم . قد صدق - حفظه الله - فإن النساء لا يصلحن للسلطنة ،

وأنا لم أقبل هذا المنصب إلا عملاً برأيكم أيها الأمراء والقواد ورغبة في استقرار الأحوال بعد اضطرابها . أما الآن وقد استقرت الأمور وسمعنا رأي مولانا الخليفة ، فاني أخلع نفسي وأطلب منكم أن تختاروا من ترونه ليتولى هذا الأمر ، وأنا أول من يخضع له »

فاستحسن محبوها هذا التنازل منها ، لأنه دل على كبر نفسها وسعة عقلها ، ولم تستحسنه سلافة ، لأنها كانت تحب أن تتردد فينزولها كرها . على أنها فرحت بظلمها . ولما فرغت شجرة الدر من قولها خرج صوت من وراء حجاب يقول : « لا تقبل علينا سلطانا ليس من سلالة آل أيوب »

ولم يعرف الأمراء من أين خرج الصوت ، لكنه عبر عن شعور كثيرين فأمنوا عليه وصادف هوى من نفوسهم . فقد كان أكثر المصريين عند تولية شجرة الدر غير راضين عن توليتها ، ويطلبون تولية رجل من آل أيوب ، لكنهم أذعنوا خوفاً من الجند . فلما خلعت وسمعوا صوتاً يقترح ما يشعرون به أجابوا بالموافقة ولو لم يعرفوا المقترح . وعلا الضجيج وكان الصوت الغالب اختيار سلطان من آل أيوب . فتوجهت الأنظار نحو كبير الأمراء هنالك ، وهو عز الدين أيبك ، كأنهم يستشيرونه فقال : « أن مولانا شجرة الدر قد برهنت بتنازلها عن الملك على أنها مخلصة لمولانا أمير المؤمنين وأنها حريصة على حقوق المسلمين ، ونحن لم نولها هذا المنصب إلا لأنها والددة المرحوم خليل من سلالة الأيوبيين . أما الآن فما علينا إلا اختيار أحد أمراء تلك السلالة . وأعلم أن منهم مولانا موسى بن صلاح الدين بن مسعود لكنه صغير السن »

فقاطعه حامل الكتاب قائلاً : « لا يضره صغره فانك وصيه وقائد جنده ومدبر أموره ، فما رأيكم أيها الأمراء ؟ »

فصاحوا جميعاً : « هذا هو الصواب . لا نرى أصوب منه »

فاستغرب عز الدين ذلك من صاحب الكتاب وهو قادم من بغداد ، وكيف عرفه ورشحه لهذا المنصب . فلما سمع مصادقة الجمهور وقف سباتنا ، فقال حامل الكتاب : « بما أنكم قد أقررت تولية موسى بن صلاح الدين فلنعمل ذلك الآن ، وقد دفع إلى مولانا أمير المؤمنين شارات السلطنة لابسها إياها »

قال ذلك وأشار إلى بعض رجاله فدفع إليه حقيبة كالصندوق ، فأمره ففتحها وفرش ملاءة وأخذ يستخرج ما في الصندوق ويضعه فوقها والناس ينظرون ، فكان أول شيء استخرجه خلعة سوداء ،

هي شارة بنى العباس ، ثم عمامة سوداء ، وأخرج طوقا من ذهب للعنق وقيدا من ذهب للرجل . فلما صارت كلها على الملاءة قال : « هذه شارات السلطنة ، فأتوني بالسلطان موسى بن صلاح الدين لنلبسه اياها فقد اوصاني امير المؤمنين الا اخرج من مصر الا وعليها سلطان من آل أيوب »

فسارع عز الدين الى احضار موسى ، ولم تمض مدة قصيرة حتى جيء به ، وهو طفل في الثامنة من عمره ، فالبسوه تلك الشارات على قدر الامكان ، ونادوا به سلطانا على أن يكون عز الدين ايسك وصيا عليه ومديرا لأمور الدولة بالنيابة عنه

كل ذلك وشجرة الدر على سريرها ترى وتسمع ، فلما فرغوا من تنصيب السلطان الجديد وارخوا الستار عليها تنفست الصعداء واكبت على كتف شوكار وأخذتا في البكاء ، وشوكار تتجلد وتقول : « هلمى يا سيدتى نذهب الى غرفتك لئلا نفتضح »

فأطاعتها ، ومشتا نحو الغرفة ، ولما وصلتا الى هناك أخذت شوكار تخفف عن سيدتها وهذه تتأوه وتتنهد ، وأخيرا قالت : « لا أعلم سبب هذا التغير ، ولكنني احسنت بالتنازل من تلقاء نفسي . ولاظنني اني آسفة على اعتزال هذا المنصب الشاق وانت أعلم الناس بما كنت اشكوه من ثقل اعبائه . وبكفيني انى اول امرأة تولت الملك في الاسلام ، وانت الآن تعزيتى الوحيدة »

فلم يعجبها قولها لأنها أصبحت تفضل أن تكون تعزيتركن الدين ، فسكتت ، فابتدتها شجرة الدر قائلة : « انما أناأسف لاني لم أبق على كرسي الملك حتى ينال ركن الدين ما هو أهل له من الرتب العالية ، لكنه سينالها من سواي ، ولو كان هنا اليوم لنال شيئا ، وربما كان هو المختار للوصاية »

فانقبضت نفس شوكار عند سماع ذلك ، وتأسفت لفوات الفرصة لكنها عادت الى اطراء سيدتها وقالت : « انما يهمنى يا سيدتى أن تكوني سعيدة »

قالت : « انى سعيدة بك يا شوكار كما تعلمين والحمد لله على أن تخلصت من اعباء الملك . لقد ذقتها فلا احسد احدا عليها ولا أتمنى أن أعود اليها »

قالت شوكار : « صدقت يا سيدتى ، لاني رايتك منذ توليت السلطنة قلقة الخاطر ، وكنت قبلها منشرجة الصدر ، فلنعد الى ذلك : متى يعود ركن الدين يا ترى ؟ »



« وجيء بموسى بن صلاح الدين بن مسعود ، وهو طفل  
في الثامنة من عمره ، فلبسوه قلادة السلطنة »





قالت : « سيمود قريباً . انه حالما يسمع بهذا التغير يأتى ، ومتى  
أتى نلت ما وعدتك به » فاطرقت وسكتت



تولى الأمر موسى بن صلاح الدين ، ولقبوه بالملك الأشرف ، ونائبه  
فى تدبير الأمور عز الدين . وقد أحس هذا أن ما ناله فى هذا اليوم  
كان الفضل فيه لسلافة . فلما أنصرف القوم كان أول شيء عمله  
أنه ذهب الى منزل سلافة ، فراها جالسة جلوس الملك الظافر وهى  
تضحك لنجاح مهمتها ، فلما دخل القى التحية فقالت : « كيف رأيت  
فيها الأمر . . ألم تكن سلافة عاقلة تفهم سرائر الأمور ؟ »

قال : « صدقت والله أنك جئت بالمعجزات . ألا تخبريننى كيف  
استطعت الاطلاع على هذه الأمور قبل وقوعها ؟ »

قالت : « أما وقد علمت صدق مودتى لك فلا أخفى عليك أنى أنا  
السبب فيما رأيت من التغير والتبدل بسبب صداقتى لقيمة  
قصر الخليفة المستعصم بالله ، فأتى كتبت اليها كتابا تروى عليه  
ما رأيت ، ولكنها اشترطت على أمرا ضمنت لها تنفيذه ولم أحدثك  
عنه من قبل لعلمى أنك لا ترى مانعا من امضائه »

قال : « وما هو ؟ » . قالت : « أعدنى أنك فاعله ؟ »

ففكر فيما عسى أن يكون طلبها ، وخاف أن يكون فيه ما يسوءه ،  
لكنه لم يسعه إلا الطاعة فقال : « أتى فاعل ما تريدن »

قالت : « هذا كتاب قيمة القصر تقول فيه أن مولانا أمير المؤمنين  
بلغه أن فتاة رخيصة الصوت تتمتع شجرة الدر بغنائها ، وقد طلب أن  
توسل اليه حالاً ، لأن أمير المؤمنين مغرم بالغناء ، وقد ضمنت لرسول  
الخليفة أن أرسل معه جارية شجرة الدر هدية للخليفة »

قال : « لعلك تعين المغنيّة شوكار ؟ » . قالت : « نعم ، إياها  
أعنى ، فماذا ترى ؟ »

قال : « هذا حين على ، وأظنه يسر الجارية لأنها ستنتقل من خدمة  
ملكة مخلوعة الى قصر خليفة عظيم »

فأعجبها قوله : « ملكة مخلوعة » . وأبتسمت وقالت : « ولا يخفى  
عليك أن أرواء الخليفة لا بد لك منه الآن ، وأنت ستحتاج الى رضاه  
عندك إذا أحسنت التدبير وصرت سلطانا مستقلا . أظنك فهمت  
مرادى »

فأومأ برأسه انه فهم كل شيء ، وأسرع الى النهوض وأشار اليها  
مودعا وهو يقول : « أئذنى لى فى الانصراف للقيام بهذه المهمة »  
قالت : « سر يحرسك الله . ولا تنس ان الرسول سيسافر غدا ،  
ويجب ان تكون معه شوكار »

وسار عز الدين الى القلعة متنكرا ، وكان فى اثناء الطريق يفكر  
فى سلافة واقتدارها ، وقد شعر بفضلها عليه ، ورأى انه لم يكن أميناً  
فى حب شجرة الدر ، ولكنه اغتفر لنفسه ذلك بما كان قد داخله  
من الشك فى أمرها مع ركن الدين بالأمس ، وكان يحب أن يؤجل  
مقابلة شجرة الدر الى الغد ريثما يهدأ روعها لكن الحاج سلافة بعثه  
على سرعة مقابلتها

فلما دخل القلعة سار توا الى منزل شجرة الدر ، وكانت جالسة  
فى غرفتها مع شوكار ، وقد أخذت هذه تعزف على العود وتغنيها  
لتخفيف ما بها . ولما أقبل عز الدين على باب الدار سمع صوت العود  
فاشار الى الحاجب أن يخبر شجرة الدر بقدومه

ودخل الحاجب وأنبأها بذلك ، ولكن عز الدين لم ينتظر جوابها  
بالأذن ، بل دخل توا بما له من الصداقة ، فلما أقبل على الغرفة رأى  
شجرة الدر بشباب المنزل ، وقد عصبت رأسها بعصابة مزركشة  
أرادت بها تخفيف صداع ألم برأسها على اثر ما كابده فى ذلك اليوم ،  
فلما رآته داخلًا تثاقلت فى النهوض وهى تتألم من الصداع ، ولم يكن  
الصداع وحده سبب تثاقلها ، لكنها كانت قد شعرت بتغير قلبه  
وتحول مجته ، ولم يفهما امر سلافة وتردده اليها قبل خلعه ، وتأكدت  
تغيره فى ذلك اليوم لأنها كانت تراقب حركاته ، وعلمت انه ذهب اليها  
عقب انفضاض المجلس فى حين كان ينبغى له أن يبادر الى لقائها هى  
لكى يؤنبها ويخفف عنها . وهذا ماكانت تتوقعه لو كان باقيا على  
عهده معها . فلما رآته داخلًا انقبضت نفسها وأختلج قلبها فى صدرها  
عتبا وغيظا

أما هو فأسرع اليها وهى تتحفظ للوقوف وقال : « اجلسى ياسيدتى  
لا حاجة الى وقوفك ، انى أراك مريضة ، ماذا أصابك ؟ »

فعدت الى مقعدها وهى تصلح العصابة وتلتف بالمطرف وتنكمش  
كان البرد يتمشى فى عروقها ، وظلت ساكنة ، فقع عز الدين على  
كرسى بين يديها وقال : « اظنك مصابة بالصداع الذى كان يتردد  
عليك أحيانا »

فقالت : « انه صداع شديد لم أصب بمثله من قبل ، لا أراك الله  
مثله باعز الدين وحاك من غوائله »

فلم يعجبه قولها ، وأدرك أنها تعنى شيئاً تضعره فقال : « لا ينجو أحد من الصداق يا شجرة الدر . وليس هو مما يؤبه له ، ولا يلبث أن يزول »

قالت : « أنه يختلف عما تعودته قبلاً ، وتغيير العادة صعب . أليس كذلك ؟ » . وظهر العتب في عينيها

فأدرك مرادها لكنه تجاهل وقال : « إن الإنسان لا يتعود الاوجاع فإذا عاودته رآها في كل مرة جديدة كأنه لم يدقها من قبل . ولو علمت أنك مصابة بالصداق لأسرعت اليك قبل هذه الساعة »

قالت : « لا تشغل بالك بهذه الملكة المخلوعة ، وأنت الآن في شغل بأمور الدولة وغيرها »

قال : « وهل تظنين أمور الدولة تشغلني عن شجرة الدر ، وقد كان يجب أن أبادر إلى تهنئتك بالنجاة من القفال هذه الهام . وأعجبني منك ما أظهرته في هذا الصباح من رباطة الجأش وسعة الصدر ، وقد أحسنت في كل ما صدر منك فلم تتركي لأمر الخليفة بالخلع قوة أو أثراً » . وتنحنح وبلع ريقه وقال : « والحق يقال إن ذلك الأمر إذا كان له أثر فأنما يكون أثره موجهاً إلينا ، أو إلى خاصة ، لأننا الجناك إلى قبول السلطنة ، ولم يدع في خللنا أن يكون ذلك مخالفاً لإرادة أمير المؤمنين » . فلم يعجبها منه ذلك المن عليها بأنه هو الذي جعلها ملكة فقالت : « أنتم أخطأتم بالاقتراح وأنا أخطأت بالقبول . على أن نزولي عن عرش الملك لم يترك أثراً كبيراً في نفسي بقدر ما ترك .. » . وسكنت وهي تنظر إليه نظر العتاب

فعلم أنها تشير إلى تغييره ، فبادرها وقال بلهفة : « أخاف أن يكون قد داخلك شك في صداقتي و ... »

فقطعت كلامه قائلة : « لا . لا . لا . لم يداخلني شيء . ولكنني تعلمت أن الإنسان لا ينبغي أن تغره ظواهر الأمور دائماً . والذي أراه الآن أن تترك العتاب ونروح خواطرننا بلحن نسمة من شوكار . والتفتت إلى شوكار ، وكانت قد وضعت العود بجانبها ، فتناولته وأصفت لما تأمرها به سيدتها فإذا هي تقول لها : « أنت يا شوكار تعزيتي الوحيدة الآن . ولا أخاف تغيرك ، غنى لنا بحزنا » . قالت ذلك وتللاً الدمع في عينيها

فتأثر عز الدين من منظرها ، خصوصاً بعد ما رآه من تعلقها بشوكار وهو قادم ليأخذها منها .. فظهرت البغمة في وجهه ، لكنه تشاغل بسماع الغناء ، وهو يظهر أنه يسمع والحقيقة أنه واقع في حيرة ، ولم يعد يعلم ماذا يفعل ، والوقت لا يساعده على تأجيل مهمته .

وقضى برهة وهو يفكر في حيلة ينتحلها للدخول في الموضوع وطلب شوكار منها . فلما فرغت شوكار من الغناء التفت عز الدين الى شجرة الدر وهو يتسهم وقال : « يظهر انك انقطعت عن كل شيء الى شوكار . اليس في قصرك من يحسن الغناء سواها ؟ »

قالت : « لا اعنى الغناء فقط وانما اعنى انها تؤانسنى ، واعتقد انها تحببني ، ولا أخاف ان تتحول عن محبتي »

فأدرك عز الدين ما تعنيه من تغيره عليها ، لكنه صمم ان يصل الى مراده فقال : « ولكن ليس من الحكمة ان تعلقى آمالك بها الى هذا الحد ، أنا آتيك بمغنية أحسن منها متى شئت »

فقالت : « لا . لا أريد سواها »

فقال : « الأفضل ان تطلبى سواها »

فقالت وكأنها أحست بما يضره : « هل تنوى ان تسلبني هذه التعزية أيضا ؟ » . قال : « لم أكن أحسب لها هذا المركز لديك ، ولولا ذلك لما وافقت على أخذها »

فأقبلت وصاحت : « أخذها . من يأخذها مني ؟ لا . لا . لا . انها جاريتي وأعزها معزة البنين . لا أسمح بها لأحد أبدا »

فتسافل بحك مثنونه بسبابته وهو مطرق ثم قال : « صدقت ، بحق لك أن تحرصى عليها ولا تسمحى بها لأحد . ولكن الانسان لا يقدر أن يفعل ما يشاء دائما . ولا سيما اذا كان الطالب لا يمكن رد طلبه »

فنهضت ونظرت اليه بدهشة وقالت : « من طلبها ؟ قل يامز الدين » قال : « لا تغضبى يا سيدتى . ان طالبا أعظم رجل في المسلمين » فقعدت وقالت : « أظنك تعنى المستعصم بالله امير المؤمنين ؟ .. اما كفاه خلوى عن الملك حتى يطلب جاريتى ؟ »

قال : « يسوعنى انى لا أرى منسذوحة عن اجابة طلبه وهو امير المؤمنين ونحن تحت رعايته وهو خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم » قالت : « وكيف طلبها ؟ .. ومن جاء ليأخذها ؟ »

قال : « رسول الخليفة حامل كتابه ، وقد رأيت بالامس »

فتناثر الدمع من عينيها رغم ارادتها ، والتفتت الى شوكار فرأتها مطرقة ساكنة ودموعها تتدحرج على خديها فأثر منظرها في نفسها وهاج غضبها وقالت : « هل وافقته على ذلك يامز الدين ؟ »

قال : « وهل في الامكان رد طلبه ، وقد رأيت امره نافذا فيما هو أعظم من ذلك ؟ »

فوقفت وأخذت تمسح عينيها بمنديلها وهي تكاد تتميز من الغيظ ،  
ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « ولكن هذه الفتاة مخطوبة »

قال : « لا أعلم . وإنما على أن أنفذ طلب أمير المؤمنين ، فإذا كانت  
لاحد حاجة فيطلب بها أمير المؤمنين » . قال ذلك ونهض وقد ظهر  
الإصرار والجد في حركاته ثم قال : « فلتستعد شوكار للسفر غدا  
صباحا ، وأعلمي أنها ستسافر معززة مكرمة لأنها طالبة أمير المؤمنين  
ولا خوف عليها »

وخرج عز الدين ، ولم يكذ يبلغ المعمر حتى سمع بكاء شوكار  
وشهيقها لكنه تغافل وأوصى الحرس هناك أن يراقبوها لئلا تفر خلسة  
في أثناء الليل

وقد أحسن عز الدين بهذه الوصية لأن شجرة الدر كانت قد  
عزمت على أن تمهد لشوكار سبيل الفرار ، فلما رأت استحالة ذلك  
عظم الأمر عليها ، وتمكنت البغضاء من نفسها ، وأصبح همها التخفيف  
عن شوكار والتهدؤين عليها ، وتجلدت أمامها وبينت لها أن ذلك الأمر  
لامناس من الطاعة فيه ، ولكنها ستبدل جهدها في إنقاذها ، وأكدت  
لها أن ذهابها لاخوف منه

أما شوكار فكان أكبر همها أن ترى ركن الدين وما يكون احساسه  
بعد أن يسمع ذلك الطلب ، وما الذي يبدو من غيرته أو فتوره .  
ولكن لاسبيل اليه وهو بعيد ، والوقت لايساعد على استقدامه في  
ذلك الليل ، فاستسلمت وتوكلت ، ولم يكن ذلك في عرف تلك الأيام  
شيئا عظيما لما يمكن في نفوس الناس من امتياز الخلفاء والامراء ، وأن  
أولئك الجوارى مثل سائر المتساع لا ارادة لهم ولا رأى ، وعليهن  
الاستسلام لما يطرأ عليهن في الانتقال من سيد الى سيد . ولولا خوف  
شوكار من أن تخرس ركن الدين لكان انتقالها الى بيت الخليفة مما يحسدها  
عليه كثيرات ، ومع ذلك لم يكن لها أن تختار

وفي صباح اليوم التالي حملها بعض الخصيان الى معسكر رسول  
الخليفة بعد أن ودعت مولاتها وداعا مؤثرا . لكن شجرة الدر أكدت  
لها أنها لن تنساها ، ولا بد من أن تقترب بركن الدين ، فسافرت الى  
بغداد وقلبها في مصر

أما شجرة الدر فقد شق عليها فراق شوكار كثيرا ، لكن غضبها  
من عز الدين إنما كان سببه الغيرة من سلافة . وحدثتها نفسها أن  
تلك الحارية هي سبب مصائبها . وقد تقمت على عز الدين خيائته  
المضاعفة ، فقد خائنها في قلبها وأحب سواها ، وخائنها في منصبها فلم  
يبد اعتراضا على خلعها وهو قائد الجند وصاحب القوة الفعالة ،

فاضطرت الى الاذعان لحكم الزمان ، اذ لم تر وسيلة الى غير ذلك  
على انها تذكرت ركن الدين وهو آت عما قليل الى القاهرة ، فكيف  
تقابلة وماذا تقول له ؟ . وكان هو حين بلغه ما حدث من الانقلاب في  
القاهرة قد سارع اليها ، فوصل عقب سفر شوكار ، وجاء الى شجرة  
الدر قبل مقابلته عز الدين ، فاخبرته بما جرى ولاسيما في شأن شوكار ،  
واكدت له انها بذلت جهدها في اقناع عز الدين ليبقيها فابى ، وبالغت  
في وصف فحته وفضائله لى توغر صدره عليه

وكان ركن الدين ما زال بشباب السفر ، فعظم عليه الامر ، وقام  
في خاطره لأول وهلة ان عز الدين فعل ذلك نكاية فيه ليحرمه من  
شوكار ، لكنه كان رابط الجأش واسع الصدر حريصا على سره ، فلم  
يجب بكلمة واحدة مع ان الغضب بدا في عينيه ، وكانت شجرة الدر  
تلاحظ ذلك فيه فتعيد الشكوى وتتوقع أن يقول قولاً يشفي غليلها ،  
ولا يشفيه الا ان يتوعد عز الدين بالقتل ، لان حبها له قد تحول الى  
كره بعد ظهور خيانتها

وبعد تحديث طويل وهو ساكت ملت مسكوته ، فقالت : « ما بالك  
يا ركن الدين ؟ لعلك سررت بذهاب شوكار من يدك كما سررت بذهاب  
الدولة مني ؟ وكلاهما من فعل ذلك الخليفة الخليع ؟ »  
فعظم عليه ذلك التعبير الجريء عن الخليفة فقال لها : « واى خليفة  
تعنين ؟ »

قالت : « أعنى المستعصم ، صاحب بغداد ، الذى استعظم ان  
يتولى امر المسلمين امرأة ولم يستعظم أن يتولاه رجل ساقط الهمة  
ضعيف الراى مشغفل بالهوى والقيان وسماع الفناء » . قالت ذلك  
وقد بان الغضب في عينيها وناقت نفسها الى معرفة وقع هذا القول  
في نفس ركن الدين ، فوجدته لم يزد الا اطرافا وسكوتا

ولو أوتيت قراءة الافكار لعلمت ان سكوت ذلك الامير ادل على  
غضبه من الكلام وأنفذ لغرضه من السهام . وقد تنازعت عوامل كثيرة  
كل واحد منها يقيمه ويقعده ، وقامت في نفسه أمور لو اطلعت عليها  
شجرة الدر لشفى غليلها وخفت نقيمتها ، لأنها كانت تستحثة على  
المسيب ذراعاً وهو يريد أن يمشی ميلاً أو فرسخاً

فلما رآته ما زال ساكناً اشكل عليها امره فقالت : « تكلم يا ركن  
الدين ، تكلم ، لقد ضاقت صدري من سكوتك . لعلك لم تصدق  
قولي ؟ تمهل انى سايتك برجل يعرف هذا الخليفة حق المعرفة ، وقد  
جاء من بغداد أمس ، أسأله ينبئك عن افعال ذلك الخليع . اجلس وأنا  
أبعت اليه الساعة »

فقعده وهو يلعب شاريه ولحيته بيده ويوشك أن يقتلع شعرهما بأنامله من قرط التائر وهو لا يشعر . وبعد قليل دخل البغدادى ، وحالما رآه ركن الدين عرفه وناداه قائلاً : « سحبان »

فصاحت شجرة الدر : « قد أنطقك الله بعد طول السكوت ، الحمد لله . الفضل في ذلك لسحبان — حفظه الله — قل يا سحبان ، ما الذى تعرفه عن المستعصم صاحب بغداد ؟ ولا تخف من التصريح فان ركن الدين صديقنا ، قل ما قلته لى البارحة »



وكان سحبان قد عاد من المهمة التى بعثته فيها سلافة وقضاها كما تريد ، فلما جاءها وقص عليها ما فعله لم يجد منها اقبالاً ، ثم لحظ تردد عز الدين عليها ورأى الجفاء منه أيضاً فتحول حبه لسلافة الى بغض ، وتقم عليها وعلى عز الدين . وهو ناظم على تلك الدولة برمتها لأنه شيعى من اهل بغداد ، وقد برحها فراراً من ظلم العباسيين واضطهادهم الشيعة بحيث لم يعد فى امكانه الصبر على الضيم هناك ، فجاء القاهرة منذ بضعة اعوام ، واجتمع بين فيها من الشيعة ، فتشاكوا فيما بينهم وهم صابرون مرتقبون سنوح الفرصة لعلمهم يستطيعون أن يستعيدوا الامر للعلويين كما حدث فى ايام الفاطميين . وكان سحبان ذا ثروة وتجارة واسعة ، وقد احب سلافة فكلفته بتلك المهمة ، فلما عاد شق عليه تغيرها ، ولم يجد خيراً من أن يثير غضب شجرة الدر عليها وعلى العباسيين وعلى سلفانهم بمصر جلة ، وهو يعلم انها قريبة الاصفاء اليه لما هى فيه بسبب زوال منصبها وخيانة عز الدين لها . فقابلها بصفة تاجر ، وكانت تعرفه كما تعرفه سلافة ، وأظهر انه قادم من بغداد بسلع جديدة تليق بها ، وتطرق فى الحديث حتى حاجها على الخليفة ، وأكد لها خيانه عز الدين ، فكتمت ذلك حتى جاء ركن الدين فقصت عليه ما عرفته ، ولأجل التثبت استقدمت سحبان ، فلما رآه ركن الدين بش له ودعاه الى الجلوس ، فقالت شجرة الدر وهى تضحك : « كيف فارقت أمير المؤمنين يا سحبان ؟ »

فقال : « فارقت رجلاً لأهم له الا سماع الفناء والاستغفال بالطعام والشراب والنساء »

قالت : « وكيف ترى دولته ؟ »

قال : « انى اخاف على دولته من اهلها ، ان لم اخف عليها من

المغول ، فانهم أوشكوا أن يحملوا عليها والناس خائفون . أما الخليفة فلا يهمه غير الطرب واللهو ، وإذا ظل على هذه الحال فالدولة ذاهبة لا محالة »

فضحك ركن الدين وقال : « هل تذهب دولة العباسيين ؟ .. قد سمعت أصحاب الاخبار يؤكدون انها تبقى أبد الدهر ولا يمكن أن تخلو الارض منها »

قال : « لكن الواقع انها ذاهبة لا محالة »

قال : « وهل تخلو الدنيا من خلافة ؟ »

قال : « كلا يا مولاي »

قال : « فمن أين تأتي بالخليفة ؟ ومن يثبت سلاطيننا على مصر ؟ »

قال : « الا يصح التثبيت الا اذا كان من العراق ؟ الا يصح أن يكون من مصر ؟ ألم تكن مصر هذه خلافة زاهية منذ أقل من مائة سنة ؟ ألم تكن أحسن حالا وأوسع جاها ؟ و ... »

فلم يصبر عليه ركن الدين حتى يتم كلامه فقال له : « اظنك تعنى دولة الفاطميين ولكن أولئك من الشيعة »

فقال : « وما ضر انهم شيعة ؟ اليسوا مسلمين من قريش ؟ وانما الفرق أن الخلافة يكون مركزها في هذه البلاد فيزداد عمرانها وتوسع تجارتها وتعمر أساطيلها وتمتد فتوحها وتصر العراق اماره من اماراتها بدلا من أن تكون صاحبة الأمر عليها »

وكان سبحان يتكلم وركن الدين شاخص اليه مستغرق في تتبع كلامه ليستطلع حقيقة ما يكتنه ضميره ، وهو يعلم غرض الشيعة ، فصدق من كلامه ما يوافق غرضه ، ولم يبد ملاحظة ولا صرح بما جال في خاطره وما زاد على قوله : « لقد أقدتنا يا سبحان جزاك الله خيرا » . ونهض يريد الانصراف ، فنهض سبحان واستأذن وانصرف ، وقد أدهشه سكوت ركن الدين وتكتمه ، وقال في نفسه : « انه رجل لا يؤمن جانبه »

أما شجرة الدر فلم تكن أقل دهشة من سبحان ، فلما خرج قالت : « يا ركن الدين قد آن لك أن تتكلم ، ولا أزيدك شيئا على ما سمعته عن تضعف العباسيين في بغداد ولا عن حال السلطنة المصرية ، فان سلطانها غلام سنه ثمان سنوات ، والحكومة كلها في يد الوصى عليه عز الدين » . قالت ذلك وهي تتميز من الغيظ

قال : « أراك غاضبة على عز الدين ، لملك غضبت لانه سمح بارسال شوكار الى الخليفة لتكون عنده في جملة المغنيات



قالت : « نعم ، هذا هو سبب غضبي الرئيسي ، ولى على عز الدين  
امور اخرى تخصنى »

فقال : « وهل ذهبت شوكار راضية ؟ »

قالت : « كلا ، انها ودعتنى باكية وهى تذكر ركن الدين ، واوصتنى  
أن أقول لك انها باقية على حبك لا ترضى عنك بديلا ولو كان الخليفة  
نفسه ، وأنا أكدت لها أنك لن تتخلى عنها . ان البطل ركن الدين  
سيكون ركننا قويا لنا ، اعنى أنا وهى ، لانى أصبحت الآن وحيدة ،  
وهذا عز الدين قد شغل بسواى وبمنصبه ونسى الصداقة . ولكن  
لا بأس ليكن كما يشاء والله مع الصابرين »

فقال ركن الدين : « اذن شوكار ما زالت على حبها لى ؟ »

قالت : « نعم ، ولا شك عندى أنك ستتفانى فى سبيل اتقاها  
والانتقام لها . لكن قل لى ما رأيك فيما ذكره سحبان من حيث الخلافة  
الفاطمية ؟ »

قال : « لم يعجبني قوله . ان الرجل يطلب خلافة شيعية ، وهذا  
لا يصح ولا يليق بنا . ولكننى لم أجبه سلبا ولا ايجابا . ولا أقول  
شيئا الآن على كل حال بل أترك ذلك الى حينه والامور موهنة بأوقاتها .  
استأذنك يا سيدتى » . قال ذلك ونهض خارجا فشيعته شجرة الدر  
فأثلة : « فى حراسة الله »



## ركن الدين

خرج ركن الدين من بين يدي شجرة الدر خلفاً اثرأ عميقاً في قلبها . رأت منه في ذلك الموقف ما لم تره من قبل ، وعظم أمره في نظرها ، وقد زادها تهيّبا منه تكتمه ما يجول بخاطره ، فما هدد ولا توعد ولا تقم ، ولكنها كانت تقرأ ذلك كله على أساوره وفي عينيه . أما هو فسار توا الى غرفته في القلعة ، ولم يبنه احدا الى مجيئه ، وأجل مقابلة الامير عز الدين الى الغد . دخل غرفته وأقفل بابها وأخذ في نزع ثيابه وهو غارق في التفكير فيما سمعه في ذلك اليوم من الامور الغريبة ، وهو لا يزال في مقتبل العمر قليل الاختبار . وتلك أول مرة انتبه فيها الى مطامع الرجال الكبار على اثر ما سمعه عن قلب السلطنة بمصر ، وما هي عليه الخلافة في بغداد ، ولم يفته غرض سحبان من تقبيح الخلافة العباسية وتحسين الخلافة الفاطمية ، ولا غاب عنه قصد شجرة الدر من المبالغة في سيئات المستعصم والتحريض عليه ، وأدرك ما في نفسها من التهمة على عز الدين ، وانها اذا أرادت فوز ركن الدين فائما تريده انتقاما من الدين أساموا اليها . مر كل ذلك في خاطره وهو يبدل ثيابه ، ثم قعد على فراشه وهو لا يزال في التفكير ، فرسخ في ذهنه ان شجرة الدر وسحبان انما حرصاه على طلب السيادة لاحبا فيه بل انتقاما لنفسيهما . ولم يكره ذلك ولا رآه غريبا ولا عده خداعا ، لانه كان عاقلا حكيما ينظر الى الامور من حيث حقيقتها ، فلم يكن يرجو من سحبان مساعدة ليس له من ورائها مصلحة ، لعلمه ان الناس لا يأتون عملا بلا قصد ، ولا يقدمون على امر ان لم يتوسموا من ورائه نفعا لهم . ومن زعم انه يفعل الخير مجانا لكي ينفع الآخرين فقد اخطأ وكذب . فاذا علمنا هذه الحقيقة سهل علينا ان نعامل اصدقاءنا معاملة سotte . فلا نتوقع منهم فوق المستطاع ، ولا نستقبح منهم ان ينظروا الى مصلحتهم فيما يخدمون به مصلحتنا

كان ركن الدين على بينة من هذه الحقائق ، وأدرك غرض صاحبيه من ذلك التحريض ، فقبله شاكرا ، وعزم على الانتفاع به ، لكنه فضل كتمان مقاصده الى حين الحاجة . فلما قعد على فراشه وهو وحيد

في تلك الغرفة طفق يحدث نفسه قائلا : « أخذوا شوكار منى . أخذها الخليفة اليه في بغداد ليسمع غناءها ، وهى نعمة قل من ينالها من الجوارى الحسن . أرادت شجرة الدر أن تهيج غضبى على المستعصم لأنه فعل ذلك ، وهل يلام لأنه طلبها وقد رفع قدرها وزادها نعمة ؟ . لا يحق لى أن اتقم عليه أو اعد عمله اساءة لى لأنه لم يتعمد أخذ شوكار وهو يعلم انها خطيبتى أو امرأتى . وقد يقال ان هذا الخليفة ضعيف أو محب للهو ، يجب قتله أو خلعه لأجل ذلك ، وهذا معقول ، ولكن من يضمن أن خلقة لا يكون أكثر ضعفا منه ؟ ومن يخاطر بنفسه في خلعه أو قتله وهو لا يرجو أن ينال حظا لنفسه من السيادة ؟ . وقد أضحكتنى ما رأى ذلك الشيعى من احياء الدولة الفاطمية أو غيرها من العلويين بمصر . وما الفائدة لنا من احيائها ؟ . متى صارت مصر خلافة لا يبقى مجال لطلاب السلطنة ، اى لا يبقى حاجة الى السلاطين . أما اذا بقيت الخلافة العباسية في بغداد تثبت السلاطين في مصر ، فان سلطان مصر يشبه أن يكون مستقلا ، غير أن ذلك لا يمنع مجارة الرجل ومصانته لعل في سعيه نفعا يأتى عن غير قصد منه . واذا لم ننجح فلا خسارة من مسأيرته »

ولما بلغ الى ذكر سلطنة مصر نهض من الفراش وقد هاجت مطامعه ، وتمشى في الغرفة لحظة وهو مطرق ، ثم قال : « سلطنة مصر ؟ انها افضل من خلافة بغداد . هل اطمع فيها انا ؟ نعم ، ولكن لو قلت ذلك للناس لاستجهلوني . وقد أكون مبالغا في مطامعى ولكن يجب أن أسعى منذ الآن . احلر يا ركن الدين أن تجعل أحدا يشعر بذلك »

وسمع وقع حوافر جواد مار امام غرفته فانتبه لنفسه وتذكر سفر شوكار فقال : « هل اتغافل عن شوكار لا اطلبها ؟ . انى احبها ، وان كان ذلك الحب جاءنى في أول الامر تكلفا لكنه تمكن من قلبى ، ويكفى انها تحبني وتتوقع منى انقاذها . هذا اذا ظلت هى على ودادى بعد دخولها قصر الخليفة »



كانت الشمس قد مالت الى الغروب ، فاعتزم أن يقضى بقية يومه مستريحا ، على أن يكر في الصباح ليقابل عز الدين ثم السلطان الجديد لتهنئته بما ناله ، وأنتظار ما يفعله . فتناول العشاء واستراح قليلا فلم يشعر بحاجة الى الرقاد لعظم ما جاش في صدره واستولى عليه الارق

فلما أسدل الليل ثقباه تزمّل بمباءته وخرج يتمشى في فناء القلعة

نحو الجبل ، والجو صاح والقمر قد تكبد السماء ، وظهرت الطبيعة بأبنى ما يكون من الجلال والهيبة ، ويطلو للمفكر في مثل تلك الليلة أن يف على جبل أو في واد أو حديقة يناجي نفسه بهدوء وسكينة كأنه يهد في سره الى القمر أو يخاطب الطبيعة ويباحثها

وقد علمت ما كان فيه ركن الدين من الهواجس على أثر ما تزاحم في أفكاره من الأمانى والمطامع . فسار وهو ملتف بالعباءة فلم يعترضه الحرس ، وتسلق الجبل في ضوء القمر حتى بلغ الى سفطحه ، فوقف والتفت الى القاهرة وما بها من الخدائق ، ووراءها النيل ، ينعكس ضوء القمر على مائه ، ووراء ذلك الاهرام وقممها تناطح السحاب ، وحولها بساكنين النخيل والجميز لا يظهر منها الا أشباحها كالظلال ، فقمعد على صخرة وراءها بناء خرب أصله مسجد أو قلعة ، وليث هادئا ساكنا كأنه يتأمل مناظر الطبيعة ، وأفكاره تنتقل به من موضوع الى موضوع ، ونصب عينيه شوكار واين هي ؟ ويعترض تفكيره فيها مطامعه في السلطنة وهل بنالها ؟ وضوء القمر يكبر أشباح الفكر فتتعاضم الاوهام حتى تظهر كالحقيقة

ويبينما هو ساكت مطرق اذ سمع حفيفا يشبه انسياب الثعبان على التراب فلم يخفه ذلك ، لكنه تنبه الى انفراده واستغرقه في هواجسه ، فهم بالنهوض واذا هو يسمع فهقه على مقربة منه ، فالتفت فلم ير أحدا ، فأوشك أن يتوهم ذلك الصوت من أصوات الجان - وكانت هذه الخرافات رائجة في تلك الايام - لكنه ما لبث أن سمع وقع أقدام وراء تلك الخربة من الجهة الأخرى ، فسكت لأخوفا ولا تلصصا ، لكنه لم يكن يريد أن يشعر أحد بخروجه في تلك الليلة من القلعة

وأصاح بسمعه فاستنتج من مجمل ما سمعه ان هناك أناسا يتسامرون ، فساقه حب الاستطلاع الى التسمع ، وان يكن ذلك مخالفا لما فطر عليه من البسالة والانفة ، لكن حب الاطلاع على المخبات من جلة طبائع الانسان وهو لم يسع الى التجسس وإنما سيق إليه مصادفة

وقد زاده رغبة في التسمع انه سمع صوتا يشبه صوت سبحان ، وهو حديث العهد بسماعه في ذلك اليوم . سمع ذلك الرجل يقول لمخاطبيه : « ان سلافة هذه قد ادهشتني بدهائها ومكرها »

فاجابه الآخر : « اظنك تعنى قيمة قصر الملك الصالح . هل هي من دهاء النساء ؟ »

فقال سبحان : « مهما قلت فيها لا يمكن أن تحيط بوصفها ، اما انا

فقد خبرتها بنفسى . أرايت هذا الانقلاب الذى جرى أمس والتبدل الذى حصل فى السلاطين ؟ أرايت خلع شجرة الدر وتنصيب الملك الاشرف ؟ انها هى وحدها السبب فى ذلك كله »

فقال الآخر : « هذه مبالغة منك ياسيدى . كيف يتأتى لها ذلك وهى هنا والخليفة فى بغداد؟ . لعلك توهمت هذا فيها لما رايت عز الدين ايلك يتردد عليها حتى افسدت ما بينه وبين شجرة الدر ولكن هذا » فقطع سبحان كلامه قائلا : « أنا أقول لك عن ثقة ، ان سلافة وهى فى القاهرة قلبت الحكومة وبدلت السلاطين » . فقال : « وكيف ذلك؟ » قال : « يظهر أن نفوذها هناك عظيم جدا وان كلامها مسموع فى قصور الخلافة »

فقاطعه الآخر قائلا : « صدقت لأنها هى فى الاصل من جوارى ذلك الخليفة وقد اهديت للملك الصالح ، ولكن قد يكون فى قولك مبالغة » قال سبحان : « انى أقول لك شيئا خبرته بنفسى » . وخفت صوته وقال : « أنا اخذت كتابها بيدي الى بغداد ، فلم يكن الا مسافة الطريق حتى جاء الجواب بخلع شجرة الدر » فضحك الرجل وقال : « ما الذى ادخلك فى هذه المهمة ؟ وما هو شأنك مع هؤلاء الاتراك يا سبحان »

قال : « لا يهمك أن تعرف تفصيل ذلك ، ولكنى وجدت هذه المهمة قد تساعدنا فى مشروعنا ، وكنت أحسب خلع شجرة الدر على هذه الصورة يغضى الى ثورة تهيم لنا الاسباب المعلومة »



فلما سمع ركن الدين هذا الحديث رأى فيه فائدة له فاغتر لنفسه تنصته ، ومكث لسماع بقيته ، فسمع رجلا آخر يقول : « لقد أسأت ياسيدى بأداء هذه المهمة ، فانك أخرجت الدولة من يد امرأة ضعيفة الى يد رجل شديد ، فلا يلبث أن يخلع ذلك السلطان الفلام ويقبض هو على الدولة بيد من حديد والحقيقة على ما أرى أنك قمت بهذه الخدمة طمعا فى رضا سلافة . . انها فى الحقيقة بارعة الجمال »

قال سبحان : « صدقت ، انها لجميلة ، وربما خطر لى أن أنال رضاها ، لكن المهمة فى أصلها خدمة للغرض المعلوم » . فقال الآخر : « وهل نلت ما كنت تؤمله من رضاها ؟ »

قال : « لا أدري ، ان هذه المرأة سر من الاسرار أو هى لغز معمى لا يمكن حله ، يلوح لى انها بلا قلب ، أو هى ذات خلق خاص ، أعترف

لكم انى كنت اثال رضاها ورأيت من تقربها وتلطفها ما أكد لى حبها ، ثم ما لبثت أن رأيتها وقد تغيرت بعد رجوعى من بغداد إذ اختصت الأمير عز الدين بحبها ، وقد ملكت قلبه ولبسه حتى شعرت شجرة الدر بذلك وغضبت عليه ، لكن هذه أصبحت بعد خروج الملك من يدها لا تستطيع غير العتاب والشكوى »

فتصدى رجل للسؤال قائلا : « كل ما تقوله صحيح » ، وازيد عليه ان السبب فى اهتمام المرأة بخلع شجرة الدر وتنصيب غيرها ليس الا غيرة منها ، لان شجرة الدر صارت ملكة ، وهى تحسب نفسها أحق منها بذلك لأنها كردية من قبيلة الملك الصالح ، ففعلت ما فعلته انتقاما ، وليس فيه شيء من الدهاء لأنها نقلت الدولة الى يد أخرى ، وإذا صدقنا انها فعلت ذلك بدهائها ، فما الذى عاد عليها من هذا العمل ؟ . ثم انى لم أفهم كيف توصل الخليفة فى بغداد الى خبر شوكار المغنية حتى يطلبها ؟ »

فقال سحبان : « هى التى أومزت اليه بأن يطلبها نكاية فى شجرة الدر لأنها مغنيها »

فلما سمع ركن الدين اسم شوكار خفق قلبه وزاد ميلا الى السماع ، وخذ الله على تلك المضادة التى أسمعتة هذا الحديث وهو فى أشد الحاجة الى معرفته لأنه كان غائبا عن مصر فى اثناء تلك الحوادث فانصت فسمع رجلا يقول : « وهذا لا شيء فيه من الدهاء لأن شجرة الدر يمكنها الاستعاضة عن شوكار بعشرات مثله ، ولكن السر الحقيقى فى نجاح هذه المرأة أن لها صداقة متينة مع قيعة قصر المستنصر ، ولها عليها حقوق مختلفة ، فكتبت اليها بما رآته ، وتلك صاحبة النفوذ هناك فأنفذته . دعنا منها امراة متلونة منافقة والسلام »

فضحك سحبان وقال : « صدقت انها منافقة لأنها خدعتنى ، وأظنها ستخدع سواى ، ولكن لا شك انها صاحبة نفوذ عظيم فى قصر الخليفة .. ما لنا ولها .. هيا بنا »

فقال آخر : « لا تطاوعنى قدماى على الابتعاد عن ضوء القمر الجميل ، ولكن قد آن وقت الرقاد فلا حول ولا .. »

وسمع ركن الدين وقع خطواتهم وهم خارجون من تلك الخربة ، فانزوى ريثما ابتعدوا ، وعاد الى التفكير فيما سمعه عن سلافة وعن سر الانقلاب الذى جرى ، فانجلت له أمور كثيرة يؤمل الانتفاع بها . عاد الى غرفته يطلب الرقاد وقد انهكه التفكير فى هذه الامور ، فتوسد الفراش على أن ينهض فى الصباح لمقابلة الملك الأشرف وعز الدين مدير المملكة . فلما أصبح لبس ثيابه وذهب الى الايوان

فلقى عز الدين ، فاخبره أنه وصل أمس لكن التعب منعه من القيام بهذا الواجب ، فقدمه عز الدين الى الملك الاشرف ، فقص عليهما نتيجة مهمته في دمياط وقد انتهت باخراج الافرنج من هناك بشروط موافقة فائضى عز الدين على همته وبسالته ووعدته بالكفاة ، فشكر له تلطفه ، ولم ير فيه ما كان يعلمه من غيرته منه ، أو لعله أحس بذلك بسبب ما خامره من المطامع وما سمعه من الأقوال ، وعلى كل حال فإنه بالغ في الكتمان ولبث يتوقع سلوح الفرض



ثم عاد الى التفكير في شوكار وهو لا يدري هل يبحث عنها أو ينتظر ريثما يتأكد بقاءها على حبه لأنه كان كثير الشك في ذلك لما استلقيه في قصر الخليفة من النعم . ولم يكن من ذوى العواطف القوية الذين يضحون بمصالحهم المادية في سبيل الحب ، ولكنه كان قوى العقل كبير المطامع ، ويغلب في أمثاله أن ينظروا الى كل شيء من الناحية التى تنيلهم مطامعهم ، ولذلك لم يصدق أن شوكار ستبقى على وده بعد ذلك الانتقال ، على أنه كان يشعر بميل شديد اليها وعطف عظيم عليها ، وكان يعزيه أنها هناك في نعيم لا خوف عليها من الاهانة ولا يمس شرفها بما يبعث على غيرته لأنها جارية مضية فقط . قضى برهة وهو يفكر فيما يعمل : أيسافر الى بغداد للبحث عنها أم يبعث أحدا في طلبها ؟ وشغل أيضا بجهام منصبه ، لكنه لم يستطع الصبر على الفراق ، وهو لا يعلم ما يكون من حال شوكار هناك

فأصبح ذات يوم وقلبه قلق على شوكار ، وقد رآها في نومه على غير ما يريد . وهو غير قادر على السفر اليها ، فخطر له أن يكلف سحبان بذلك ، وأن يطمئنه ويظهر له المسيرة في رايه . فبعث اليه فجاءه وهو مستبشر طمعا فيما يرجوه ، فلما لقيه قال ركن الدين : « صدقت يا سحبان ، ان هؤلاء القوم لا يصلحون للخلافة وهم في هذا الفساد »

قال : « ألم أقل ذلك يا سيدى ؟ »

قال : « نعم وأنا أعرفه ، وقد خبرته بالأمس مما فعلوه معى .. لا أعلم اذا كنت قد سمعت بأخذهم شوكار »

قال : « كيف لا ؟ . سمعت ، نعم سمعت ، وهذا لا يفعله الخلفاء العلويون و .. »

فقطع ركن الدين كلامه قائلا : « ولكن هل تعلم من هى شوكار ؟ »

قال : « نعم انها جارية شجرة الدر ومعنيتهما »

قال : « وهى فوق ذلك خطيبتى .. »

فاظهر الدهشة وقال : « خطيبتك ! واخذوها منك ؟ . يا لله من هؤلاء القوم الظالمين ؟ »

قال : « لم ياخذوها وهم عالمون بذلك .. مالنا ولهم ، وانما يهمنى الآن ان اعرف حال شوكار هناك ، وانا لا اقدر على السفر ، وانت تسافر دائما في تجارتك ، فهل تقضى هذه المهمة لصاحبك ركن الدين ؟ »  
فاستانس سبحان بذلك التلطف وقال : « اقضها على الرأس والعين ، وأسافر في الغد لأجلها .. قبحهم الله .. انهم مضيعون هذا الملك عن قريب »

فقال ركن الدين : « أشكر لك سعيك يا سبحان ، والايام بيننا »

فقال : « ان خدمتك يا مولاي واجبة على .. انى مسافر غدا ولا أسألك عما تطلبه فانى أعرف كل شيء ، كن فى راحة » . قال ذلك وخرج بعد ان ودع

وعاد ركن الدين الى شؤونه وقد اطمأن باله نوعا ، وصبر نفسه ريثما تنقضى المدة اللازمة للذهاب سبحان الى بغداد ورجوعه منها ، وهى أكثر من شهر . لكن لم يمض أسبوعان على سفر سبحان حتى جاءه رسول بكتاب من بغداد وصل فى المساء فلم يصبر على تبليغ رسالته الى الصباح . وكان ركن الدين فى تلك الليلة عند شجرة الدر وقد أكثر من ترداده اليها ليسليها على ما أصابها من الوحشة بعد وقوع الفتور بينها وبين عز الدين ، ولم يدرك أن ترداده يزيد تلك الوحشة

كان تلك الليلة عند شجرة الدر وجاء الحاجب وقال : « ان بالبواب رسولا يحمل كتابا الى الامير ركن الدين ولا يريد أن يسلمه الا بيده »  
فقال ركن الدين : « ليدخل » ولم يطاوعه قلبه على الصبر ، فوثب كالسهم حتى لقي الرسول وصاح فيه : « ما وراءك ؟ »

فقال : « وهل الذى يكلمنى الامير ركن الدين ببيرس ؟ » . قال : « نعم ، من أنت ؟ ومن أين آتيت ؟ »

قال : « أنا رسول الى الامير من فتاة تريد أن يصل كتابها اليه سرا » . ففحق قلبه وقال : « هاته » . فعد الرجل يده الى جيبه وأخرج الكتاب ودفعه اليه ، فتناول ركن الدين الكتاب ودخل الى القاعة وأخذ يقرؤه ، وشجرة الدر تنظر اليه وتراقب حركاته وما يبدو فى وجهه من التغير . ولم يفرغ من قراءته حتى بلغ الغضب منه مبلغا



عظيما ، وشجرة الدر قلبها يخفق وعيناها شاخصتان اليه . فلما فرغ من تلاوة الكتاب صاحت فيه : « ماذا قرأت ؟ ماذا جرى ؟ »  
فرمى الكتاب اليها ، فتناولته وقرأته فإذا فيه :

« من المسكينة شوكار الى سيدها وحبيبها ركن الدين . اختطفوني من بين ذراعى شجرة الدر وانت غائب ، ولم تجد مولاتى حيلة لاستبقائى حتى حضورك . فبرحت القاهرة وقلبى فيها ، ولم أزل منذ برحتها وأنا أندب حياتى لا أجد لى سلوى برغم ما كان يبذله صاحب الركب من أسباب الراحة لى . وهم يستغربون البكاء من جارية طلبها أمير المؤمنين لتكون فى مجلسه ، على أنى ما لبثت أن وجلت بكائى كان فى محله لأنى حين أشرفت على بغداد تغيرت حالى إذ أسلمونى الى قوم جاءوا من قصر الخليفة وكنت احسبهم جاءوا ليستقبلونى ، وعزمت على أن اطلب اليهم أن يعيدونى الى مصر أو اوسط أحدا للخليفة ليأمر بارجاعى بعد أن أقص عليه خبرى . لكننى لم أكد أقع فى أيديهم حتى عاملونى معاملة الأسيرة ، وساقونى الى حيث لا أدرى . هذا وقد كان فى الركب الذى حلتى من مصر الحصى عابداً البصرى حامل هذا الكتاب اليك . وكنت قد استأنست به وأحسست بعطفه على فافتتحت فرصة كتبت فيها هذا الكتاب على عجل ورجوته أن يوصله اليك . فآكرمه ما استطعت ، واستودعك الله ، ولا أظننا نلتقى فى هذه الدنيا ، وقد ختمت هذا الكتاب بدموعى »

وكانت شجرة الدر تقرأ وركن الدين يخاطب حامل الكتاب وسأله : « ماذا تعرف من التفاصيل ؟ »

فقال : « لا أدرى ياسيدى سوى أنى كنت فى خدمة الركب الذى أتى بكتاب الخليفة ، ولما عاد ومعه هذه الجارية رأيت فيها لطفاً ، وكنت أنا المكلف بخدمتها . والمفهوم بيننا أنها محمولة الى أمير المؤمنين لتكون مغنية فى قصره ، وكنا نبذل جهدنا فى خدمتها وراحتها ، فلما وصلنا الى ضواحي بغداد جاءنا وفد من الجند قالوا انهم قادمون من قصر الخليفة ، وطلبوا الينا أن نسلمهم شوكار ، فلم يسعنا إلا الطاعة ، لكننا لحظنا انهم ذاهبون بها الى غير قصر الخليفة ، فأشفت عليها وأخذت فى تعزيتها وسألتها عما تريد أن أصنعه فقالت : ( لا أريد شيئاً سوى أن توصل هذا الكتاب الى الأمير ركن الدين ، وتسلمه اليه بيده ، وقد فعلت ) .. »

فقال : « وأين هى الآن ؟ وماذا تظن انهم يفعلون بها ؟ وما غرضهم من اخذها على هذه الصورة وهى لا تعرفهم ولا علاقة لها بهم ؟ »  
قال : « لا أدرى يا سيدى ، وأنا أيضاً مستغرب هذه المعاملة »

فأطرق ركن الدين ، وأخذ يفكر فيما عسى أن يكون سبب ذلك فلم يوفق الى رأى فقال : « الآن يا عابد اذا دفعت اليك كتابا هل توصله اليها ؟ وأين تجدها ؟ »

قال : « أبحث عنها جهدى ، ولا أنفك حتى أجدها وأكون طوع ارادتها فيما تريده وأقديها بروحى .. انها يا مولاي تغدى بالروح للطفها وأدبها »

فأثنى ركن الدين على مروءته وقال : « تعال فى صباح الغد فأدفع اليك بالكتاب . تجدنى فى غرفتى بالقلعة ، هل تعرفها ؟ » . فأجاب باحناء الرأس أن « نعم » وانصرف



وقف ركن الدين مطرقا وقد أخذته الدهشة ، ثم انتبه لشجرة الدر فتحول نحوها فراها قد فرغت من تلاوة الكتاب وتغير وجهها وظهرت أمارات الغضب فى عينيها ، فلما التفت ببيرس اليها بادرتة قائلة : « تلك هى اعمال الخلفاء الذين لم يعجبهم أن تتولى السلطنة امرأة ! هذا المستعصم أمير المؤمنين . والله لو أن امرأة سليطة تولت هذا الملك لبدرته أحسن من تدبيره ، شغل نفسه بالفناء والهوى ، ثم يأخذ نساءنا من بين أيدينا ونحن صابرون ! »

فأدرك ركن الدين انها تستثير غيرة على شوكار للانتقام من المستعصم فقال : « ولكن ما أصاب شوكار ليس من المستعصم »

قالت : « ممن اذن ؟ ألم يكن هو الذى بعث فى طلبها اليه . وهب أن الدين اختطفوها الآن لم يفعلوا ذلك بأمر الخليفة ، إلا يدل وقوع ذلك على ضعف الرجل وقلة هيئته حتى يجرؤ الناس على اختطاف مغنية آتية اليه فى موكب حافل ؟ على اننى أضع أكثر الحق على »

فقطع كلامها قائلة : « الحق كله على عز الدين ، هذه هى الحقيقة ، ولو شاء هو لاحتال فى استبقاء شوكار »

فقالت : « صدقت ، وهذا هو رأى . لا أدري ما غير هذا الامر ؟ ان مطامع الدنيا تغير الناس . طمع عز الدين فى السلطنة فضحى كل شيء فى سبيلهم ، ضحى أصدقاءه وخلانه و... » . وغصت بريقها وسكتت

لم يكن ركن الدين يجهل ما فى خاطر شجرة الدر على حبيبها من الغيرة والنقمة ، فأراد أن يخالفها لاكتشاف ما يكنه ضميرها فقال : « لا اظنه فعل ما فعله طمعا فى الملك لأنه كان فى نفس هذا المنصب

وأنت سلطنة . بل كان معك أقرب الى السيادة والنفوذ منه الآن ،  
ويظهر أنه لم ير بدا من اطاعة امر الخليفة فيما يتعلق بشوكار »

فضحكت ضحكة اغتصابية وقد امتقع لونها من شدة التسالم  
والغضب وقالت : « لعله أطاع بذلك غير أمر الخليفة » . وبلعت ريقها  
وتشاغلت بمنديلتها تمسح به فمها وجبينها

فلحظ ركن الدين أنها تمنى سلافة فقال : « وهل تلومينه لأنه يبحث  
عن مصلحته ؟ ليس في الدنيا أحد لا .. »

فقطعت كلامه قائلة : « كلا . لا ألومه لذلك ، ولكنني ألوم غيره لأنه  
لا ينظر الى مصلحته أيضا ، ان هذا الأمير ضحى بشوكار وركن الدين  
وشجرة الدر في سبيل مطامعه ولم يبال ، ونحن ما زلنا نحافظ على  
عهده ولتلمس وده » . وتزحزحت من مجلسها وفي ملامح وجهها أنها  
لم تتم حديثها بعد

فأراد ركن الدين أن يستزيدها بيانا فقال : « انا ناقم على هذا  
الأمير كما تعلمين ، لكنني لا أراه يستحق هذا الغضب منك . لأن  
ما جرى لك ولشوكار لم يكن هو فاعله ، ولم ينل من فعله شيئا جديدا  
لم يكن له وأنت سلطنة »

قالت : « قد أخرجتني يا ركن الدين ، فاستأذني في كشف ما في  
قلبي . قد يتبادر الى ذهنك أني كرهت عز الدين لأنه أحب تلك  
الجارية الكردية ( سلافة ) وهي التي ساعدته على ما فعل ، وكنت  
أحسبها فعلت ذلك لحبا فيه ، ولكنني عرفت الآن أنه لم يكن يحبها ،  
ولكنه خدعها كما خدعني ، فلما نال مرامه منها تخلى عنها . هل  
علمت بما عول عليه وأوشك أن يفعله بمشورتها ومساعدتها ؟ » . قال :  
« كلا » . قالت : « قد عزم عزما أكيدا على أن يستقل بالسلطنة »

قال : « اليس هو مستقلا بها الآن ؟ اليس الملك الأشرف صورة  
لا معنى لها » . قالت : صحيح ، ولكنه سيخلعه ويطلب من الأمراء  
أن يبايعوه سلطانا بدله »

فهب رأسه هزة الإنكار وقال : « هذا لا يكون ، وكيف يتأتى له  
ذلك والبأس يحتجون ؟ انهم لا يخضعون لملك ليس من آل أيوب »

فقالت وهي تضحك جنحك الاستهزاء : « انك ما زلت قليل الاختيار  
يا ركن الدين ، لكنك لا تلبث أن تعلم أن هؤلاء القوم لا رأى لهم ولا  
صوت ، ينقضون اليوم ما قرروه بالأمس . والظاهر أن عز الدين  
تمكن من أغراء المقربين له وأنت غائب وقبلوا مبايعته ، وبلغني أنهم  
اختاروا له أحد القباب الخلفاء الفاطميين بمصر وهو ( المعز ) فهل بعد

ذلك شك ؟ ولعله لو طال مكثك في دمياط لأمضى هذا الأمر في غيابك ..  
أو اظنه أمضاه من ذلك الحين .. ألا تشعر أنه تغير معك عما كان عليه  
من قبل ؟ »

فشارت الفيرة في نفس ركن الدين ، وأوشك أن يبوح بما في خاطره ،  
لكنه تجلد وتماسك . وقد فتح أمامه بعد هذا الحديث باب جديد ،  
فهو لم يكن بالأمر يتصور أنه يمكن لغير الأيوبيين أن يستقلوا  
بالسيادة فإذا هو يرى عز الدين استطاع ذلك وواقفه عليه الأمراء .  
فازداد رغبة في السلطة ، لكنه ما زال حريصا على كتمان ذلك المطمع  
خوف الفضل عملا بالحديث الشريف : « استعينوا على قضاء حوائجكم  
بالكتمان » . لكنه غلب على ظنه بعد أن سمع من حديث القوم عن  
سلافة في تلك الليلة أن عز الدين لم يفعل ذلك إلا بنفوذها فأراد أن  
يستطلع رأى شجرة الدر في ذلك فقال : « ألا تظنين أن لسلافة دخلا  
في هذا الأمر ؟ »

قالت : « لا ريب عندي أنها ساعدته في ذلك نظرا لنسبها الكردي  
وعلاقتها الودية مع بعض الأمراء أصحاب النفوذ من آل أيوب وغيرهم .  
ولعلها ارتكبت أمورا دنيئة في هذا السبيل ظنا منها أنها اختلطت  
عز الدين من شجرة الدر . ولكن خاب ظنها لأن هذا الرجل ليس لاحد  
منا ، وسوف ترى » . قالت ذلك وابتسمت وعيناها تلمعان

ولحظ ركن الدين في عينيها معنى لم يكن فيهما من قبل . رأى  
الفيرة والنعمة والغيظ تتزاحم فيهما ، فقال : « لن هو اذن يامولاتي ؟ »  
قالت : « أتريد أن أبوح لك بكل ما عرفت عن هذا الخائن مرة واحدة ؟  
سألتني لمن هو ؟ فأجيبك أنه يزعم أنه لإمرأة ثالثة » . قال : « من  
هي ؟ » . قالت : « امرأة لا تعرفها ، ليست في مصر »

فاستغرب قولها وقال : « أظنك تمزحين ؟ » . قالت : « كلا ، اني  
أقول الصدق ، ان عز الدين يزعم أنه سباع في خطبة بنت بدر الدين  
لؤلؤ صاحب الموصل »

قال وقد بدا الاستغراب في عينيه : « ان صاحب الموصل له مقام  
رفيع عند الخليفة ، وهل تظنينه يفوز بها ؟ »

وكان التأثير والغضب قد ملكا عليها أمرها ، فقالت وهي تشير بيدها  
إشارة الإنكار : « لا . لا . لا . لن يفوز بها . أنه ليس لاحدى هؤلاء  
النسوة ، بل هو نصيب الرابعة » . وأشارت بيدها إشارة رجل بيده  
خنجر يطعن به آخر الى جانبه . ففهم ركن الدين أنها تنوى قتله ،  
وتأكد ذلك مما بدا في عينيها من الاحرار ، فضحك وأظهر الاستخفاف  
بهذا الرأي ، ونهض يريد الانصراف وهو يقول : « لا أظن الامر يبلغ

بك الى هذا الحد ، قد انتصف الليل وآن لى الانصراف ، استودعك  
الله . »

فصاحت به : « ويلك يا ركن الدين ، تذهب على هذه الصورة  
وتتركنى على هذه الحالة ؟ ماذا جرى لك ؟ » . قال : « ماذا أصنع  
يا مولائي ؟ » . قالت : « قد رايت من أمرك عجا . تكلمنا فى ابواب  
كثيرة وصرحت لك بأمور كثيرة كنت أكتهما عن كل انسان وانت  
جامد كالصخر الأصم لا تقول شيئا . . اذا كنت تفعل ذلك عن دهاء  
فنعم الفعل ، والا فانك صلب بارد . وفى كل حال كنت أتوقع منك  
أن تقول كلمة عن شوكار المسكينة التى ذهبت ضحية حبك ، وهى  
تقاسى العذاب ، وقد تفطر قلبى من كتابها . ولو كنت خطيها  
لركبت الساعة الى بغداد ولم أرجع الا وأنا منتقمة لها من ذلك الخليفة  
الظالم الذى لا يهमे الا التمتع بملذاته » . قالت ذلك وهى تتبرس  
فى عينيه

فكان لكلامها وقع السهام فى قلبه . وأوشكت أن تخرجه الى  
التصريح بما فى ضميره ، لكنه تراجع وتمالك وتشاغل بالضحك وقال :  
« لله أنت من خطيب غيور شجاع . أما أنا فأظن عندى مثل ذلك .  
ولكننى سأنظر فيه وأعمل ما يسرك وان لم أقل شيئا » . قال ذلك  
وبرقت عيناه ، وبان الحزم والجذ فى جبينه ، فتقدمت اليه ووضعت  
يدها على كتفه . وقالت : « هذا عهدى فيك ، وقد فهمت من هذه  
العبارة كل شيء . واعلم انى فاعلة ما يتمم عملك هنا . . أقتل  
المستعصم وأنا أقتل عز الدين ، وانت السلطان صاحب الأمر والنهى »  
فتجاهل ما سمعه وقال : « أأذن لى فى الانصراف الآن ؟ »

فأشارت اليه مودعة ، فخرج وهو ينتفض من الغضب ، وقد  
تضاربت الافكار فى خاطره . ولم يعجبه تصريح شجرة الدر بقتل  
المستعصم لاعتقاده أن مثل هذا الأمر الخطير لا ينبجح الا اذا ظل مكتوما  
فى خاطر صاحبه



مشى ركن الدين وقد انتصف الليل وأخذ منه التأثر ماخذا عظيما  
حتى أصبح لا يرى طريقه من فرط ما تجاذبه من الهواجس ، وأسرع  
فى خطاه رغبة فى الاختلاء بغرفته لمناجاة نفسه ، لكنه لم يكد يصل  
الى باب منزله فى القلعة حتى تصدى له أحد الحراس وحياه ، فرد  
التحية ومشى ، فتقدم اليه الحارس قائلا : « ان خادما فى انتظار مولاي  
هنا منذ ساعتين » . وأشار الى رجل واقف بجانبه

والتفت نحوه وقال : « من الرجل ؟ » . وظنه لأول وهلة رسول  
شوكار جاء يأخذ جوابه اليها ، فإذا هو سواه  
فتقدم الرجل ودفع الى ركن الدين كتابا مختوما ، فتناوله وأمر  
خادمه أن يسرع الى غرفته ويضيء فيها المصباح ففعل  
فدخل ركن الدين وحده وفض الكتاب أمام المصباح ، وقد أدهشه  
ما فاح من رائحة الطيب ، فترجع لديه أنه من امرأة ، فأخذ يقرأ فإذا  
هو من سلافة جارية الملك الصالح ، فاستغرب ذلك وقرأ فيه :  
« سلافة جارية الملك الصالح وقيمة قصوره ترغب في مقابلة الامير  
ركن الدين ببيرس ساعة وصول كتابها هذا اليه ، وحامل الكتاب  
يرشده الى المكان »

فوقع في حيرة ، وتولته الدهشة ، وأخذ يسأل نفسه ماذا عسى أن  
يكون غرضها من تلك المقابلة وليس بينها وبينه سوى معرفة بسيطة .  
وتذكر ما سمعه عنها من سحبان ، وما جرى من ذكرها بين يدي  
شجرة الدر ، وعلاقتها بمر الدين أليك ، فأصبح شديد الميل الى  
تعرف هذه المرأة ، ولعل التعرف بها ينفعه في مشروعه

ورأها تطلب اليه مقابلتها ساعة وصول كتابها فقال في نفسه :  
« ما عسى أن يكون سبب هذه السرعة ؟ » . وبرغم ما كان فيه من  
التعب والقلق عزم على أجابة الدعوة حالا ، فنادى الرسول اليه فدخل  
فقال له : « هل المكان بعيد من هنا ؟ » . قال : « كلا يا سيدي انه  
قريب جدا » . قال : « وهل أنت هنا من زمن طويل ؟ » . قال :  
« منذ نحو ساعتين » . قال : « ولماذا انتظرت كل هذه المدة ؟ » .  
قال : « لأن مولائي صاحبة الكتاب أمرتني ألا أعوذ الا بالجواب »

فازداد ركن الدين دهشة واستغربا وصمم على الذهاب ، فلبس  
ثيابه وخرج ، والرسول يمشي بين يديه ، وقد أخذ القلق منه مأخذا  
عظيما . ومر بباب القلعة فعزفه الحراس ولم يعترضوا سيره

خرج الى القاهرة والطريق مظلم الا من بعض المصابيح بأبواب  
المنازل ، وما زال ماشيا والرسول معه حتى وصل الى باب كبير  
وقف الرسول عنده واستوقف الامير ريثما طرقت الباب ، ففتحت  
طاقة فيه وأطل منها عبد خصي يسأل عن الطارق فأومأ اليه الرسول  
فوسع له ولرفيقه ، فدخل ركن الدين الى حليقة مظلمة ، لولا شموع  
مضيئة لكان الظلام حالكا . على أن ذلك النور الضعيف زاد المكان  
وحشة لأنه جعل ظلال الاشجار تظهر متكاثفة متلبدة . فلما رأى  
نفسه في ذلك المكان ندم على مجيئه ، وتوهم أشياء كثيرة بعضها  
يوجب القلق ، ولكنه تجلد ومشى بقدم ثابتة لا يبالي ما قد يتهدهده ،

وهو لم يتعود الخوف ، لكنه خاف الفضيحة لعلمه بما بين صاحبة هذا المنزل وعز الدين من العلائق

وكان الرسول قد تقدمه لينبئ بوصوله ، فما كاد ركن الدين يتوسط الخديقة حتى عاد الرسول وأشار إليه أن يتبعه ، فتحول به الى قاعة منفردة قد أضيئت فيها الشموع على منائر في وسطها ، وفرشت أرضها بالبسط والوسائد ، وأدهشه ما شاهده بين الاثاث من الآنية التي كان يراها في قصور الملك الصالح قبل هدمها وتخريبها ، وتأكد أن عز الدين جاء سلافة بهذا الرياش ، لأنه هو الذي خرب تلك القصور واستأثر بانقاضها ورياشها

استقبلته سلافة بباب القاعة وقد لبست ائمن ما عندها من الحلى والثياب ولم تتنقب الا قليلا ، وكان قد تنسم رائحة الطيب قبل أن يراها فلما تلاقت عيناهما زاد ندمه لمحيطه لأنه توهم شركا يخاف الوقوع فيه

اما هي فاستقبلته بالسلام والترحيب قائلة : « قد أزعجناك ايها الأمير »

قال : « العفو يا سيدتي ، اني مسرور من هذه الفرصة فمعي ان أستطيع أداء خدمة أو قضاء طلب »

فمدت يدها للسلام عليه فمد يده وصافحها فوجد اناملها باردة كالثلج وفيها رعشة أثرت فيه ، لكنه تشاغل بالثناء على ترحابها ، ثم مشى به وهي قابضة على يده حتى وصلت الى مقعد في صدر القاعة ، فأشارت اليه أن يجلس فجلس وقد أقشعر بدنه من لمسها ، فافلتت يده وجلست بين يديه على وسادة ، وهي تنظر اليه وترحب به ، وهو ينتظر أن تفاتحه بما دعته من أجله ، فلم تزد على الترحيب والمؤانسة . فلما أبطأت عليه قال : « جئت طوعا لأمرك ، فهل من خدمة أقضيها لك ؟ »

قالت : « بل انا في خدمتك يا ركن الدين ، ولعلك لم تكن عالما بوجودي قبل هذه الليلة ولم أخطر ببالك . وأما أنت فلم تبرح من فكري لحظة ، وأنا اتبع خطواتك منذ أعوام » . قالت ذلك وأحمرت وجنتاها وبرقت عيناها ، وكانت جميلة فزادها ذلك جمالا

أما ركن الدين فلم تعجبه هذه الفاتحة لأنه في شاغل عن المغازلة ، وكان يسمع بحمال هذه المرأة ويعرف عنها بعض الشيء في حياة الملك الصالح ، ولم يكن أمرها يهمه ، ولا سيما في تلك الليلة وهو في ذلك الاضطراب . فلما سمع قولها اطرق وقال : « العفو يا مولاتي ، كنت

أسمع بمنزلتك الرفيعة عند مولانا الملك الصالح ، ولكن الأحوال لم تأذن بالاعتراف »

قالت وهي تتظاهر بالجلجل والحياء : « هذا صحيح بالنظر اليك وحده ، أما أنا فقد عرفتك جيدا ، وطالما راقبت دخولك قصر الروضة وخروجك منه ، وكثيرا ما كنت أسهر الليل بطوله أنتظر مرورك في الحديقة لأراك من وراء الستائر »

فاستغرب ركن الدين هذه المشاكة وتجاهلها وقال : « ان ذلك فضل منك يا سيدتي ، وأنا أسف لأنى لم أكن أعلم به »

فقالت : « ألم تعلمه الآن ؟ أرجو الإغضاء عن جسامتي يا ركن الدين ولا تكن قاسيا »

فلما سمع هذا التعريض أجفل وأسف لمجيئه وقال : « العفو يا سيدتي ، لم أكن أتوقع أن أسمع هذا وأنا أعلم أن مولانا الأمير عز الدين يتردد الى هذا المكان وهو صاحبه »

فتنهدت وقالت : « مولاك ، أو مولاي الأمير ، لا يستحق هذه الحظوة . دمه وشأنه ، مالنا وله ؟ »

فظن ركن الدين أنها تريد أن توقعه في الفخ لتستخدمه في مهمة لها كما فعلت بسجبان ، فصمم على الرفض وسرعة التخلص فقال : « أهدا دعوتنى يا سلافة في هذا الليل ؟ »

فأجابته وعيناها ذابلتان وقالت : « وهل هذا امر قليل الاهمية في نظرك يا حبيبي ؟ »

فنهض وهو يقول : « ليس قليل الاهمية ، ولكننى في شغل عنه الآن يا سيدتي . وهم بالاستئذان في الانصراف »

فنهضت ووقفت في طريقه وقالت : « ما الذى يشغلك عنى . لم يبق الآن ما يشغلك يا قاسى القلب ، أين القاهرة من بغداد ؟ »

فأدرك أنها تشير الى شوكار وأخذها الى بغداد ، فنقرت نفسه منها وقال : « ما زلت في شغل ، أرجو يا سيدتي أن تأذنى في انصرافى ناشدتك الله »

فأمسكت يديه بكلتا يديها وقالت : « تمهل يا ركن الدين ، لا تسرع في الرفض وأنتبه لنفسك ، وأعلم أن سلافة وحدها تقدر أن تنيلك مرامك . مالك واللغناء ؟ أنت في حاجة الى من يضع يده بيدك ، وإذا أقيت الوقود في النار نفع فيها وأشعلها حتى ينضج الطعام » . ونظرت في عينيه وأبتسمت . فعلم أنها تشير الى تفضيل نفسها على شوكار فقال : « بالله دعينى أنصرف لأنى في شغل ذى بال »



قالت : « أنا أعلم بشواغلِكَ ، أما شوكار فلا سبيل إليها أبداً و ... »  
فلما سمع تصريحها فجأة اجتذب يديه من يديها وقد غضب وقال :  
« ما الذي حلك على ذكر هذه الفتاة الآن ، ما لنا ولها ؟ »  
قالت : « كيف لا أذكرها وهى سبب قلقى وعلة شقاى ؟ لكنها  
الآن بعيدة عنا »  
فقال : « اذا كانت بعيدة الآن فانها ستكون بعد قليل قريبة باذن  
الله »

قالت : « من قال لك ذلك فقد خدعك . ان شوكار أصبحت فى غير  
هذا العالم يا ركن الدين ، وقد نصحتك فانتصح »  
فاقتصر بدنه عند سماع هذا الكلام وحلق فيها وقال : « اطلب  
إليك ان تكفى عن هذا القول وتدعنى وشائى ، دعنى اذهب بسلام » .  
قال ذلك وقد مال الى تصديق قولها لكثرة ما عرفه من دهائها وعلاقاتها  
ببغداد وتفوذها هناك ، وبخاصة لأنها لم تستقدمه إليها الا فى الليلة  
التي جاءه فيها ذلك الكتاب من شوكار تشكو فيه الخطر ، فقام فى  
ذهنه أن سلافة تعرف حقيقة حال شوكار ، فقعده وأشار الى سلافة  
أن تقعد وأظهر الجد وقال : « يا سيدى أرجو أن تصفى لما أقوله لك ،  
وقد علمت من كثيرين بما لك من المنزلة العالية والكلمة النافذة فى  
قصور أمير المؤمنين ببغداد ، فأرغب إليك أن تساعدنى فى أمر يهمنى  
هناك »

فقطعت كلامه وقالت : « انى طوع ارادتك فى كل ما تريد ، ولا أنكر  
عليك ما لى من الكلمة النافذة ، ولعلك تعلم أن ما حدث من العزل  
والتنصيب بمصر انما كان على يدى »

فلم يخامره شك فيما تقوله ، واعتقد أنها تقدر أن تفعل كل ما ادمته  
وهو طامع فى السيادة ، لكنه أحس بشيء حال بينه وبين تلك المطامع ،  
وأصبح همه انتقاد شوكار فقال : « أشكر لك تفضلك ، ولا ريب عندى  
فى صدق ما تقولين ، ولا أظننى أستغنى عن يدك فى بعض هذه الامور  
لكننى اطلب الآن أمرا واحدا فهل تقضينه لى ؟ »

قالت : « أقضيه على الرأس والعين »

فقال : « أريد أن أسترجع شوكار من بغداد الى هنا »  
فتغيرت سمعتها وقطبت حاجبيها ونظرت اليه شزرا وصاحت :  
« لله أنت من أمير عاقل ! أبعد ما ذكرته لك تعود فتسألنى استرجاع  
هذه المغنية من بغداد ، وقد قلت لك انها ليست هناك ؟ »  
فقال : « أين هى فى مصر ؟ » . قالت : « ولا فى مصر انها غير

موجودة في مكان . ألم يأتك خبرها ؟ »  
فلما سمع سؤالها أجفل وتحقق أنها عالة بما أصابها فصاح فيها :  
« لم يجئني خبر بسوء أصابها كما تقولين »  
قالت : « أنها لن ترجع إليك أبدا ، ولو علمت أنها ترجع لأعدتها  
على أعقابها بيدي ، وهل قدف بها الى تلك الديار غيري ؟ »  
فاعتدل في مجلسه واستغرب تصريحها وقال : « أنت أرسلتها الى  
هناك ؟ ما الذي كان يضرك لو بقيت هنا ؟ أنها لا تزاحك في نعمة »  
فنهضت وهي تشير بأصبعها اليه وقالت : « أنها تراحتني عليك  
يا ركن الدين ! » . وغصت بريقها وبان الهيام في عينيه  
فظننها تتقرب اليه تزلفا لغرض تريد أن يقضيه لها فقال : « بالله  
يا سلافة لا تطيلي تعذبي . اذا كنت تريدين مني خدمة أقضيها لك  
قضيتهما حبا وكرامة ، وإنما اطلب منك أن تساعدني في استرجاع  
شوكار »

فنظرت في وجهه نظرا المتفرس وقالت : « ويلي منك يا رجل  
ويا لشقائي ! أترامى عليك وأصرح لك بما في قلبي وأنت تصم أذنيك  
عني ، مع علمك أن أكبر أمرائكم يتمنى رضاي ؟ » . ثم أمسكت عن  
الكلام لأن الدموع أوشكت أن تغلبها وحولت وجهها عنه خجلا  
فأشفق عليها وقال : « اني مقدر تنازلك حق قدره ، وأشكرك  
عليه شكرا جزيلا ، لكنني طلبت منك خدمة أنت قادرة عليها . . »  
فقطعت كلامه قائلة : « اني رهينة امرئ في كل شيء الا في هذا .  
يهون علي أن أجعلك سلطانا على مصر ، وأما استرجاع تلك المرأة فلا  
يمكن ، ألم تفهم بعد ؟ »

وكان ركن الدين صاحب مطامع ، ولم يكن شديد التعلق بشوكار ،  
فكان التوقع فيما تعرضه عليه سلافة أن ينصاع لها ويستعين بها في  
تحقيق مطامعه ، لكنه بعد ما سمعه منها ضد شوكار أحس بميل جديد  
الى هذه سنيما أن أرسلها الى بغداد انما كان بسببه ، كما صرحت  
له الآن سلافة ، فأصبح في حيرة ، وأطرق يفكر فيما رآه وسمعه  
وفيما مر به في ذلك الليل من الفرائب ، واستعظم ما سمعه من تصريح  
سلافة وتحببها له ، وحدثته نفسه لحظة أن يسايرها لأنها قد تساعده  
في نيل مطامعه ، لكنه تذكر كتاب شوكار الذي جاءه في ذلك المساء وما  
فيه من دلائل التعلق به ، فأبى نفسه أن يساير عدوتها اللدودة

وبقى مطرقا يفكر وسلافة تنظر اليه وترامى حركاته وتكاد تلتهمجه  
بصرها ، ورفع نظره اليها فرأى في عينيه معنى لا يعبر عنه بالكلام ،

وأحسن بحرج الموقف ، ولم ير بدا من تأجيل الكلام الى فرصة أخرى  
لانه لفرط ما انتابه من التأثيرات المتضاربة أحس أن عقله قد أصيب  
بالكلال ، فأحب أن يؤجل الحديث ريثما يستريح وينظر بماذا يجيب  
فنهض وقد بانث الحيرة في عينيه ونظر الى سلافة وابتسم لها  
ابتسامة شكر وقال : « أشكر لسيدتي حسن ظنها بي فاني لا أستحق  
شيئا من هذا الالتفات ، واستاذنها في الانصراف » . قال ذلك وانحنى  
مودعا ومد يده ليصافحها

فأبعدت يدها عنه ، وخبأتها وراء ظهرها ، وتراجعت ولم تجب  
بفيها ، لكنها أجابت بنظرة أفصح من الخطاب أنها عاتبة آسفة لسوء  
حظها معه ، وأن قلبها لا يطاوعها على الفراق . فخطا خطوة أخرى  
نحوها وقال كالستعطف : « بالله يا مولائي ائدني في انصرافي السبلة  
فقد تعبت وأصبحت في حاجة الى الرقاد ... »

قالت وهي تهز رأسها : « الله ما أسوأ حظي ! اشكو لك غرامي  
وأنت تشكو حاجتك الى النعاس ؟ ! » . قالت ذلك وتحولت عنه  
ومشت خطوة ، ثم التفتت نحوه ورمته بنظرة كالسهم أصاب صدره ،  
وإن لم يؤثر فيه كثيرا وقالت : « سر يحرسك الله ، سر الى فراشك  
أيها الأمير ، ولا تظن فشلي هذا يذهب هدرا » . ودخلت مخدعها مسرعة  
وانصرف ركن الدين ، وقضى معظم الطريق وهو يردد كلامها  
ويفسر نظراتها ويعلل حركاتها ، وقد غظم أمرها في عينيه ولا سيما  
بعد أن تذكر ما سمعه عن نفوذها في بغداد ، وأصبح في خوف على  
شوكار منها ، ولم يبق عنده شك أن شوكار إنما أصابها ما أصابها في  
سبيلته فهو السبب في شقائها ، وأن وجودها في بغداد أصبح بعد هذه  
المقابلة أكثر خطرا . وخيل اليه أن سلافة لا تلبث أن تبذل جهدها في  
إيصال الأذى اليها بسببه ، فأحس بالتبعة التي تحملها بمجافاة سلافة  
لأنه سيعثها على تعمد الأذى لشوكار ، وشعر بقشعريرة وقف  
لها شعره

وكان قد دخل باب القلعة ودنا من غرفته ، ففتحها له الخادم وإضاء  
المصباح فأخذ في خلع ثيابه ، ثم وقع نظره على كتاب شوكار فأعاد  
قراءته فكان تأثيره في هذه المرة أشد من تأثيره الأول كثيرا ، وغلبه  
العطف على شوكار ، وابقن أنه لا يرتاح باله إلا اذا نجسها من ذلك  
الضيق ، وهو لا يقدر أن يمهد في هذا الأمر الى أحد ، ولا سيما بعد  
تهديد سلافة ، فأخذ يفكر في السفر الى بغداد

وبينما هو في ذلك اذ سمع أذان الفجر فتوسد الفراش التماسا  
للراحة ، وكان نومه مضطربا متقطعا ، ولم تبحر صورة شوكار من

خاطره لحظة . ولما نام رآها في الحلم حزينة باكية تعاتبه لانه شغل عنها بسلافة ، فأثر هذا الحلم في خاطره تأثيرا شديدا . ولما افاق من نومه ووطن عزيمته على الاخذ بناصرها

وأصبح في اليوم التالي ورسولها يبابه يطلب جوابه على كتابها ، فادخله اليه وسأله عن سفره الي بغداد وكيف يكون ؟ وكان ركن الدين قد سافر اليها مرة وعرف أهم طرقها وأحيائها ، ثم زوده بكتابه الي شوكار وبالع في اكرامه وملاطفته . فسأله الرسول اذا كان عازما على السفر الي بغداد

فقال : « سأنظر في ذلك » . وصرفه بعد أن عرف منه المكان الذي يجده فيه اذا سافر الي هناك

أما سلافة فلا تسلم عن غضبها لما لقينته من تردد ركن الدين لانها كانت تحبه من كل قلبها ، وكانت تحسب مكاشفتها اياه بحبها كافية لثجعله أسير هواها ، فاذا هو يتردد ويظهر ميله الي شوكار ، وهي لا تستطيع أن تتصور وجودها لانها تزاحها على حبه ، وكانت قد علقت به وهو لا يعلم ، وتحينت فرصة لمفاتحته في امرها ولكنها رأت شجرة اللوز اجتذبت له نفسها ، فكان ذلك في جلة ما حلها على مقاومتها ، وبلغها أمر خطبته شوكار فجعلت رسالتها الي بغداد تتضمن التخلص من الاثنين معا ، فأنزلت شجرة الدر عن العرش ، وأبعدت شوكار الي بغداد . وتقربت الي عز الدين لتفسيده ما بينه وبين شجرة الدر عدوتها ومناظرتها وأفلحت في ذلك ، ولم يبق لاتمام سعادتها إلا أن تسترضي ركن الدين ليكون لها

وكانت الاخبار تأتيها من بغداد متواصلة ، فوصلها في صباح ذلك اليوم خبر ما أصاب شوكار في بغداد ، فتسلحت به بحيث يقطع ركن الدين كل أمل في بقائها فيتحول اليها ، وعزمت على بذل جهدها في أسعاده وتقديعه ، ووطنت نفسها على الاكتفاء به ، فلما رأت منه ما رآته غضبت واتقلب حبها الي حقد ، وعزمت على مناواته ان لم يرجع الي صوابه ويسترضيها !

فلترك القوم في مشاغلهم بمصر وانتقل الي بغداد



## في بغداد

بلغت بغداد أقصى عمرانها في أيام المأمون ، حتى امتدت ابنيتها ويسايتها الى نحو ١٦٠٠٠ فدان . وقد كانت مدنا متلاصقة وهى واقعة في الجانب الغربى لنهر دجلة ولا تزال المدينة التى بناها المنصور هناك باقية بشكلها المستدير

اما في زمن روايتنا ، في القرن السابع للهجرة ، فقد تبدل حالها وانتقلت أكثر عمارتها الى الجانب الشرقى حيث قصور الخلافة . واحت مدينة المنصور ، وتدهورت حالتها الاجتماعية بعد أن كانت في القرون الاولى من بنائها أم المداين ومهبط التجارة ومجتمع العلماء والشعراء وموئل طلاب الثروة والجمال ، على أنها بعد أن ضعف شأن الخلافة فيها تسربت اليها الدسائس وقامت الفتن بين أهلها ، وأهمها الشقاق بين أهل السنة والشيعة ، فلم تكن تمضي سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في شأنه . وكانت هذه سنية فكان الضغط يقع غالباً على الشيعة ، وكانوا يقيمون في الكرخ والكاظمية وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم بمصالحها وتمهد اليهم في تدبير شؤونها

وكان هذا الشقاق سببا في سقوط بغداد ودخولها في حوزة التتر على يد هولاكو ، وذلك طبعى في تاريخ الدول . واذا تدبرت أسباب الانقلابات السياسية التى تنتقل بها السيادة من دولة الى دولة . وجدت معظمها يرجع الى انقسام أبناء البلاد فيما بينهم بالمشاحنات الدينية أو الاغراض السياسية حتى يستولى القنوط على الفئة الضعيفة اذا غلبت على أمرها فتستنجد بالفرعاء ليأخذوا بإنصارها . ثم لا يزالون يتحينون الفرص حتى تصير الدولة اليهم . وتكاد لا تجد انقلابا سياسيا في تلك العصور يخرج سببه عن نحو ما تقدم



وكان على دجلة جسران موصلان بين شرقى المدينة وغربها ، وكل

منهما مبنى من اخشاب مفروشة على سفن مستديرة الشكل، وأهمها منصوب بين حى قصر عيسى والرافقة ، ينتقل عليه الناس والدواب وكان على ضفاف دجلة في البر الشرقى قصور الخلفاء وأهم أبنية بغداد ، وأشهرها قصر التاج والقصر الحسنى ، والمدرسة المستنصرية التى بناها المستنصر بالله والد المستعصم بالله الذى تدور فى زمانه حوادث هذه القصة ، والمدرسة النظامية ، وقصر الريحانية ، وقصر الفردوس . وأقربها من طرف البحر الشرقى قصر لا اسم له كان يقيم فيه مؤيد الدين بن العلقمى وزير المستعصم ، وكان من أهل الكفاءة والدهاء ، ولكنه كان نصوحا مخلصا يرى ما فى الدولة من الاضطراب ويسذل جهده فى النصح للخليفة وتنبئيه الى ما يعود بالصالح عليه وعلى الدولة . وكان المستعصم ضعيف الرأى لكنه حسن الظن بوزيره فكان يصفى لنصائحه فى أكثر الأحيان

غير ان ذلك لم يكن ضامنا للخير متقدما من الخطر ، لان الراس اذا كان مختلا اضطربت سائر الاعضاء . ويغلب فى مثل هذه الحال ان ينقاد الى المتلقين وذوى الاغراض من أهل الدولة او العصبية ، فيفتنوا فرصة ضعفه ويعبثوا فى الارض فسادا لارواء مطامعهم ، وهو لا يسمع فيهم لوما ولا يصفى الى انتقاد

تلك كانت حال المستعصم فى ذلك الحين ، حتى أصبح العوبة بين ابدى اعوانه ورؤساء قصوره ، لانه كان منغمسا فى الترف شديد التكلف بالهوى واللعب وسماع الاغاني ، لا يكاد يجلسه يخلو من ذلك ساعة . وكان ندماؤه واعوانه منهمكين معه فى الملاذ لا يرجون له صلاحا وزاد الطين بلة ان هولاء التترى حفيد جنكيز خان كان قد أسس دولة عرفت بدولة ايلخان او مغول الفرس ، فلما استقر له الامر فى فارس طمع فى بغداد واخذ يستعد للحملة عليها ، فاتفق انه وهو يحارب الاسماعيلية فى فارس ويحاصر قلاعهم كتب الى المستعصم يستنجده ، واراد هذا ان ينجده فمنعه امرؤه من ذلك مخافة ان يكون قصد هولاء الخديعة لتخلو بغداد من الرجال فيملكها بسهولة . ثم فتح هولاء تلك القلاع وبعث الى المستعصم يعاتبه فاشار عليه الوزير ابن العلقمى ان يسترضيه بالهدايا والاموال فاطاعه واخذ فى تجهيز هدية من الجواهر والممالك والجوارى ، فاعترض الداودار (قائد الجند) وطعن فى نية الوزير وقال : « انه يروم تسليم الدولة الى التتر » . فكف الخليفة وأرسل هدية يسيرة . فغضب هولاء وبعث الى الخليفة انه لا يرضيه الا اذا أتى هو بنفسه للاعتذار أو ان ينيب عنه الوزير أو الداودار ، فأرسل اليه أناسا لم يقبل هولاء نيابتهم واتخذ ذلك ذريعة للحملة على بغداد

ولم يدرك المستعصم حقيقة غرضه ، ووقع ابن العلقمي في حيرة من أمره فكان يكثر التفكير في مصير هذه الحال ، ويرى الخطر محققا بالدولة فينصح ويحذر بلا جدوى . وكانت رسله ولا كوتائبه سرا تحمل اليه كتب التحريض على الخروج اليه او مطاوعته في تسليم بغداد ويعدده الوعود الكثيرة . وهو يتردد ويصبر لعل الخليفة يصغي لنصحه ، وكان اذا لقي المستعصم وخاطبه في ذلك وعده أن يعمل برأيه ثم لا يلبث بعد أن يفارقه حتى يرجع عن وعوده بما يدسه بعض الاعوان من الدسائس على ابن العلقمي ويتهمون به بالخيانة لأنه شيعي

وكان كبار الشيعة من الجهة الثانية يحومون حول ابن العلقمي بشكون اليه ما يقاسونه من الاضطهاد والعسف من ابن الخليفة ، حتى أصبحوا لا يأمنون على أموالهم ولا على أعراضهم ، وهم يقيمون في الجانب الغربي من بغداد وأكثرهم في الكرخ والكاظمية ، وابن العلقمي يخفف عنهم ويعددهم خيرا ، لكنه كان يتجنب الاجتماع بهم جهارا خوفا من وقوع الشبهة عليه ، فلم يكن يأذن لأحد منهم أن يزوره الا خلسة ، لأن جواسيس المستعصم مبعوثون حوله يعدون عليه انفاسه



أصبح ابن العلقمي ذات يوم وقد عظم الأمر على نفسه ، ونفر من العمل وهو لا يرى فيه مصلحة له ولا للدولة ، فاعتكف في منزله ، وكان في قصره شرفة مرتفعة تطل على دجلة والجسر والرافضة والكرخ جميعا ، كان قد بناها لهذا الغرض ، فصعد اليها وأمر الخدم ألا يزعموه كأنه مريض لا يقدر أن يقابل أحدا

صعد الى الشرفة وقد التف بعباءة خفيفة واعتم بعمامة صغيرة ، وكانت الشرفة كالمصطبة أو المنطرة عليها الوسائد والطنافس وبعض أدوات التسلية لمن شاء من زائريه ، وبينها رقعة من شطرنج موضوعة على وسادة فجلس بجانبها . وكانت هذه اللعبة كثيرة الشيوع في بغداد تلذ لأصحاب العقول المفكرة ، ولا سيما الذين يهتمون بالسياسة ويحتاجون الى الحيل العقلية ، وهو يومئذ في تردد واضطراب ، فأخذ ينظر في تلك الرقعة ويتسلى بنقل أحجارها على سبيل التجربة فلم تجد نفسه راحة في ذلك .

فانتقل الى دكة في صدر المنطرة تطل على بغداد ، وكان الجو صافيا فالقى نظره على تلك المدينة التاريخية يخترقها نهر دجلة المبارك ، وعلى صُفّتيه العمائر من القصور والمدارس والمستشفيات والمساجد والحمامات والبساتين والترع والجسور والطرق والدروب والأسواق

مما يشغل الخاطر، واستحضرت ذاكرته تاريخ بناء هذه المدينة وسبب بنائها منذ خمسمائة سنة ونيف ، ومن توالوا عليها من الخلفاء ، وما تقلب عليهم من الاحوال ، وما بلغت اليه في ايام الرشيد من اسباب الحضارة ، يوم كانت عاصمة الاسلام في اقطار الارض ، تجبى اليها الاموال من معظم العالم المعمور ، من تركستان الى المحيط الاطلانتي ، ويتوافد اليها ملوك الارض يخطبون ود صاحبها ويتزلفون اليه

ثم صدمته فجأة نكبة البرامكة وما كان من ذلهم بعد عزهم وهم اصحاب الفضل الاول في تلك الحضارة ، وما عقب ذلك من الفتنة بين الامين والمأمون ومن قتل في سبيلها من الانفس . . الى آخر ما حدث من تقلبات السياسة حتى صارت الدولة العباسية الى التقهقر

وبينما هو يفكر في كل هذا اذ سمع لفظا في داره كأنه لجاج وجدال، فأصغى فسمع رجلا يطلب ان يقابله والخدم يقولون له : « ان مولانا الوزير في شاغل عن المقابلة »

فاستأنس بذلك الصوت وظن انه يعرف صاحبه ، فجذب جبلا بجانبه متصلا بالطبقة السفلى من القصر فدق جرسا هناك — وهى اشارة الاستدعاء عندهم — فجاءه غلام من غلمانه ، فسأله سبب الضوضاء فقال : « ان رجلا غريبا يطلب ان يرى مولانا ، ولم يصغ الى قولنا »

فقال : « قد سمعت صوته وأظننى عرفته ، لابس من ادخاله »

فعاد الغلام بعد قليل ووراءه رجل عليه ثياب الفرس ووجهه فارسي، فحالما رآه مؤيد الدين عرفه فرحب به وقال : « مرحبا بسحبان »

فاكب سحبان على يد الوزير يهم بتقبيلها فمنعه الوزير من ذلك وضافحه وأجلسه بجانبه وأمر الخادم بالانصراف وقال : « منذ متى جئت ؟ » . قال : « جئت بفداد مساء أمس ياسيدي » . قال : « من أين أتيت ؟ » . قال : « من القاهرة » . قال : « أذكر انى رأيتك هنا من عهد غير بعيد »

قال : « نعم يا مولاي كنت هنا وسافرت ثم عدت ، حين نفدت بضاعتى لأشترى سواها ، وتعب السفر لا يهمنى كثيرا »

فابتسم مؤيد الدين وقال له : « انقطعت للتجارة يا سحبان ؟ »

فضحك ضحكة اغتصابية وقال : « وهل ترى فائدة من سواها أيها الوزير ؟ »

فأدرك ابن العلقمى انه يشير الى الوزارة التى هى عمله فقال : « صدقت ، لا فائدة من سواها ، ولا خير في أعمال الحكومة ، حتى



الوزارة فان صاحبها متعب القلب بلا فائدة ، مضت ايام الوزارة الحقيقية و ... » . وسكت كأنه خاف التصريح بما في خاطره ، فقال سبحان : « الوزارة ارقى مناصب الدولة ، والوزير هو صاحب الحل والعقد ، لكن يشترط أن ... » . وبلغ ريقه وسكت وهو يخرج منديله ليتشأغل به

فقال مؤيد الدين : « ماذا يشترط يا صاحبي ؟ هل تحسب وزير اليوم كما كان في صدر هذه الدولة ؟ » . فقطع سبحان كلامه قائلا : « بل ينبغي أن يكون اليوم أقدر منه في تلك الايام لضعف الخلفاء »

فهز مؤيد الدين رأسه وقال : « ولكن هؤلاء الضعفاء لا يسمعون نصيحة ، لأنهم يصغون الى خدمهم وخصيانهم »

قال : « اليس عندك علاج لهذا الضعف ياسيدي ؟ » . قال ذلك وبان الجذب في عينيه . فقال مؤيد الدين : « وأى علاج تعنى ؟ » . قال : « اعنى علاج هذا الضعف ، هذا الرجل عضو فاسد ، والجراح يشر بقطع العضو الفاسد لئلا يجر الفساد الى سائر البدن » . وحلق في وجه الوزير يستطلع رأيه

فاكبر ابن العلقمي هذه الجسارة بين يديه ، فنظر اليه نظر المنكر العائب . وقبل أن يقول كلمة تصدى سبحان وقال : « انك تعد قولي جسارة او وقاحة ، سمع كما تشاء ، ولكننى أقول ما أشعر به ، ونحن مشتركان في الأمر ، وببئسنا مفاتيح النصر لا يتقصنا غير الحزم .. تشبه اذا شئت بخلفاء صدر هذه الدولة وكفى »

فالتفت مؤيد الدين الى ما حوله كأنه يحاذر أن يسمعها أحد ، ثم نظر الى سبحان قائلا : « لا أوافقك على ما تقول ، ولم أفهم ما تشير اليه »

قال : « أجلك عن أن يفوتك مرادى ، ولكنك ترى من السياسة أن تتجاهل . انى أشير الى ما فعله الرشيد بجعفر ، ألم يقتله ويقتل البرامكة لأنهم شيعية ، ولانه خاف أن يكون منهم سيوء على سلطانه . وقد استأجروا بقتلهم الى دولته والى نفسه . أما أنت فاذا انتقمتم من الشيعة بهذا الحزم فانك تنجى هذه البلاد من الخراب »

فاستعظم مؤيد الدين هذا التصريح وقال : « دعنا من هذا الكلام يا صاحبي اذ لا فائدة منه ، وارى أنك متسالم من أمير المؤمنين أو بعض أهله فأردت ... »

فقطع سبحان كلامه قائلا في تائر ظاهر : « كلا . لا أقول ما أقوله عن غضب أو نقمة ، وليس بينى وبين هؤلاء علاقة شخصية ، لكننى غضبت لقومى وملتى ، غضبت للنفوس التى تقتل والأعراض التى

تمزق لا شيء سوى حبها للامام على وسائر اهل البيت «  
ولم يكن مؤيد الدين اقل منه غضبا ونقمة لكنه كان حذرا متانيا  
فقال : « خفف من حديثك يا سحبان ، ودعنا الآن من هذا الحديث .  
ان الامور مرهونة بأوقاتها »  
قال : « لا ارى وقتا انسب من هذا ، ان هذا الامر اذا كان مرهونا  
بوقت فهذا هو وقته . . اسألنى وأنا اجيبك »  
قال : « لا اجهل ما يجول في خاطرك ، لكننى لا ارى هذا وقته »  
قال : « لا اظنك فهمت مرادى تعبانا ، عندى مشروع آخر غير  
الذى تعرفه ، غير هولاءكو . . »  
فلما سمع الوزير هذا الاسم أجفل لانه ما برح نصب عينيه منذ  
أشهر ، وهو سبب تردده ، فقال : « ما هو ؟ »  
قال : « أشكر لك اصغافك يا سيدى ، الامر الذى عندى يوصلنا  
الى المطلوب رأسا ، أعنى أننا نحى الدولة العلوية فى بلد ظل مقر  
العلويين نحو مائتى سنة »  
فقال : « اظنك تعنى مصر ، أين نحن منها ؟ وقد تسلط عليها  
الأتراك و . . »

قال : « أنا أعلم منك بحالها لأنى جئت من هناك أمس ، وأنا لا أسافر  
وأجىء للتجارة ، لكننى أريد حياة قومية ونصرة الأئمة المظلومين ، أنا  
فى مصر منذ أعوام ، وقد عرفت دخائلك ، وهى فى يدي كما أشاء »  
فضحك ابن العلقمى وقال : « ما أوسع أحلامك وما أكثر أوهامك !  
كيف خيل لك الفرور هذا ، حتى توهمت مصر فى قبضة يدك ، وهى  
فوق ذلك سنية المذهب ورجال دولتها كلهم من الأتراك السنيين ؟ »  
قال : « أنا أعلم ذلك ياسيدى . ولكنهم منقسمون على السيادة ،  
وطالب السيادة الآن رجل حازم ناظم على السلطان الحاضر فى مصر  
لانه ساءه بأمر له ارتباط بقلبه فهو يبذل جهده فى غرضنا ، وهو ناظم  
أضا على خليفتك هذا لانه أخذ خطيبته منه ، ولا يلبث أن يأتى  
لانتقام ، فإذا ساعدناه على قتل هذا الخليفة وبايعناه سلطانا على مصر  
أطاعنا فى اعلان الخلافة الفاطمية بمصر ، فنعود الى عزنا ونتخلص من  
هؤلاء الظالمين . . وأبرقت أسرته كأنه نال ذلك فعلا ، فقد كان من  
أهل الخيال وأصحاب الأوهام الذين يستسهلون الصعب ويتوهمون  
وقوع المحال ، اذا تصور أحدهم أمرا يتمنى حدوثه تلذع الى تصديقه  
بأوهى الأسباب وأغضى عما يعترضه من العقبات أو يحول دون  
الحصول عليه من الموانع الطبيعية ، وهذه الفئة من الوهميين كثيرة ،

وبخاصة في بلاد المشرق . ولعل الفرق بين النجاح والفشل انما هو في تقدير الحقيقة حق قدرها والاحتياط للحوادث قبل وقوعها

أما مؤيد الدين فانه كان من أهل التدبير والحزم ، ينظر في العواقب ويتدبرها ولا تأخذه الأوهام ، ولولا ذلك لم يصل الى منصب الوزارة في دولة مذهبها غير مذهبه وبين قوم يكرهون الشيعة ويفتكون بهم . فلما سمع كلام سحبان استخف برأيه ، وبخاصة لأن ابن العلقمي لم يتطوح بمطامعه الى هذا الحد لعلمه بمجز الشيعة عن النهوض ، ولكنه كان يكتفى بأن يبدل خليفة بخليفة ، فلم يشأ أن يفتح سحبان بهذا الامر وعمد الى الاختصار في الحديث فقال : « سننظر في ذلك في وقت آخر »

فأحس سحبان بما يضره من احتقار رأيه فقال : « يظهر انك لم تكثر لقولي ، أو لعلك استبعدته ، ولو عرفت الأسباب التي عندي لوافقتني »

قال : « نعم يا صديقي ، رأيت مطعمك بعيدا يكاد يكون محالا »  
وكان سحبان يحترم رأي مؤيد الدين فقال : « اذا كان رأيي ضعيفا فاسمعني رأيا خيرا منه ، أم أنت ترى أن نبقي في هذا الدل الى الموت ونحن سكوت ؟ »

قال : « كلا . لا ينبغي أن نبقي كذلك ، لكن علينا أن نفكر ونقيس ونحتاط لا أن نرمي الكلام على عواهنه ونطلب الحال »

قال : « أذن ياسيدي ماهو الممكن من ذلك ، وماهي الطريقة للنجاة ؟ »  
قال : « لقد أخرجتني واضطررتني للكلام يا سحبان ولم أكن أحب التصريح بما في خاطري الآن ، فاعلم اننا نحن الشيعة لا ينبغي لنا أن نطمع في إعادة دولتنا اليوم لأن الأسباب لا تساعدنا على ذلك ، ولكن لا بد من أن يأتي يوم يتمكن فيه أبناؤنا منه . أما الآن فيكفينا تغيير هذا الخليفة الضعيف المشتغل باللهو والفناء بخليفة عاقل حازم يتصفنا . هذه هي الخطة التي يجب أن نضعها نصب أعيننا »

فأطرق سحبان وهو يعمل فكرته ، وقد استصغرنفسه واستضعف رأيه ، وكان مع قربه من التسوهم سريع القلب سهل الانقياد ، فاستصوب رأي ابن العلقمي وقال : « صدقت ياسيدي انك في الحقيقة وزير مدبر عاقل . قل لي ما هي المعدات التي أعدتها لتنفيذ هذا المشروع ؟ »

فنهض مؤيد الدين وهو يظهر أنه مل الحديث ، أو أنه لا يريد

التصريح بأفكاره لسحبان ، ووجه التفاتة الى جسر بغداد القائم على السفن المستديرة فإذا هو يعج عجيجا بالناس على غير المعتاد ، وقد تراحت عليه الأقدام ، وأكثر المشاة يركضون كالهاربين من حرب ، فلم يستطع أن يتبين الوجوه ، لكنه توسم في الامر شيئا مهما ، والتفت نحو سحبان فراه أكثر منه دهشة ، وكان أحد منه بصرا فصاح : « ألا ترى يا مولاي ؟ ألا ترى ؟ هؤلاء أجناد الخليفة لعلمهم عائدون من حرب يجرون وراءهم الأسرى والسبايا » فقال وقد أجفل : « وإى حرب ؟ »

قال : « لا أدري ، ولكننى أرى جندا وهذه راياتهم امامهم ، وإذا صدق ظنى فأنى أرى راية الداودار في مقدمتها ، وقد أذكرنى ذلك بما كنت أراه من تعدى هؤلاء الأجناد على قومنا في الكرخ والكاظمية » فحلق مؤيد الدين في المازة فلم يستطع أن يتحقق شيئا ، وإذا هو يسمع ضوضاء في داره أشبه بالعويل منها بالصياح ، فأطل من نافذة تشرف على فناء الدار فرأى جماعة من النساء يبكين ويعولن وقد تلطخت أثوابهن بالدماء والتراب ، ومعهن شيخ أحنى ظهره الكبير وهو يتوكأ على عكاز ويكي ، فتغطر قلبه لهذا المنظر ، ولكنه لم يعرف القوم ، وكان سحبان واقفا بجانبه ينظر الى الدار ، ولم يكذب يتفرس قليلا حتى صاح : « وإبتاه ! »

فأجفل ابن العلقمى وقال : « من هذا ؟ لعله أبوك ؟ »

قال : « هو أبى ياسيدى ، أمهده مقيما في الكرخ بسلام وأمان ، ماذا جرى له ؟ » . قال ذلك واستأذن في النزول ، فنزل ومؤيد الدين في إثره

ولم يكذب سحبان يصل الى الدار حتى سمع أباه يقول : « أين الوزير ، أين مؤيد الدين ؟ » . ولما وقع بصره على مؤيد الدين صاح فيه : « أنت وزيرنا ويصيينا ما أصابنا ؟ إذا كان ذنبنا أننا نصب أهل البيت السكرام فقد قبلنا العقاب على الرأس والعين ، والله يجزى كل نفس بما فعلت »

وكان سحبان قد وصل الى أبيه وقال له : « أبى ماذا جرى ، ماذا أصابكم ؟ . . كيف خرجتم من البيوت على هذه الصورة ؟ »

فالتفت الشيخ الى ابنه ، ولما تبينه القى عصاه وأكب عليه وقبله وأخذ في الشهيق والبكاء وقال : « ولدى سحبان ؟ أنت هنا ؟ متى جئت ؟ أه باليتك جئت عندنا قبل مجيئك الى هنا . لا بل أراك أحسنت بابتعادك عنا ثلثا تصاب بما أصيب به اخوتك »

فاشعر بدنه وقال : « اخوتي ! ماذا أصابهم ؟ من فعل بكم ذلك ؟ » .  
قال : « ألا تعلم ممن تأتي مصائبنا ؟ أنها تأتي من ... » . والتفت حوله  
وهو خائف وعيناه يفشاهما الدمع وقال : « أنت تعلم ممن ... »  
فقال : « لعل هؤلاء الجنود المارين على الجسر كانوا عندكم »

فصاح : « اننا هاربون منهم ، وجئنا الى هنا نلتجئ الى مولانا  
مؤيد الدين » . والتفت الى الوزير وقال : « آه ياسيدي ، انقذنا  
من هذا العذاب . اخرجنا من هذا البلد » . والتفت الى سحبان  
وقال : « انك تفر من هذه المصائب كل سنة وتنجو بنفسك وتتركنا  
واخوتك في هذا الخطر . يا الهى متى نخلص من هذا العذاب ؟ »

فأجابه سحبان وهو يرتعد من الغضب : « عن قريب ان شاء الله » .  
والتفت الى مؤيد الدين فرآه واقفا يسمع ويتجدد ، وقد أومأ الى  
النساء أن يدخلن دار الحريم ، ونظر الى الشيخ وتلطف في خطابه  
وقال : « تفضل يا عماء واجلس هنا ، خفف مابك وقص على ماجرى »

قال ذلك وقعد واقعد الشيخ بين يديه ، وسحبان واقف لا يريد  
أن يجلس من شدة الغضب ، فأخذ الشيخ يقص حديثه فقال : « أنت  
تعلم يا مولاي حالنا مع هؤلاء القوم ، وكيف بناوثوننا ويعذبوننا ونحن  
صابرون ننظر الفرج . لكنهم لم يرتكبوا مثل ما ارتكبه هذه المرة  
من القتل والسبي ، فانهم لم يبقوا على الاموال والأعراض » . وغص  
بريقه وشفتاه ترتعشان فتشاغل بالبحث عن مصاه

فتائر مؤيد الدين من منظره ، ونظر الى سحبان فرآه يمسح عينيه  
ويخجل أن يراه الناس باكيا ، فتجدد وأخذ يخفف عن الشيخ فقال :  
« يا عماء ، هون عليك لكل شيء نهاية والله مع الصابرين . ثم ماذا  
جرى ؟ » . قال : « لا تسألني يا بني عما جرى فانه يفتت الاكباد ،  
يكفي ما ترونه » . وجعل يمسح عينيه ، وأتلمه ترتجف ، فأجابه  
سحبان : « قد تمودنا هذه الشدائد منهم ولكن ... » . فقاطعه أبوه  
قائلا : « لا . لا . لا . ها انذا قد أدركت الشيخوخة في هذا البلد مع  
هؤلاء القوم ، وشاهدت نكبات عديدة ليس فيها واحدة مثل هذه .  
كانوا يعتدون على بعض المارة أو يتهمون بعض الرجال بأمر بسوفون  
به لأنفسهم مصادرة ماله أو أهانته ، أما الآن فانهم - خلوا المنازل بلا  
حجة ولا سبب ، وداسوا مخادع النساء ، وارتكبوا الفاحشة وقتلوا  
الاطفال . دعني لم أعد أستطيع الكلام ، ولا أبالي اذا مت . وانما اطلب  
من الله أن يقيني حيا لأرى زوال هذه الدولة » . ثم أسرع تنفسه  
وأوشك أن يغمى عليه ، فرشوه بالماء ، وبادر ابنه اليه فأعانه حتى  
ادخله غرفة أستراح فيها ، وذهب توا الى دار الحريم وكلف بعض

الخصيان أن يجمعه بأخته ، وكانت مع النساء . فجاءت وهي تبكي وتندب وقد قطعت شعرها ، فقال لها : « أخبريني يا صفية ماذا جرى لك ؟ هل أصيب أحد منكم بسوء ؟ أين أخوتك ؟ »

فضربت كفا بكف وقالت : « لا أدري هل هم أحياء أم أموات ؟ . وبنوهم أين كنت فلم تشاهد المذابح ؟ أنهم دخلوا مخدعي وأوشكوا أن يمسوني أعوذ بالله . . »

فاقشعر بدنه من هذا التعبير ، ولم يربدا من التجلد بين يديهما فقال : « الله منتقم يا أخية ، وسوف ينتقم من القوم الظالمين » . وتحول إلى الدار فلم يجد مؤيد الدين هناك ، فسأل الخدم عنه فقالوا أنه في حجرته ليس ثيابه ، فلم أنه عازم على الذهاب إلى قصر الخليفة في هذا الشأن ، فسر أنه غضب وود ألا يفلح في مهمته لعله يمسلم بمشورته ويعزم على التخلص من هذه الدولة

وذهب إلى أبيه فراه قد صحا واستراح ، فجلس إليه وأخذ يخفف عنه ويسأله عن تفصيل ما جرى ، فلم يردد إلا دهشة وغضبا لما سمع . لكنه أخذ يهون على أبيه بأنه سينتقم له ، وأن الله لأبد أن يبيد الظالمين ، ونحو ذلك من عبارات التعزية ، وقد تعودها الشيعة في بغداد لكثرة ما توالى عليهم من الأحن



لبس مؤيد الدين قلنسوته وقباءه الأسود ، ثم ركب بقلته إلى قصر التاج ليرى الخليفة ويشكو إليه ما فعله جنده مما لا يحتمل ، والفلان يركض بين يديه . فمر بالمدرسة المستنصرية والقصر الحسنى حتى وصل إلى قصر التاج ، فدخل بسائنيه والخدم يوسعون له . فلما وصل إلى بابه الأكبر ترجل ودخل مسرعا ، والغضب باد في محياه ، حتى أنه لم يحسن رد التحية على من لقيه في طريقه من الخاصة

فلما بلغ باب العامة مشى الحرس بين يديه ، فسأل صاحب الباب عن الخليفة فقال : « أنه جالس في منظره المسناة ، فهل أستاذن لولاي الوزير ؟ » . قال : « هل هو وحده هناك ؟ » . قال : « عنده بعض الخاصة والمقنين » . فشق عليه ذلك لأنه طالما فكر فيه وتكدر منه فقال له : « أستاذن لى عليه ، أو قل له إنى أحب لقاء أمير المؤمنين حيثما يشاء »

فذهب الفلام وعاد وهو يقول : « لا يرى أمير المؤمنين بأسا من دخولك إلى المنطرة » . فلم تمجبه هذه الدعوة لأنه كان يجب أن يراه



« وأشار الخليفة المستعصم إلى وزيره «وَيْدَ الدِّينِ .  
 ابنِ الملقمِ قائلاً : مرحباً بوزيرنا الميام »





على حدة ، لكنه لم ير بدا من الطاعة ، فدخل من دهليز الى دهليز ،  
والخصيان يوسعون له حتى أطل على المنظرة ، وهي كالعريش أو  
( الكشك ) تشرف على دجلة ، فوقها قبة من الخشب مزخرفة بالنقوش  
والتذهيب الجميل . وأرض المنظرة مفروشة بالبسط الثمينة عليها  
الرسوم البديعة ، وفوق البسط الوسائد المطرزة ، وفي وسط المنظرة  
مائدة عليها ألوان الفاكهة والحلوى ، والمستعصم في صدر المكان قد  
اتكا على مرتبة عالية كالسرير ، وعليه ثوب أبيض مذهب يشبه القباء ،  
وعلى رأسه قلنسوة مذهب مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية  
القيمة المتخذة للباس الملوك ، وكأنه يتعمد بذلك تقليد زى الأتراك ، وكان  
المستعصم أسمر اللون مسترسل اللحية ربعة القوام لا بالطويل ولا  
القصر ظاهر الحياء لين الكلام سهل الأخلاق ، إلا أنه ضعيف البطش  
قليل الخبرة بأمور المملكة مطموع فيه . وبين يدي المنظرة دجلة تجري  
وفيه الزوارق المعدة لركوب الخليفة متى شاء

فاستعاذ مؤيد الدين من هذه المقابلة ، وود لو أنه لم يأت في تلك  
الساعة ، لكنه لم يسعه إلا القاء التحية بالاحترام اللائق ، فأشاز إليه  
المستعصم أن يجلس على وسادة بالقرب منه وقال : « مرحبا بوزيرنا  
الهام »

فتأدى في الجواب وتقديم الاحترام ، والتفت الى الحضور فلم يجد  
بينهم من يحترم مجلسه أو يعتد بوجوده ، وإنما هم طائفة من خاصة  
الخليفة العائشين في داره ، وقيم القصر ، وأستاذ الدار ، ويعرف  
بالصاحب ، وله قدر كبير عند الخليفة ويدعى له على المنابر بعد الدعاء  
للخليفة ، وقلما يظهر للعامة ، اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار  
ومراقبتها والتكفل بها وتفقدتها ليلا ونهارا

وما كاد الوزير يجلس حتى أشار الخليفة الى المغنى أن يعيد ما غناه ،  
وراح يظهر طربه الشديد ، متجاهلا ما يقتضيه منصب الخلافة من  
الوقار ، وكان أعوانه يعرفون ذلك فيه فيعده بعضهم لطفًا وظرفًا ، وبعده  
الآخرون ضعفا وتهاونًا ، وهذا هو رأى مؤيد الدين فيه ، على أنهم  
اجعوا على حسن طوية الخليفة ، ولعل ذلك من أسباب ضعفه التى  
جعلت سبيلا لأرباب الدسائس اليه



كان مؤيد الدين يسمع الفناء وهو مطرق يفكر فيما جاء من أجله ،  
وينتظر أن يسأله الخليفة عن شأنه . فلما أتم المغنى دوره التفت

المستعصم الى الوزير وقال : « هل سمعت اشجى صوتا وارق نغما ؟ ان هذا اللحن يطربني كثيرا ، وهناك لحن آخر قريب منه لم اجد من يجيده في بغداد ، وقد بلغني عن مغنية في دار سلطان مصر تجيده فبعثت في استقدامها لكنها لم تصل الى » . قال ذلك وسكت وقد انقبض وجهه ، ثم استطرد قائلا : « وكنت معتزما ان ابعث اليك منذ ايام لاخبرك بذلك ، واستعينك في البحث عن هذه المغنية لاني على ثقة من انها وصلت الى بغداد ، لكن بعض اللصوص اخذوها من الركب الاتي بها من مصر ، فهل تبحث عنهم ؟ »

فاشار مؤيد الدين مطيعا وقال : « لا بد من البحث عن كل لص ومعاقبته ، اذ لا يليق ان يتجسرا احد على جريمة في ايام مولانا امير المؤمنين ابد الله » . واحب ان يتطرق الى ماجاء من اجله ، فتصدى له استاذ الدار وقال : « ان تجرؤ اللصوص على خطف مغنية محمولة لمولانا امير المؤمنين الامر لم يسمع بمثله ، وهو يدل على ضعف سلطة الحكومة وقلة هيبتها في عيون الناس ، وكان المرجو من الوزير حفظه الله الا يترك سبيلا الى مثل ذلك »

فوقع هذا الكلام وقوع السهم في قلب مؤيد الدين ، ولم يطق صبرا على السكوت عنه ، وعلم ان الاستاذ الخصى يريد ان يظهر لدى مولاه في مظهر الغيور على مصالح الدولة ، فاستقل ذلك منه ، وعده جسارة خارجة عن حدود اللياقة في مجالس الخلفاء ، فالتفت اليه وقال : « صدقت يا استاذ ، لا ينبغي ان يقع مثل ذلك ، وتبعته تلقى على الوزير اذا كان الامر راجعا اليه ، فان ارواحنا فداء امير المؤمنين في اللدب عن الدولة وبذل الجهد في طاعته ، ولكن هذه الامور وامثالها تقع احيانا ولا حيلة للوزير في دفعها » . ثم حول بصره الى المستعصم وقال : « وكثيرا ما يقع هذا ونتلافاه بدون ان يبلغ الى سماع مولانا امير المؤمنين ، حتى الجند فانهم يرتكبون امورا لا يليق بهم ارتكابها ، ولا ادري هل يفعلون ذلك من تلقاء انفسهم » . قال ذلك وتغير وجهه ، وظهر للخليفة انه يحمل شكاة يريد ابصارها فقال له : « لا ينبغي ان يفتح شيء من ذلك الا باذن منا او من وزيرنا او من استاذ دارنا . وهل وقع شيء من هذا القبيل قريبا ؟ »

قال الوزير : « ارفع الى سمع مولاي امير المؤمنين ان جماعة من اهل الكرخ اتوني السليمة وفيهم الشيوخ والنساء يكون ويندبون ، وقالوا ان شرذمة من الجند نزلوا عليهم ، ونهبوا منازلهم وقتلوا من وقف في طريقهم واركبوا الفاحشة وغير ذلك »

فتصدى استاذ الدار وقال وهو يهز رأسه هز الاستهزاء : « اهل

الكرخ ؟ اهل الكرخ تعودوا هذه الشكاية فلا يمضي عام او شهر الا  
سمعاها منهم »

فاستقبح مؤيد الدين تعرضه ووقاحته واستغرب اقتراضه فقال  
وهو يخاطبه : « تعود اهل الكرخ الشكوى لان الجند تعودوا ان  
يؤذوهم و... »

فقطع الاستاذ كلامه وقال : « وان لم يؤذوهم ، انهم يجسبون  
الشكوى . هذه عادة الشيعة » . ونظر الى الحضور وضحك ضحك  
الاستخفاف

فائر ذلك في خاطر ابن العلقمي تأثرا سيئا جدا ، وحول وجهه عن  
الرجل وهو يقول : « لم اكن اظن اجدنا يجسر على هذا القول في حضرة  
مولانا امير المؤمنين » . وسكت

فصلي المستعصم للكلام وقال : « لا استحسن ما جرى بينكما ،  
ولا حق للاستاذ ان يتكلم بهذه اللهجة ، فاذا اشتكى اهل الكرخ او  
غيرهم فعلينا ان ننظر في شكواهم وننصفهم » . ووجه خطابه الى  
مؤيد الدين وقال : « ماذا جرى ايها الوزير ؟ »

فاتجه هذا نحو الخليفة وقال : « بلغني يا مولاي ان شرذمة من الجند  
سطت على الكرخ في هذا الصباح وامعن في اهله قتل ونهب . وقد  
رايت جماعة من المصابين وفيهم الشيوخ والنساء والاطفال فلم اشأ ان  
افعل شيئا قبل ان استطلع رأي مولاي »

فقال الخليفة وهو يظهر الاهتمام : « ان هذا منوط بالداودار فائد  
الجند ، فينبغي ان نسأله عما بعثه على ذلك ، لعل له علرا » . وصفق  
فجاء الحاجب فأمره ان يستقدم الداودار حالا

وعاد الخليفة فأشار الى المعنى ان يعود لغناؤه ، واقترح عليه لحنا  
غناه وهو يعزف على العود ، فطرب الجميع ، الا ابن العلقمي فانه كان  
يغلي من الغضب وهو يتجلد

وبعد قليل جاء غلام وقال ان الداودار بالباب ، فأمره الخليفة ان  
يذهب به الى دار العامة ينتظر حضوره . ثم نهض وأشار الى الحضور  
بالانصراف ، وأومأ الى الوزير ان يتبعه ، فسار في اثره نحو دار  
العامة ، وهي قاعة الاستقبال الخاصة بالاعمال

ودخل الخليفة أولا غرفة الالبسة ، وجاء صاحب الثياب فالبسه  
ما تعود لبسه اذا جلس لمقابلة الناس : العمامة الكبرى والحبة وغيرهما .  
ثم اقبل على دار العامة من باب داخلي ، وهي مفروشة أحسن فرش  
بالستائر والتمازق والارائك ، يقلدون بها ما كان من اسباب البذخ في

صلى الدولة العباسية . فلما دخل الخليفة القاعة جلس على سريره ، وأومأ الى ابن العلقمى أن يقعد ، ثم أمر الحاجب أن يدخل الداودار . وكان ابن العلقمى قد سرى عنه ، فدخل الداودار وألقى التحية ووقف متأدبا فقال له الخليفة : « يقول وزيرنا حفظه الله أن الجند سطوا على الكرخ وقتلوا ونهبوا . هل أنت عالم بذلك ؟ » . قال : « نعم يا مولاي » . قال : « وتقول نعم ؟ وكيف أذنت بوقوعه ؟ »

قال : « فعلته بأمر من مولاي الأمير أبى بكر نجل مولانا أمير المؤمنين » . قال : « إذا قال لكم أحمد ( أبو بكر ) اقتلوا الناس قتلتموهم بلا سبب »

قال : « لم أسمع بأمر الجند الى الكرخ بلا سبب ، لكن مولاي أبى بكر قال ان جماعة من أهل الكرخ خطفوا جارية من جواريه وخبأوها عندهم ، فذهبت للبحث عنها عند صاحب الشأن فمنعونا من الدخول وجردوا علينا السلاح ، فأمرنى الأمير بالدفاع والتفتيش ، وقد فعلت » . فقال الخليفة : « ذهبتم للتفتيش عن جارية أخذت من بيت أحد فقتل بسببها عشرات من الناس ، فلو فعلت مثل فعلكم بسبب الجارية المغنية التى أخذت منى لحدث مثل هذا وأعظم منه . أن هذا لا يليق بنا . أين أحمد ؟ »

فأجابه الداودار : « أظنه فى قصره يا مولاي » . فقال : « ادعه الى حالا »

فلما شاهد مؤيد الدين غضب الخليفة على ابنه استبشر بنجاته من تطاوله وتدخله فى أمور الدولة ، ونظر الى المستعصم فرآه مطرفا والغضب يتجلى فى وجهه ، لكنه لم يتبين من ذلك الغضب حزما ومزيمة . وتلك كانت علة الخليفة - لم يكن ينقصه حسن القصد وإنما كان ينقصه الحزم . فظل مؤيد الدين صامتا مطرفا حتى دخل الحاجب وأنبأ بمجيء الأمير أحمد فأمر الخليفة بدخوله



دخل أبو بكر ، وهو شاب فى مقتبل العمر ، قد أخذه الغرور ، تمازج حركاته خيلاء لا تظهر الا على الأدمغة الفارغة ، ولا سيما فى أوائل الشباب فقد كان فى حوالى السنة العشرين من العمر - وتلك هى سن الغرور فى كل شاب اذ يتوهم صاحبها انه بلغ الكمال فى كل شيء ، اذا مشى حسب الناس ينظرون اليه اعجابا بجماله أو بسالته ، واذا قال قولا توقع أن يكون له وقع الوحى على القلوب ، فاذا أنس منهم فتورا

او احتقارا غضب وانحى عليهم باللائمة ورماهم بالجهل او الحسد لانهم  
بخسوه حقه ، وبأنهم انما فعلوا ذلك تقليلا من فضله ، ونحو ذلك من  
غرور الشباب

فاذا كان ذلك شأن الشباب على اختلاف طبقاتهم فكيف بابناء  
الملوك والخلفاء الذين لا يسمعون الا التحبيذ والاطراء ؟ وبخاصة  
اذا كان في الشباب خفة وصغار مثل احد هذا الذي زاده غرورا ان  
اباه اطلق سراجه من محبسه على غير المعتاد عند الخلفاء قبله ، فاصبح  
لذلك لا يحسب للعواقب حسابا ، بل هو لا يدرك حقائق الامور ، وانما  
يهمه ان تنفذ كلمته وينال مشتهاه مهما يكلفه ذلك

دخل ابو بكر والقى التحية ، وتلفت يمينا وشمالا فوقع بصره على  
مؤيد الدين فنظر اليه باحتقار ، ومؤيد الدين لا يبدى ملاحظة . وقعد  
ابو بكر قبل ان ياذن له ابوه في القعود فقال له المستعصم : « يا احمد  
انت امرت الداودار بالهجوم على اهل الكرخ ؟ »

فاجاب وهو يتسم تكاية في مؤيد الدين : « نعم يا ابي » . قال :  
« وكيف ذلك ؟ ولماذا ؟ » . قال : « لان جارية من جوارى هربت من  
قصرى واختبأت في منزل احدهم ، ولاشك انهم حلوها على الفرار  
وخياؤها ، فبعثت من ياتي بها فشتما رسولي وضربوه ، فأمرت  
الداودار ان يؤدبهم فتمردوا عليه ، فاضطر - للدفاع عن نفسه - ان  
يضر بهم وقد فعل ، وما المانع من ذلك ؟ »

فقال المستعصم : « المانع انه لا يليق ان تحدث مذبة يقتل فيها عدة  
رجال من اجل جارية ، وانت تعلم ان في قصورنا الوف من الجوارى  
فلو طلبت منى عشر جوار بدل الجارية لكان ذلك أهون على مما اسمعه ،  
والجوارى كلهن سواء »

فاعتدل في مجلسه وهو يصلح منطقته بدلال وانفة وقال : « اذا كانت  
الجوارى سواء ، وفي قصورنا الوف منهن ، فما الذى حمل أمير المؤمنين  
على ان يبعث في طلب جارية من سلطان مصر »

وكان مؤيد الدين يلاحظ ما يتقلب على وجه المستعصم من الملامح  
ليرى ما يكون تأثير قول ذلك الفلام فيه ، فاذا به لما سمع اعتراض  
ابنه غلب عليه ضعف العزيمة وعمد الى الاسترضاء وقال : « انا لم  
اطلب تلك الجارية من سلطان مصر الا لتفرد بها بغناء اصوات لا يستطيعها  
سواها ، واما ... »

فقطع احد كلام ابيه بكل وقاحة واستخفاف وقال : « وما ادراك  
ان تكون جاريتى هذه غير ممتازة بمناقب لا توجد في سواها ؟ وما اجدرنى  
ان اقتدى بوالدى وهو أمير المؤمنين ، قدوة سائر المسلمين »

فحمل المستعصم هذا القول محمل التهكم ، وخجل من أن يسمعه  
امام مؤيد الدين والداودار ولا يرد عليه فقال : « أهكذا تجيبني يا أحمد ؟  
وهل يحق لكل واحد أن ينال ما يناله أمير المؤمنين ؟ أن عملك هذا  
لا يرضيني »

فهز أحمد رأسه وقال : « يكفي أن يرضيني أنا . وهل أعمال أبي  
ترضى كل انسان ؟ لا يطلب من المرء أن ترضى أعماله كل الناس »  
وبعد أن كان المستعصم قد صرح بانكاره تهكم ابنه حله ضعفه على  
المغالطة ، وتناسى تهكمه فابتسم وقال : « وبعد تلك المقتلة هل ظفرت  
بالجارية ؟ »

قال : « كلا .. ما زالت محتبئة ، ولابد من العود الى البحث عنها »  
قال : « لا ياولدى ، لا تبحث عنها هكذا ، وسأكلف أنا وزيرنا مؤيد  
الدين أن يتحرى عنها حتى يقف على مكانها ويميدها اليك »

فنظر أبو بكر الى مؤيد الدين لحظة ثم حول وجهه عنه نحو الداودار  
وقال : « إذا لم يقف على مكانها فنحن نقدر على اخراجها من محبسها  
ولو كانت في جيب الوزير أو بين أهله » . ثم نهض وقال : « استأذن  
سيدى الوالد في الانصراف الآن لأنى على موعد مع بعض القواد للخروج  
الى الصيد » . وخرج ولم ينتظر إذن والده وأوما الى الداودار أن  
يتبعه فتبعه . والمستعصم ينظر الى ابنه وهو خارج وقد بان اليأس  
فى وجهه ، ثم حول بصره الى مؤيد الدين وتنهّد وقال : « صدق القائل :  
( وأما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض ) .. » . ودمعت عيناه

فأطرق مؤيد الدين وهو يتعجب من ذلك الضعف . ولبت فى انتظار  
خطاب الخليفة حتى سمعه يقول : « يا مؤيد الدين ، أنك وزيرى  
وموضع ثقتي .. وقد رأيت ما أظهره أحمد من الاستخفاف بقولى ..  
وأظننى أخطأت باطلاق سراح أولادى ، فخالفت بذلك تقاليد أجدادى ..  
لو كان أحد كما كان أبناء الخلفاء قبله لكنا فى غنى عما نحن فيه » .  
وتشاغل باصلاح لحيته ، فلم يشأ مؤيد الدين أن يخوض فى هذا  
الموضوع خوفا من تغلب عاطفة الحنو فى نفس الخليفة مما قد يحول  
غضبه اليه وبخاصة أنه يعلم ضعفه من جهة ابنه هذا . فقال  
المستعصم : « نطلب من الله أن يهدى هذا الفلام الى ضوابه ، أنت أب  
تعرف قلوب الآباء ، فأقدم اليك أن تساعدنى فى البحث عن جارية  
أحد وأن تعرض على أهل الكرخ خسائرهم ، وإنى آسف لما وقع وعسى  
أن لا يتكرر » . ثم تنحسح وهم بالنهوض وهو يقول : « لا يبرح  
من بالك أيضا أن تبحث عن الجارية شوكار المغنية التى استقدمناها  
من مصر وخطفها اللصوص قرب بغداد »

فنهض مؤيد الدين وطأطا رأسه طائعا وقال : « انى عبد أمير المؤمنين ، وفقنى الله فى خدمته ولكننى »  
فقطع الخليفة كلامه قائلا : « انا اعلم ان احد لم يكن يتبنى له ان يقول ما قاله . . لكنه لا يزال شابا قليل الاختبار ولا يلبث ان يهتدى الى الصواب » . وتحول كل منهما فى طريقه



خرج مؤيد الدين بن العلقمى من قصر التاج وركب بغلته عائدا الى قصره وهو غارق فى التفكير ، تتنازعه عوامل مختلفة ، لكن الخوف متطلب عليها كلها

ولما دنا من قصره رأى فى موقف الدواب بغلتين احدهما بجلة سحبان ، وقد عرفها ، والثانية لم يكن قد رآها من قبل فتقدم غلامه الى الباب وقرمه ففتح على سعته ودخل مؤيد الدين ببغلته الى مدخل الباب وترجل هناك ، فتناول الغلام زمام البجلة وساقها الى مكانها ، ومشى مؤيد الدين وكان البواب يسرع بين يديه . فقال له : « من هو صاحب البجلة الاخرى المربوطة هنا ؟ »

قال : « ان صاحبها امرأة جاء بها سحبان من وقت قريب ، وهو فى انتظار مولانا الوزير فى الشرفة »

قال : « قل له يأتى الى غرفتى ، من هى المرأة التى معه ؟ »

قال : « لا أدري يا سيدى ، لكنه بعد خروجه أخذ أباه وأخته الى الكرخ ثم عاد الساعة ومعه هذه المرأة وأظنها جارية »

وكان مؤيد الدين قد دخل غرفته وأهل بيته يعلمون أنه اذا دخلها لا يدخل عليه احد الا باذن خاص ، وسأله الطاهى : هل يريد الطعام فقال : « هبى لى مائدة مختصرة ادخلها الى هنا ، وليأت سحبان للاكل معى »

ودخل فبدل ثيابه ، ولم يكد يفرغ من اللبس حتى جاء سحبان وفى وجهه امارات البشر ، وكان قد فارقه والياس غالب عليه ، فاطمان مؤيد الدين بعض الشيء ، وابتسم ابتساما لم يتعد شفثيه وقال : « ما وراءك يا صاحبنى ؟ » . قال : « يظهر انك غضبت مما شاهدته فى قصر التاج ، ليس عند القوم ما يفرح » . وابتسم

فقال مؤيد الدين : « وهل عندك شيء يفرح ياسحبان ؟ بالله قل

ان صدرى قد ضاق مما أراه وأسمعه . تقدم كل معى »

فأثنى على دعوته وتناول سكباجة وتشاغل بتقطيعها وهو ينظر الى

وجه الوزير ويقول : « لدى خبر يسرك ويوجب استغرابك ودهشتك »  
ومال مؤيد الدين الى استطلاع ذلك الخبر ، فتوقف عن المضغ وقال :  
« ما ذلك ؟ قيل لى انك جئت ومعك امرأة . من هى ؟ » ثم عاد  
الى المضغ

فضحك سحبان وبادر الى قطعة من السكباجة ادناها من فيه وهو  
يقول : « هى طلبة الامير احمد وهى الجارية التى فتك بأهل الكرخ من  
أجلها »

فقال : « كيف ظفرت بها ؟ الحمد لله على ذلك قد خلصنا من شر  
هذا الغلام ، أين كانت ؟ »

قال : كانت مخبأة عند جيراننا ، واختى عالة بذلك ، لكنها كتتمته  
واحتملت الخطر من أجل كتمانها كما علمت ، لأنها رأت الجارية تكره أن  
تعود الى احد هذا ، فلما جرى ما جرى وعدت أمس مع أهلى قصت  
على اختى خبر هذه الجارية وأرقتنى اياها فاتيت بها الى هنا »

قال : « حسنا فعلت لأن الخليفة الح فى التوصية بأن نبحث عن هذه  
الجارية ونعيدها الى ابنه حنر طيشه ، وقد حيرنى هذا الوالد  
بضعفه وحنوه »

فقال سحبان : « لكن الجارية لا تريد أن تعود اليه »

قال : « هى وشأنها ، نحن ندفعها الى الخليفة ونتخلص من تبعة  
أمرها »

قال : « انها أشد كرها للخليفة ، ولا تريد أن يعرف بوجودها هنا »

قال : « وكيف ذلك ؟ لم اسمع أن الجوارى يرفضن التقرب من  
الظلفاء »

قال : « لهذه الجارية شأن خاص لا يعرفه أحد فى بغداد سوى »

قال : « الله أنت اما أكثر ما تعرفه ! . . »

قال : « لا أعرف ذلك لذكاء خاص أو لكرامة أو ولاية ، ولكن  
الأسفار تعلم الانسان أشياء كثيرة » . قال : « وما علاقة ذلك بالأسفار ؟ » .  
قال : « نى رأيت هذه الجارية بمصر وعرفت حديثها ، وهو ذو شجون ،  
لو عرفته لتولتلك الدهشة من غرائب الاتفاق »

فازداد رغبة فى الاستطلاع وقال : « قل يا سحبان ، لا صبر لى  
على الاطالة » . قال : « ألم تسمع شكوى الخليفة من جارية طلبها من  
سلطان مصر وخطفت قبل وصولها الى قصره ؟ انها هى هذه الجارية  
نفسها »

قال بدهشة : « هى نفسها الجارية التى فرت من ابنه الى الكرخ ؟ » .



قال : « نعم ياسيدي هي بعينها ، هي شوكار جارية شجرة الدر التي سمع الخليفة برخيم صوتها وجودة صنعتها على السمود فبعث الى سلطان مصر يطلبها منه . وقبل دخولها بغداد سطا عليها بعض الناس بحجة انهم قادمون من قصر الخليفة لحملها اليه وفروا بها . وتحدث أهل بغداد بذلك زمنا ثم سكتوا ، وكان الباعث على ذلك السطو ان ابا بكر لما سمع بالجارية القادمة الى ابيه رأى انه أولى بها ، فبعث من قبله أناسا أخذوها من القادمين بها بدعوى انهم آتون من قصر التاج لاستقبال مغنية أمير المؤمنين ، فلما صارت في أيديهم أخذوها الى قصر اعده هذا الشاب لمثل هذه الحاجة ، وكان أهل قصر التاج في انتظارها . ثم علموا انها اخذت خلسة لكنهم لم يعلموا أين هي ، وما زالوا يجهلون ذلك الى الآن »

فاستغرب مؤيد الدين وقاحة ذلك الشاب وقال : « وماذا فعلت شوكار بعد ذلك ؟ ألم تستطب مقامها عند هذا الشاب ؟ »

قال : « ان هذه الفتاة لا يطيب لها المقام في غير مصر لانها مخطوبة لأمير من أمراء المماليك »

قال : « مخطوبة ؟ وبعث الخليفة يأخذها من خطيبها ؟ »

قال : « لم يعلم الخليفة انها مخطوبة وانما يعلم انها جارية شجرة الدر الملكة السابقة وانها تحسن الغناء فطلبها من السلطان الجديد فلم يسمعه مخالفة الأمر »

قال : « من هو خطيبها ؟ » . قال : « هو ركن الدين بيبرس البندقداري » . قال : « ركن الدين بيبرس ؟ انه بطل باسل ورجل حكيم اجتمعت به مرة في مصر ونحن شابان وتكاثبنا غير مرة ، أتى أعرفه شجاعا لا يصبر على الضيم ، فماذا هو فاعل ؟ »

قال : « انه يكاد يتقد غيظا ، ولا أخفى على مولاي انه أسر الى امر هذه الجارية وأنا في مصر ، وقد تمجلت السفر الى بغداد في سبيل خدمته ، لعلى أقف على خبر خطبته ، وكان قد جاءه كتاب منها تنبئه فيه باختطافها من رجال الخليفة ، ولم تكن تعرف من اختطفها ، وربما جاء هو بنفسه للبحث عنها »

فاطر قمويد الدين مدة وهو يفكر في حال ذلك الخليفة وابنه ، وفي اشتغالهما باللهو عن الملك وقال : « هل تظن ركن الدين يأتي الى بغداد ؟ »

قال : « لا يبعد أن يأتي ، والآن اذا اذنت فلتبقي شوكار عندنا ويثما يأتي هو أو نكتب اليه عن نجاتها وننتظر رايه فيها »

قال : « وكيف استطاعت الفرار من قصر أبى بكر وهى غريبة هنا ؟ »

قال : « ساعدها على ذلك خصى كان فى خدمتها يعرف أهل المنزل المجاور لمنزلنا فحملها اليه بحيلة ، ولما علم أبو بكر بذلك جاء الكرخ كما علمت ، لكنه لم يستطع الوقوف على خبرها ، ولما علمت اليوم بوجودها أتيت بها الى هنا لأرى رايتك فيها »

فاخذ مؤيد الدين يفكر فيما سمعه وهو حذر يقظ ، فخاف أن يكون فى بقاء تلك الفتاة عنده باعث على سوء الظن به ، لعلمه بوجود الجواسيس حوله فقال : « انظر يا صاحبي ، ان أمر هذه الفتاة أهمنى كثيرا ، وقد فرحت بنجاتها من الأسر ، وأحب استبقائها ، لكننى لا أرى أن تبقى فى منزلى »

فبادره سحبان قائلا : « صدقت ، وأنا لا أطلب ذلك وإنما استشيرك فى الأمر ، وأحب أن يعلم بيبرس أن نجاتها كانت على يدك ، وهو قائد عظيم ننتفع برأيه وحزمه فى الأمر الذى تكلمنا فيه ، ولابد من الوصول اليه . . ان هذا القائد وعدنى وأنا فى مصر أنه يستطيع أن يقلب هذه الحكومة ويقتل الخليفة ويقيم لنا الدولة العلوية الشريكة بمصر وعند ذلك »

فأسكته مؤيد الدين بالإشارة وهمس فى أذنه قائلا : « لا تتطرف فى أفكارك يا أخى . دعنا من التخيلات الى الممكنات »

فتعجب سحبان من انكاره ذلك عليه لأنه كان يعتقد مكانه ، ويعتقد أن ركن الدين وعده به ، مع أن ركن الدين لم يبد فى هذا الشأن غير السكوت . ولكن سحبان كان كثير التمويل على الأوهام فيبنى من الحجة قبة ، بينما مؤيد الدين كان على عكس ذلك . فلما أنكر عليه قوله اضطر سحبان الى السكوت والتظاهر بالاعتناع وقال : « هب أن أملئ بعيد ، ألا ترى فى مجيء ركن الدين نفعا لنا ؟ »

قال : « قد يكون حضوره نافعا لنا اذا أحسنا استخدامه ، ولا محل للكلام فى ذلك الآن »

فقاطعه قائلا : « ما لى أراك لا تجد محلا للكلام ، هب انى وافقتك على رايتك واكتفيت بابدال خليفة بخليفة الا يجوز أن نبحث فى هذا ؟ » قال : « يجوز يا صاحبي ، وترانى فى حيرة من أمر هذا الخليفة . تارة أراه معتدلا يمكن اصلاحه ، وآونة أقطع الأمل فى اصلاحه . سنفكر فى ذلك »

قال : « افترض أن المستعصم هذا يمكن اصلاحه ، اترى الامام أحد ابن الظاهر أهلا ليقوم مقامه ؟ »

نبغت مؤيد الدين لهذا الاقتراح لانه طالما فكر فيه ولم يخطر له  
أحد سوى الامام أحمد أهلا له ، لكنه لم يكن ليبوح به لأحد ، فلما  
سمع اقتراح سحبان أجفل وظهرت البغته في عينيه وزادت لعنا وقال :  
« لا بأس به ، لكنه محبوس في قصر الفردوس كما تعلم ولا سبيل اليه »  
قال متى . تم رأينا على أمر لا يقف الحبس في طريقنا . وانا اطلب  
اليك أن تصرح لي برأيك . يكفيني منك تكتما ، ان التكتم حسن لكنه  
إذا زاد على حده يفشل صاحبه . قل لي ألا ترى الامام أحمد أهلا  
ليقوم مقام المستعصم ؟ »

قال : « انه نعم الخلف ، ولكن دون الوصول اليه خרט القتاد ،  
وسننظر في الخطوة الاولى . وأفضل اصلاح حال المستعصم لأن ذلك  
يفيننا عن التغيير والتبديل »

قال : « وانا ادعوك الى اصلاحه » . وتحفز للنهوض وقال : « أما  
تريد أن ترى شوكار وتأذن لها في تقبيل يده ؟ »

قال : « لا بأس من ذلك وان كنت أرى أن تسرع باخراجها من هذا  
المنزل »

قال : « تقبيل يده وتذهب حالا » . ونهض ومشى ثم عاد ومعه  
شوكار ، وكانت قد تغيرت سحتها من فرط ما قامته من العذاب  
والهجوم ، فلم يفرج همها الا في ذلك اليوم لما رأت سحبان وطمانها  
على ركن الدين وأنه بعثه للتفتيش عنها ، وأصبحت تتوقع سرعة  
الرجوع الى مصر أو وصول ركن الدين الى بغداد . فلما دخلت على  
مؤيد الدين أكبته على يده تقبلها ، وقد غلبها البكاء وبللت كفه بالدموع ،  
فاحتذب يده من يدها وقال : « لا بأس عليك يا بنية لا تخافي ان امير  
المؤمنين لا يظلم أحدا ، وان الله لا يتخلى عن أحد »

فأطرقت برأسها حياء وهي واقفة وقالت : « أحمد الله الذي وسط  
هذا الشهم في ابصالي اليك ، وانا لا اطلب شيئا غير أرجاى الى  
مصر » . وغصت بريقها

فقال مؤيد الدين : « ستعودين في خير ان شاء الله » . وتحرك من  
مقعده ونهض ، وأوما سحبان الى شوكار أن تتبعه ، وودع مؤيد الدين  
شاكارا ومشى ، فتبعته شوكار فأسرع الى اخفائها في منزل لبعض  
أهله في الكاظمية

## مؤيد الدين وهو لا كو

أما ابن العلقمي فما كاد يخلو بنفسه حتى صعد إلى الشرفة ،  
والشمس قد مالت إلى المغيّب ، وتوسد فراشا على مقعد يطل على  
دجلة ، وقد تآقت نفسه إلى الوحدة والتفكير فيما هو فيه من  
مشاغل . فلما سمع أذان المغرب نهض للصلاة في مسجد بالقرب  
من منزله ، وهو يتوقع أن يرى في الصلاة راحة . وليس للمؤمنين  
في ساعة القلق سبيل إلى الراحة والطمأنينة خيرا من الصلاة  
والدعاء إلى الله أن يهديهم سواء السبيل وينقذهم من المخاطر

أحس مؤيد الدين حاجته إلى الراحة فأسرع إلى المسجد وأخذ  
يصلّي ، فلما فرغ رأى شيئا من الصوفية راكبا بالقرب منه وسمعه  
يتمتم بالصلاة فلم يهتم به ، ثم رآه يزحف نحوه ، وكدرته وقاحة  
ذلك الصوفي وظنه مصابا في عقله ، فالتفت إليه شزرا وزجره بلطف ،  
فازدجر الرجل هنيهة وأظهر أنه يصلّي . فعاد مؤيد الدين إلى صلاته  
ودعائه ، واستغرق في التوسل إلى الله أن يهديه سبيل الرشاد

ولما فرغ نهض وتحول نحو الباب فوجد أناسا واقفين للسلام عليه  
فحيّاهم ومشى ، ولما وصل إلى المنزل إذا بذلك الصوفي واقف بجانب  
الطريق ويده مسبحة وهو يتمتم كأنه يدعو ، فلما دنا مؤيد الدين  
منه تقدم الصوفي والمسيبة في يده وهو يبتسم وقال « أنى أستطلع  
الغيب وأنبئك بما تفعله يا مؤيد الدين »

فلما سمع ذلك أجفل لأنه قيل له بلحن الامر وفيه صيغة  
العجمة ، فعلم أن مخاطبه غير عربي وأنه ليس من الفقراء المتسولين ،  
وأنه لأمر ذي بال تعرض له في الطريق على هذه الصورة ، فالتقى على  
الرجل نظرة متفرس ، وتأمل لباسه ووجهه ، فرأى عليه قلنسوة  
الصوفية وجبة الصوفية وفي يده مسبحة الصوفية ، لكن سحنته  
غير سحنتهم ، ولحيته غير لحيتهم ، فاجاب قائلا : « من أنت يا رجل ؟ »  
قال : « أنى بصير بخفايا القلوب قادر على تفريج الهموم اكشف

لك ماخفى عليك وأرشدك الى الطريق السوى ، وان لم تصدقنى  
فجرب » .

فاوما اليه ان يتبعه ، وأشار الى البواب ان يدخله الى غرفته  
الخاصة ، ودخل هو وقد شغل خاطره بهذا الدرويش ، ومال كل  
الميل الى الاسترشاد برأيه ، وهو يمتد الكرامة بأصحاب الكرامات ،  
وتمنى أن يكون هذا منهم . وبعد قليل دخل الدرويش وقد أدخل  
احدى يديه بكم الأخرى وقبض بالأنامل المطلقة على مسبحة أخذ يعد  
حباتها ، فأشهر اليه مؤيد الدين أن يقعد ، وسأله اذا كان يحتاج الى  
طعام فقال : « لا » . فاوما الى الخادم أن يخرج ويطلق الباب وراءه  
ففعل . ثم نظر الى الدرويش وتفرد فى وجهه فلم يذكر أنه يعرفه ،  
ولم ير فى وجهه سحنة التصوف فقال له : « أرشدنا بعلمك ياشيخ »  
قال : « أرنى يدك مفتوحة »

ففتحها وأراه باطنها فنظر فيها مليا ثم قال : « أنت تفكر فى امر  
عظيم الأهمية شديد الخطر عليك وعلى اهلك وسائر عشيرتك » .  
فأشار مؤيد الدين برأسه أن : « نعم »

فأعاد الدرويش النظر الى كف الوزير كأنه يقرأ كتابا مخطوطا ، ثم  
رفع بصره الى مؤيد الدين وقال : « ان المشكلة التى أنت واقع فيها  
يسهل التخلص منها اذا شئت »

فقال : « وكيف ذلك ؟ » . قال : « ينبغى أولا أن تنظر الى مصلحة  
نفسك وقومك ، ولا تتقيد باعتبارات وهمية لا قيمة لها الا عند  
ضعفاء القلوب . فهل أنت من هؤلاء ؟ »

فاستغرب مؤيد الدين اقترابه من الحقيقة بهذه السرعة ، وأحب  
زيادة الايضاح فاستل يده من بين أنامل الصوفى وقال : « قل قبل  
كل شيء ما اسمك ؟ » . قال : « اسمى رسول الى مؤيد الدين » .  
ففرح لأن ظنه كان فى محله ، اى أن الرجل ليس صوفيا فقال له : « من  
أرسلك ؟ » . قال : « صديق نصوح يريد بك وباهلك خيرا ، لكنك  
لا تعرف كيف تنتفع بالفرص التى تقع لك »

فعلم مؤيد الدين ان الرجل رسول متنكر فقال : « أفصح يا رسول  
الخير ، من أين أنت ؟ لا تهيب » . فقال : « ابنى رسول من خاقان  
عظيم لا يلبث أن يأتى بلادكم ويفتحها عنوة ولا قبل لكم بدفعه »

فعلم مؤيد الدين أنه يشير الى هولاكو التترى ، لأنه جاءه منه غير  
كتاب من قبل يدعو الى مشايعته على الخليفة المستعصم ويعده  
ومنيبه ، ولكنه هو يتردد ، فتجاهل وقال : « من تعنى ؟ » .

قال : « أعني مولاي الخاقان هولوكو ، ألا تعرفه ؟ » . قد كتب اليك مرارا يدعوك الى التخلص من هذا الخليفة الضعيف عسير النساء والمغنين وأنت لا تجيب ، فأمرني أن أتيتك مرشدا ناصحا . ولا يخفى عليك أن مثلي لا يدخل هذا المدخل ، ويتعرض لهذا الخطر ، إلا اذا كان قد باع نفسه في سبيل الحق . فانا ادعوك باسم مولاي أكبر السلاطين أن تكون معه على هذا الطائفة فتخلص أنت وقومك الشيعة من الظلم والعسف ، وتكون لك المنزلة الاولى عند صاحب هذا البلد حينئذ ، لا تكن ضعيفا ، ما لي أراك مطرقا كأن نفسك تحدثك باعتبارات تقدر لها قيمة لا تستحقها ، وكأنك تقول في شرك لا يليق بك أن تخلف ظن مولك الخليفة فيك . لعله لم يخلف ظنك فيه ؟ أنا هنا منذ أيام ، وقد اطلعت على ما جرى بينك وبينه وبين ابنه ، ورايتك تتململ وتتلذر ، وانما ينقصك الحزم فتنتقد نفسك وأهلك وعشيرتك ، والا فأنتم هالكون لا محالة »

فأكبر مؤيد الدين هذا التهديد من رسول غريب ولكنه رأى في في وجه ذلك الرسول هيبة وجرة لاتوجدان في عامة الناس . فقال : « اهدمولاك شكرى للمعرضه على ، وقل له ان طلبه لاسبيل الى اجابته ، وقد رايتنه يعرض بعجز هذه الدولة عن مقاومته ، لقد أخطأ كل الخطأ لأن جندنا لا يطلب من قلة ولا من ضعف ، ونحن على ثقة من الفوز اذا نشبت الحرب بيننا وبينه »

فضحك الرجل وقال : « أتيت اليك على اني منجم يقرأ الافكار ، وها انذا أقرا فكرك الآن من وراء ما تقول ، أنك تقول غير ما تعتقد ، أنا اعرف كل ما تحاول اخفاه من اضطراب الجنس وفساده ، فأصغ لهذا النصح . واعلم أننا لا نكلفك تعب ولا خطرا ، ولا نطلب منك أمرا عظيما . ان البلد نحن فاتحوه لا محالة ، فاذا توسطت معنا قللت من القتل والفتك ، لاننا نحب أن ينحصر الأذى في صاحبه المسبب لهذه الشرور ، ولا ذنب للرعايا ، وبخاصة الشيعة الذين قضوا الأجيال التوالية وهم يتحملون انواع العذاب من هؤلاء الخلفاء ، ومن هذا المهدار . وقد يصعب عليك أن ترجع عما قلتيه الآن وزعمته في الدفاع عن مولك المستعصم ، فانا لا أكلفك الرجوع الساعة ، ولكنني أرشدك الى الصواب وأترك لك الوقت الكافي للتفكير . وأما مولاي الخاقان هولوكو فانه فاعل ما يريده ، ولا يلبث أن ياتيكم كتابه بالانذار والتهديد ، فان لم تصغوا الى مطالبه حمل عليكم وفعل ما يشاء . وثق أنه الغالب الظاهر ، فاذا كنت تحب بلدك وأهلك فابعث الى مولاي الخاقان كلمة بأنك على ولائه فتنجو وتكون لك الكلمة النافذة

والصوت الأعلى ... اظننى اطلت الكلام عليك فاعذرني » . قال ذلك .  
دوقف ومد يده الى جيبه واستخرج لفافة في أسطوانة من القصب  
وقدمها له وهو يقول : « وهذه رسالة من مولاى اليك لا تفتحها الا بعد  
خروجى » . قال ذلك وخرج

فدهش مؤيد الدين لما شاهده من ذلك الرسول ، وظل ينظر اليه  
حتى رآه خارجا من باب الدار ، وقد اثر كلامه فيه تأثيرا شديدا ،  
وعاد الى غرفته وفض الرسالة وأخذ يقرأ فيها :

« اعلم يا مؤيد الدين ان الرسول الذى خاطبك هو الخاقان هولكو  
نفسه ، وقديبل لك النصيحة فانتصح ، ولا تطمع في تعقبه فانك لاتجد  
الى ذلك سبيلا . وكان في وسمى ان تبقى على اعتقادك . ولا تعرف من  
هو مخاطبك ، لكننى احببت نصحك فانظر في أمرك . وابعت برسالتك  
الى كما قلت لك قبلا »

فاعاد مؤيد الدين قراءة تلك الورقة وقد تولته الدهشة واوشك  
ان يكذب بصره وسمعه لغرابية ما شاهده ، واطرق هنيهة وهو يخاطب  
نفسه قائلا : « هولكو نفسه خاقان التتر ، وفي خدمته مئات الألوف  
من الرجال لايشق بأحد منهم في مهماته فيأتى بنفسه متنكرا تحت  
هذا الحظر لى يخاطبني ، وكان في امكانه ان يبعث رسولا ولكن الهمة  
العالية والحرص على الملك يدعوانه الى ذلك . لاريب ان هولكو يعرف  
أسرارنا كما نعرفها نحن ، ويعرف عدد جنودنا وعلاقة قوادنا بخليفتنا .  
يعرف كل شيء . أين ذلك من خليفتنا المشتغل باللهو والفناء عن أمور  
الدولة ، وبهمه العثور على شوكار المغنية أكثر من دفع العدو عن  
بغداد ؟ . هذه علامات الزوال . هكذا كان حال الروم لما قام العرب  
لفتح بلادهم ، كان خلفاؤنا وقوادنا العظام من الصحابة وغيرهم يتولون  
أمورهم بأنفسهم ، لا يعولون على أحد ولا يشتغلون بغير الجهاد ،  
وكانوا قليلين فغلبوا جيوش القيصرية والإكاسرة »

ثم اطارق وتراجع وندم على ما خطر له وقال لنفسه : « لا . لا . ان  
الدولة العباسية باقية أبد الدهر ، لا تزول من الأرض ، وإنما هي في  
حاجة الى الإصلاح ، الى خليفة آخر »

وكان الليل قد اسدل ثقبه ، فوضع تلك الورقة تحت الوسادة  
وطلب العشاء ، ثم ذهب الى الفراش مبكرا ليرتاح مما مر به في ذلك  
اليوم ، وتوالت عليه المحواطر المتضاربة لكن ولاءه للخليفة ظل غالبا على  
عقله . وكان ليله مأهولا بالاحلام ، ولم يبق في اليوم التالى الا على  
ضوضاء طلبية المستنصرية وهم خارجون لصلاة الضحى

واحب البقاء في الفراش لأعمال الفكر فيما شغل خاطره . والانسان .

في الصباح قادر على التفكير ، وتفكيره أقرب الى الصواب من سائر الاوقات ، فلم يردد الا ثباتا على الولاء للخليفة والرغبة في اصلاحه ، فارتاح باله لانه استقر على رأى - وليس اتعب للانسان من التردد بين رأيين ، فنهض من فراشه وأخذ في لبس ثيابه ، ولم يبق في ذهنه الا مسألة شوكار . وكان يود أن يسلمها الى الخليفة ويتخلص من القيل والقال لو لم يحل سحبان دون ذلك ، وعذره مقبول . فخطر له أن يبعث في طلب سحبان ليكرر له الوصية باخفاء مكان تلك الفتاة ، لكنه توقع جيئه من تلقاء نفسه

مضى ذلك النهار ولم يبرح مؤيد الدين منزله التماسا للراحة وقضاء بعض المهام الخاصة ، وجاء الغروب وأقبل العشاء ولم يأت سحبان فهم بالذهاب الى الفراش ، وقبل أن ينزع ثيابه تذكر الكتاب الذى دفعه اليه درويش الامس ، ورأى أن يعده لثلا يقع في يد أحد فيجمله وسيلة للايقاع به ، فتذكر أنه وضعه تحت الوسادة ، فافتقده هناك فلم يجده ، فأخذ يبحث عنه في جيوبه فلم يقف له على اثر ، فخفق قلبه لثلا يكون قد سمع حديثهما أمس جاسوس وسرق الكتاب وأخذه الى الخليفة



وبينما هو في ذلك اذ سمع قارعا يقرع الباب الخارجى بعنف ، فاجفل ومكث ينتظر الخبر وإذا بالبواب يدخل وهو يقول : « ان سحبان بالباب ومعه رفيق ، هل يدخلان ؟ »

فاطمان باله وارتاح الى قدوم سحبان في تلك الساعة لعله يخفف عنه بعض الشئ ، وأحب أن يعرف من هو رفيقه ، ولم تمض لحظة حتى أقبل سحبان وهو يتسم والقى التحية ، ثم تنحى وقدم رفيقه باحترام وأشار اليه أن يدخل ، فنظر مؤيد الدين الى ذلك الرفيق فاذا هو ملثم لا يظهر من وجهه الا عيناه وما يحيط بهما ، ورأى السواد غالباً على لونه كأنه عبد حبشى ملثم ، ورآه يمشى نحوه الهوينى ، وسحبان واقف باحترام ، فاستغرب مؤيد الدين ذلك فقال : « من هو رفيقك يا سحبان ؟ »

قال : « ستعرفه الساعة ياسيدى » . وتقدم حتى أقعد ذلك القادم على كرسي في صدر الغرفة ، وأشار اليه أن يتفضل بازاحة اللثام ، ومؤيد الدين ينظر اليه من جانب المصباح ، فازاح الرجل اللثام ، وحالما وقع نظر مؤيد الدين عليه اختلج قلبه في صدره وصاح : « مولاي الامام احمد بن الظاهر ؟ من اين اتيت به ياسحبان ؟ » . وأكب على يده



يقبلها ، وكان الامام احمد اسمر اللون لأن أمه حسيه  
فضحك سبحان وقال : « أتيت به طوعا لأمره »

فصاح مؤيد الدين : « ويلك ! متى طلبت اليك احضار مولانا الى  
هنا ؟ كيف تأتي لك ذلك وهو محبوس وعلى قصره الحراس والجواسيس ؟  
ان شؤونك كلها غريبة يا سبحان ! »

قال : « انك لم تطلب الى احضاره ، لانه لم يخطر لك استطاعتي  
ذلك . ولكن الحديث الذي دار بيننا أمس يدل على انك تحب أن تراه  
وتستوثق من رضاه »

فقال : صدقت ، لم يخطر لي انك تستطيع ذلك ، وكيف اقدمت  
على هذا الخطر ؟ الله أنت من شجاع مقدم ! وانما ينقصك التؤدة  
والتبصر »

فقال : « ما ينقصني تكمله أنت بحكمتك ودهائك ! »

وتوجه مؤيد الدين نحو الامام احمد ، وكان يومئذ في ابان الكهولة  
وقد ظهرت السكينة عليه ، وقعد بين يديه على وسادة باحترام ووقار  
واخذ يرحب به . فتقدم سبحان وقال : « اني رجل متسرع ، ولا  
أحب المطاولة أو التسويف ، وأكره التردد ، وقد أعجبنى منك أمس  
ثقتك بمولانا الامام احمد ، وان رأيك فيه وافق رأيي وهذا دليل الصواب ،  
والآن ما هو ذا صاحب الشأن لم أكلمه في شيء بعد ، وانما سعيت في  
انقاذه من السجن »

فقال : « وكيف استطعت ذلك ، ما هذه الجراءة ؟ »

قال : « استطعته بمعونة الله ، وعسى أن استطيع ما هو أهم منه ،  
وأرى هذا الامام العاقل العادل خليفة يتولى امورنا بدلا من ذلك ال . . »  
فتصدى الامام احمد للكلام قائلا : « لا تقل شيئا يا بني ، ان الخليفة  
المستعصم بالله لا بأس به لولا تسلط ابنه على رأيه ورغبته في اللهو ،  
وهذا ما يمكن ملاقاته فلا تحولوا قلوبكم عنه . . »

فقال سبحان : « نعم الرجل انت ياسيدي . . اما خليفتنا فلا أمل  
لنا في اصلاحه ، ولا بد من تغييره ، ومولانا الامام احمد أولى بالخلافة  
منه لانه اهل لها من كل وجه ، وهو أخو المستنصر رحمه الله ، ولا يخفى  
عليك ما اتاه المستنصر من الاعمال الشاهدة بحسن السيرة والتقوى  
والرغبة في العمران . . »

فقاطعه الامام قائلا : « لو علمت انك جئت بي لاسمع منك ماسمعته  
لفضلت البقاء في سجنى ، اننا في طاعة أبى احد المستعصم ابن أخى .  
واذا أخطأ فعلينا نصحه وكفى »

فلم يستغرب مؤيد الدين حذر الامام وانكاره وما ظهر من تسرع سحبان ، وان كان يعتقد رغبته في الخلافة أكثر من رغبتهما ، وإنما هي التؤدة والدهاء وحسن السياسة لأبد منها في مثل هذه الحال . فالتفت الى الامام وقال : « ان صديقي سحبان يعبر بعمله عن شعور كل مسلم ، ولا سيما قومنا الشيعة العلوية ، فانهم قاسوا في أيام ابن أخيك هذا مر العذاب مما لا يمكن اخفاؤه ، وان كنت لا أرى للتسرع في الأمر الى هذا الحد وعلى هذا الشكل لأننا لم نخط خطوة واحدة في سبيل ما نحن فيه » . والتفت الى سحبان وقال : « أخرجنا مولانا الامام من قصره فآين نضعه الآن ؟ واذا عرف الخليفة غدا انه ليس في قصر الفردوس فلا يتهم به سوانا والجند في يده يفتك كما يشاء »

فقطع سحبان كلامه قائلا : « لا تخف اني أعود به الى قصره الليلة ، وقد دبرت ذلك بحيث لا يشعر به أحد . وإنما جئت به لتطلع على غرضنا بناء على قولك انه يكفيننا الآن ابدال خليفة بخليفة ، واتفق رأينا على ان مولانا الامام أحمد أولى العباسيين بذلك » . والتفت نحو الامام وقال : « وأرغب الى مولانا أن يرفع كل حجاب بيننا وبينه ويكفيننا مؤونة المجاملة والحذر فاني لا أحب الا الصراحة . ونحن الآن نطلب من مولانا أن يجيبنا عن هذا السؤال . ( اذا استطعنا قلب الحكومة وأردنا تنصيب خليفة فهل يقبل الامام أحمد أن تكون الخلافة اليه ؟ وهل يعدنا خيرا ، ولا سيما من جهة الشيعة ومعاملتهم ؟ ) .. »

وبرغم مارآه مؤيد الدين من التسرع في عمل سحبان ، فانه وافقه على هذا الاقتراح ورأى الصواب فيه ، وعلم ان المشروعات الكبرى تفتقر الى الاقدام والحزم مثل حاجتها الى التروى والتؤدة . فاطرق وهو ينتظر ما يقوله الامام فاذا به يقول : « ان الخلافة يا اولادي اذا اتنتى لا يمكنني التخلي عنها خوفا على مصالح المسلمين . واذا أبيت فاني أرتكب خطأ أو معصية ، واذا صرت خليفة فأول واجب على اجراء العدل وانصاف المظلومين من آل بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه »

فقال مؤيد الدين : « بارك الله في مولانا ، واذا وفقنا الله الى ما نبغيه فانما يكون لصالح المسلمين ، ونشكر لمولانا قبوله القيام بتلك المهمة ، انما آسف لأن صديقي سحبان كلفك مشقة الخروج الينا فضلا عن الخطر »

فتصدى سحبان قائلا : « لا مشقة هناك ولا خطر ، ويمكن بقاء الامام خارج قصره عدة أيام ولا يشعر احد بغيبابه ، لاني وضعت في مكانه رجلا كثير الشبه به . استطعت ذلك بما بيني وبين قيم ذلك القصر من الصداقة ، وهو راغب في قلب هذه الخلافة أكثر من رغبتنا

لان هذا الخليفة وابنه لم ينج احد من اذاهما . كن مطمئنا يا صاحبي ،  
واذا كنت خائفا من التجسس عليك فما نحن اولاء ذاهبون عنك  
الساعة . وتحفز للوقوف ، وهم الامام احمد بان ينهض ، فنهض مؤيد  
الدين باحترام وقال : « ان مولانا الامام قد شرف منزل مملوكه ، واطلب  
الى الله ان يمن علينا بصروة الامر اليه ويوفقنا الى القيام بخدمته »



خرج الضيفان وخرج مؤيد الدين لودامهما ، ولما عاد الى غرفته  
عاد الى التفكير في كتاب هولكو وكيف اضاعه ، وعاد الى التفتيش عنه  
في كل مكان حتى كل دماغه وتوالت عليه الاوهام والمخاوف ، لعلمه ان  
عيون الجواسيس لا تنام عن استطلاع اخباره والوشاية به ، فتولاها  
القلق ، وذهب الى فراشه فلم يستطع الرقاد وعاد يفكر في ذلك  
الكتاب وابن هو ؟ وكان يعترض هذه الهواجس تفكيره في الامام احمد  
وسحبان وهولكو وما هو فيه من القلق على قومه وعلى نفسه ،  
وتعاطفت مخاوفه وهو تحت الغطاء لان الظلام يكبر الاوهام ويعظم  
الاشباح ، وافاق في الصباح وقد اخذ التعب منه مأخذا عظيما

وليس على الانسان اشد وطاة من التردد بين امرين مهمين لا يدرى  
ايهما يتبع ، ويقلب ان يكون سبب التردد تنازعا بين العقل والقلب ،  
فعمتى غلب احدهما انتهت الازمة واستقر الرأي وهذا الخاطر . وكان  
مؤيد الدين يتنازعه عاملان : احدهما يدعوه اليه عقله وهو ان فساد  
الحكومة ذاهب بالدولة الى الخراب ولا يرجى صلاحها الا بابدال الخليفة ،  
ولا يستطيع ذلك الا بيد قوية قاهرة مثل يد هولكو ، ويخامر هذا  
الحكم العقلي شعور قلبي فيه انتقام من ابن الخليفة وثأر للعلويين من  
اهل السنة . والثاني يدعوه اليه قلبه او ضميره اذ ييكته على هذا  
العمل لانه خيانة لمولاه الذي اقسم على طاعته

على ان ضياع كتاب هولكو احدث عاملا آخر شديد الوطاة على  
قلب مؤيد الدين ، اذ ترجح لديه ان يدا اخذت ذلك الكتاب عمدا ،  
ولا يلبث ان يصل الى عدوه الذي يتجسس عليه فيجعله حجة ضده  
وينهمه بالمؤامرة مع أعدائه . ثم تذكر فحوى الكتاب فلم يجد فيه  
ما يبعث على تهمة المؤامرة ، لكنه يدل على مخابرة جارية بين عدو البلاد  
وزريها

فلما تصور ذلك خيل له ان الخليفة اذا علم به يأمر بالقبض عليه  
او يقتله ، ولا سيما اذا دخل ابنه ابو بكر في ذلك ، فلا تبقى له حيلة  
في النجاة ، فمن الحرم ان يتدبر الامر ويتلافى الشر قبل وقوعه او

يستعد له على الأقل . وتذكر ما وعده به هولاء من الحسنات اذا هو اطاعه وكتب اليه بالمجيء ، فخطر له أن يبعث اليه في ذلك ، فاشمأزت نفسه من هذا الخطر ، ثم اعترضه ما يهدده من الخطر اذا ظل ساكتا فاشتد تحيره ، فنهض من فراشه وأخذ يتشاغل بلبس ثيابه وهو غارق في التفكير ، فغلب عليه الدفاع عن حياته وهم بالكتابة الى هولاء ، فأمر قيم الدار أن يأتيه بفلام من عبيده ، فأناه بشاب أصله من رقيق تركستان وقد دخل قصر الوزير من عهد غير بعيد وليس فيه نباهة . فلما وقف الفلام بين يديه تفرس فيه ، ثم أمر القيم أن يحلق له شعر رأسه ففعل . وجاء الفلام ورأسه كأنه صفحة بيضاء . وكان ذلك القيم قد ربي في بيت مؤيد الدين وله اطلاع على مكنونات قلبه ، وهو شديد الغيرة عليه ، وقد أدرك غرضه من طلب ذلك الفلام على هذه الصورة . فلما عاد به ناداه مؤيد الدين قائلا : « ألم تفهم مرادى ؟ » . قال : « نعم يا مولاي . انى رهين الاشارة » . قال : « الى بالابر والكحل واغلق الباب وراءك »

فذهب وعاد بالابر والكحل واغلق الباب ، وقعد على مقعد وأمر الفلام أن يجتو أمامه بحيث يصبح رأسه بين يديه . ثم تقدم مؤيد الدين وبيده ورقة قد كتب عليها كلمات قليلة ، وأومأ الى القيم أن ينقشها على رأس الفلام بالابر ويذكر عليها الكحل كما يفعل الوشامون فتناول القيم الورقة وقرأ فيها : « تعال الينا بقوتك وجندك » . فأدرك انها رسالة الى هولاء ، وكان من أشد الناس عداوة للخليفة وحاشيته لأنه شيعي وقد أصابه شيء من اذاهم ، فأخذ في نقش الرسالة على رأس الفلام ، وهو لسداجته كالبهيمة لا يفهم شيئا . فلما فرغ القيم من ذلك نظر الى مؤيد الدين وابتمس ، فأشار اليه أن يحتفظ بذلك الفلام حتى ينبت شعره ويفطى تلك الكتابة ، فاذا ظل على اعتزاه استقدام هولاء أرسل الفلام اليه . ويكفى أن يقال لهولاء أن هذا الفلام قادم من مؤيد الدين فيحطق رأسه ويقرأ ما عليه ثم يقتله . فاذا رأى العبدول عن ارسالها استبقى الفلام عنده وشعره يكسو رأسه ، لأنه لم يزل الى تلك الساعة مترددا ، وضميره غالب على ارادته وهو يرجو أن تصلح الشؤون بالمسألة

وأحس مؤيد الدين في تلك الساعة براحة ، وعاد الى شواغله وهي كثيرة ، أهمها النظر في أمور الدولة . فركب بقلته الى قصر التاج للنظر فيما جاء به البريد او ماحدث من الأمور العامة ، وكان يفكر طول الطريق في الكتاب الضائع ويراقب حركات القوم هناك ليتحقق ما كان من أمره ، فلما لم ير ما يبعث على سوء الظن اطمأن بآله وعاد الى منزله وقد ذهب قلقه

## بين المستعصم وهولاكو

مضت على تلك الحال أيام ، وقد نسي مؤيد الدين أمر الكتاب وهولاكو ، ولم يسمع عن ابن الخليفة شيئا يسوءه . فظن خيرا وتوهم أن ذلك الشاب رجع عن غيه بعد أن أحس بخرج المركز والخطر الذي يهدد المملكة بسبب الانقسام . لكنه أصبح ذات يوم وقد جاءه رسول المستعصم يدعو سرىما ، فركب بغلته وهو يفكر فيما عسى أن يكون سبب هذه الدعوة العاجلة ، وتذكر الكتاب الضائع ، فخاف أن يكون لتلك الدعوة علاقة به ، فتجلد حتى أتى قصر التاج ، ودخل على الخليفة وهو جالس في ديوان الخاصة وعنده ابنه أبوبكر والداودار ، فاستعاذ بالله من ذلك الصباح ، لكنه دخل وألقى السلام ، فرد المستعصم التحية ودعاه إلى الجلوس ، ثم دفع إليه كتابا كان بجانبه على السرير فتناوله مؤيد الدين وقرأه وإذا فيه :

« من الخاقان العظيم هولاكو سلطان السلاطين إلى المستعصم بالله العباسي . أما بعد فإنا قد ملنا الماطلة ونحن صابرون . أما أن لك أن ترعوى وتعرف قدرنا ؟ بعثنا إليك نستعينك على الاسماعيلية الفتاكين القتلة ، ونحن لانخافهم على أنفسنا كما نخافهم عليك فأبيت . فدلنا ذلك على سوء رأيك ، فبعثنا نعاتبك على عملك فأجبنا جوابا باردا لا يشفى غليلا وشفغته بهدية هي أولى أن تهدي اليك كأنك تظننا في حاجة إلى المال ، ولم ترسل إلينا رسولا يخفف من غضبنا ، وقد كنا نقنع منك برسول عاقل . أما الآن فلا يرضينا إلا أن تأتي أنت بنفسك أو ترسل إلينا وزيرك أو قائد جنك للاعتذار ، وإن لم تفعل فلا تلومن إلا نفسك . والسلام »

وما فرغ من تلاوة الكتاب حتى أخذ منه الأسف ما خلا عظيما ، ونظر إلى الخليفة فراه مطرقا يفكر ، فظنه قد اعتبر ولا يلبث أن يطاوعه في استرضاء هذا الفاتح التتري ، فإذا هو قد وقع بصره إليه وقال : « كيف رايت أيها الوزير ؟ » . قال : « الراى لولاى أمير المؤمنين »

قال : « هل اعجبتك وقاحة هذا التتري ، وما جزاؤه عنك ؟ » .

فلما سمع هذا التعبير استغربه ، وشعر ان الخليفة لم يقدّر مركزه حق قدره ، فقال : « استأذن مولاي في امر لا بد لي من التصريح به . ان هذا الرجل أصبح الآن شديد البطش ، وقد علمنا من جواسيسنا انه فاز في حروبه مع الفرس وغيرهم ، وأصبح جيشه عديدا ، وعنده العدة والمؤونة ، وإذا لم نجبه جوابا حسنا حل على بغداد ، فالذي .. » فتعرض أبو بكر للكلام باستخفاف وقال : « يحمل على بغداد ؟ وهل ينال غير الخزي والفشل اذا حمل عليها ؟ »

فازداد مؤيد الدين أسفا ولم يجبه ، لكنه وجه كلامه الى الخليفة وقال : « فالذي أراه أن نسترضيه ريثما نتأهب »

فقال الخليفة : « بماذا نسترضيه ؟ . انه يطلب مني أن اذهب اليه بنفسي أو أرسل اليه الوزير أو الداودار ، ألم يكن الاولى أن نتلافى الأمر قبل تفاقمه ؟ »

قال الوزير وقد اعجبه اذعان الخليفة للحقيقة : « كان ينبغي ذلك ، ولم يقصر العبد في اداء النصيحة في المرة الماضية لما جاء كتاب هولاكو هذا ، فقد شرحت لمولاي ما نخافه من هؤلاء ، ورغبت الى امير المؤمنين أن يبعث اليه بالهدايا الفاخرة من الجواهر والممالك والجواري فان القوم يرضيهم ذلك ، فاعترض الداودار يومئذ ، واتهمني بالضعف ، وظنني أفعل ذلك معالة للعدو ، وأطاعه مولاي فأرسل هدية حقيرة أنفست هولاكو فكتب ما كتب »

وكان الداودار جالسا فلما سمع ذكر اسمه تصدى للكلام قائلا : « أظن الوزير يريد منا أن ندعن لهذا الطاغية ونسترضيه بكل ما عندنا ، ولو فعلنا ذلك لم يرد الا اعتوا وطمعا »

فقال الخليفة موجها خطابه الى الداودار : « وماذا يرى قائدنا الآن ، هل يذهب اليه بنفسه كما يطلب ؟ »

قال وهو يظهر الانفة والعظمة : « نعم اذهب اليه محاربا اذا شاء مولاي »

فاستغرب ابن العلقمي غرور هذا القائد ، وهو يعلم عجزه عن ذلك ، مع فراغ الخزائن من الأموال ، حتى اضطر الخليفة أن يقتصد من اعطيات الجند . وكان مؤيد الدين قد اشار عليه بذلك ليجمع مالا يرضى به التتر لعلمهم يعودون بلا حرب . وكان جيش بغداد ١٠٠.٠٠٠ فارس فسرح منه ٨٠.٠٠٠ واستبقى عشرين الفا والداودار يعلم ذلك . فهل يحارب التتر بهذا العدد ؟ . اما الخليفة فلم يكن يجهد هذه الحقيقة . فاجاب الداودار قائلا : « كيف تخرج لجبابرتهم وليس عندك الا عشرون الفا ؟ »

قال : « صدق أمير المؤمنين ، ان هذا العدد لا يكفي الآن لكننا نجند سواهم »

فقال : « هل يسهل التجنيد ؟ »

قال : « كيف لا ؟ . ان المال الذي أشار الوزير باقتصاده من أعطيات الجند يكفي للتجنيد . سامح الله الوزير ، انه أخطأ بأخذه بهذا الرأي ولم نستفد منه إلا نعمة الجند علينا »

فأراد الخليفة أن يدفع عن الوزير ، فتصدى أبو بكر وقال : « وما الذي بهم الوزير رضى الجند أو غضبوا ، إنما يهمه ألا يغضب هولاءو »



فكان لهذا الكلام وقع شديد على نفس ابن العلقمى ، وتذكر كتابه الضائع فخاف أن يكون لهذا الكلام علاقة به ، فأغضى من وقاحة ذلك الشاب الى مخاطبة الخليفة ، ثم أجاب الداودار فقال : « ان ما أشرت به من قبل لا أزال عليه حتى الآن . وما جمع لدينا من المال المقتصد لو استرضينا به هولاءو لرضى وكفانا مؤونة الحرب . أما الآن وأنت قائد الجند ، فإذا كنت ترى جندنا قادرًا على الحرب ، فالرأى راجع لأمير المؤمنين »

فنظر الخليفة الى ابن العلقمى وقال : « هل هذا هو رأى الوزير فيما نحن فيه »

قال : « نعم أرى ان نسترضى هولاءو بما أمكن غير الحرب »

قال الخليفة : « انه يطلب أن اذهب أنا اليه أو أنت أو الداودار »

قال : « يرسل المولى من شاء منها »

فقطع أبو بكر أحد كلامه قائلاً وهو يضحك متهمكماً : « أظن الوزير يتمنى أن يذهب هو بهذه المهمة لزيارة صديقه الخاقان » . وقهقه ضاحكاً

فاستغرب المستعصم هذا القول ، ونظر الى ابنه نظرة توبيخ على هذا المزاح ، فوقف أبو بكر وأظهر الجد وقال : « اتنى أقول الحق يا أبى . أسأل الوزير ألم يكن بينه وبين هولاءو صداقة ومراسلة ؟ »

فأجفل الوزير وترجع عنده أن أبا بكر مطلع على شيء مما بينه وبين هولاءو ، فأظهر أشمئزازه من ذلك الحديث والتفت نحو الخليفة معاتباً ، فالتفت الخليفة الى ابنه وقال : « لا محل لهذا الكلام يا أحمد الآن » . فعد أبو بكر يده الى جيبه وأخرج كتابه دفعه الى أبيه وقال : « وهذا الكتاب يشهد بذلك » . فتناول المستعصم الكتاب وقرأه ،

ثم نظر الى مؤيد الدين فرآه مطرقا ، فقال له : « اتعرف هذا الكتاب ؟ » .  
فراى من الحزم أن يتجلد فنظر الى الكتاب وقال : « اعرفه يا مولاي  
وقد كان معى وسرق منى »

فرماه المستعصم اليه وقال : « انه يؤيد كلام ولدنا ، ويدل ايضا  
على أن بينك وبين هولاءكو نزاورا »

فالتقط مؤيد الدين الكتاب وقال : « نعم يا سيدى ، لكن هل يدل  
على ائى متفق معه على عمل ، أم هو يشكو من رفض مطالبه ؟ »

فقال أبو بكر : « ولكن على كل حال يظهر مما فى آخره ان المخابرة  
بينكما قديمة . ألم يكن يجدر بك أن تطلع أمير المؤمنين على ذلك .  
ما أدرانا بما دار بينكما ؟ . والأرجح أنك متفق معه على تسليم البلاد  
اليه ، وانما اختلفتما فى كيفية تسليمها . ليس هذا شأن الوزير  
المخلص لمولاه كما تدعى »

فتحير مؤيد الدين بماذا يجيب ، وهم بالكلام فراى الخليفة يشير  
اليه أن يسكت ، وقد بان الغضب فى وجهه ثم قال : « صدق أبو بكر  
لم أكن أتوقع منك ذلك مع ثقى بك . كان ينبغى أن تطلعنى على  
ما يدور بينك وبين عدونا قبل الآن »

فأراد ابن العلقمى أن يدفع عن نفسه فأشار اليه المستعصم أن  
يسكت وقال : « طالما دافعت عنك وكذبت ما ينقلونه لى والتمست  
لك الأعذار . اما الآن فظهر لى أن كلامهم هو الصواب ، ولا أفهم  
لسكوتك عن اتصال هولاءكو بك معنى سوى أن لك فى ذلك غرضا أو  
مطمعا ، ولولا ذلك لأطلعنى على ما دار بينكما »

فلم يطق مؤيد الدين صبرا على السكوت فقال : « لم أر فائدة من  
اطلاع مولاي على ما يكرهه ، وانما يطلب منى أن أحافظ على الولاء له  
وإدافع عن مقام الخلافة . فهل فى هذا الكتاب ما يدل على خيانة ؟ فإذا كان  
فيه شيء من ذلك فالعبد رهين أمر مولاه »

فاعتدل المستعصم فى مجلسه وقال : « حسنا . وهل كان فى اطلاعى  
على مكان تلك الجارية ضرر أيضا ؟ »

فاستغرب مؤيد الدين قوله وقال : « أى جارية يا مولاي ؟ » .  
قال : « جارية أبى بكر الذى ذبح أهل الكرخ بسببها » . قال : « وما  
شأنها فيها نحن فيه ؟ »

فقال الخليفة : « ما كنت أظنك تجهل شأنها . ألم تكن تعلم ان  
مقتلة الكرخ إنما جرت بسببها لان أبى بكر علم انها مخبئة هناك وانكروها  
عليه ؟ » قال : « بلى ! » . قال : « وقد قلت لنا يومئذ أنك لا تعرف



منها شيئاً . قال : « نعم » . قال : « كيف تقول ذلك وهي مخبوءة في منزل ؟ » . فأجفل مؤيد الدين عند سماع ذلك وقال : « مخبوءة في منزلي ؟ » . قال : نعم . أو منزل بعض أهلك في الكاظمية . وقد استرجعها أبو بكر أمس بهمة الداودار »

فتذكر مؤيد الدين شوكار وأن سحبان أخذها من عنده ليخبئها في الكاظمية ، ولما تذكر ذلك سرى عنه لأنه سيفوز بها على أبي بكر لعلمه أنها جارية المستعصم وقد خطفها أبو بكر لنفسه ، فقال وهو يظهر الاستخفاف : « هل أمير المؤمنين واثق بما قيل له ؟ »

قال : « هذا أبو بكر ، وهذا الداودار ، وقد أتيا بها أمس من الكاظمية » قال : « هل رآها أمير المؤمنين ؟ » . قال : « لا . لم أرها ولكني لا أشك في صدقهما »

ووقف أبو بكر وهو يظهر الغضب وقال : « وهل أنا كاذب ؟ » . فقال له مؤيد الدين : « لا أعلم . ولكنني أعلم أني غير كاذب . وبما أنك وجهت الى تهمة الخيانة فيقتضى أن تثبت قولك بالبرهان . فاذا أثبتته فاني ملزم لحكم مولاي »

فقال أبو بكر : « لا حاجة الى اثبات ذلك فإنه ثابت عندنا جميعاً » وجلس وراح يتشأغل بقتل شارييه ويظهر الإزدراء ، وقد خاف أن يلج مؤيد الدين في طلب الجارية ليرأها أبوه فيفتضح أمره ، وندم على ذكر هذه الجارية لأبيه ، لكنه لم يكن يعلم أن مؤيد الدين مطلع على تاريخها



أما مؤيد الدين فازداد تمسكاً بقوله ووجه كلامه الى الخليفة وقال : « هل من ضرر اذا أمر مولاي أمير المؤمنين باحضار الجارية لنراها ونطلب شهادتها ؟ »

فقال : « لا ضرر من ذلك » . والتفت الى أبي بكر وقال : « أين هي ؟ » فأنظر الاشمئزاز من ذلك الطلب وقال : « ما الداعي لاستقدام جارية الى ديوان أمير المؤمنين ؟ وما هي أهميتها ؟ »

قال مؤيد الدين : « انها ذات أهمية كبرى ، لأن الوزير متهم بالخيانة والكذب بسببها ، فالطوبى لاثبات ذلك »

فنهض أبو بكر وهو يظهر عدم المبالاة وقال : « ليس امر هذه الجارية مهما ، وإنما المهم كتاب هولاء وقد اطلع عليه والدي وكفى » . قال ذلك وتحول وخرج بلا استئذان وأبوه ينظر اليه ، وقد سره خروجه

ثلا يفرط منه كلام يسيئه ، لكنه كان يحب بقاءه ليتحقق امر تلك الجارية فناداه وقال : « أحب ان نتم امر البحث في امر الجارية » . فقال : « لا اهمية لها . . وانا اسمح الوزير على خطيئته بشأنها » . فقال الوزير : « اما انا فلا اسمح نفسي . أحب ان تاتي الجارية وتثبت الخيانة على او على غيري ، وطلبى هذا حق »

فما زاد ابو بكر على ان ضحك ومشى وابوه يتبعه بنظره اما مؤيد الدين فالتفت الى الخليفة وقال : « يا امر مولاي باستقدام الجارية الى هنا ، وهذا الداودار يعرفها لانه كان مع الامير ابي بكر لما اخرجها من منزل بعض اهلى في الكاظمية كما يقول »

فالتفت الخليفة الى الداودار كانه باذن له في الكلام فقال مخاطبا الوزير : « وهل انت في شك من قول مولانا ابي بكر ؟ » . قال : « لا شك عندي في قوله ولا قولك ، لكنى التمس من مولاي الخليفة ان يامر باستقدامها » . ف اشار الخليفة الى الداودار قائلا : « لا ارى بأسا من استقدامها فافعل »

ولم يكن الداودار يعرف علاقة هذه الجارية بالخليفة ولذلك لم ير بأسا من احضارها ، فنهض وهو يقول : « انا ذاهب يا امر مولاي لاستقدام الجارية بدون ان استاذن الامير ابا بكر » . قال الخليفة : « افعل » . فخرج الداودار وظل ابن العلقمي جالسا يفكر فيما وفق اليه من التظلم على عدوه ، والخليفة مطرق لا يتكلم . ولم يمض كثير حتى عاد الداودار لان المنزل الذي وضعوا فيه شوكار كان قريبا من قصر التاج

دخل الداودار ووقف وقفة الظافر وقال : « ان الجارية بالباب ، هل ادخلها يا مولاي ؟ » . قال : « لتدخل »

فدخلت ومؤيد الدين ينظر الى الباب بلهفة مخافة ان يكون قد جاء بجارية اخرى غير شوكار ، فلما وجد انها هي انشرح صدره . اما شوكار فوقفت مطرقة ، فخاطبها الخليفة قائلا : « ألم تكوني مخبوءة في الكاظمية وجاء بك قائدنا هذا أمس ؟ » . قالت : « بلى يا مولاي » . قال : « ومن خباك هناك ، اسدقيني ؟ » . قالت : « وهل يجسر أحد على الكذب في حضرة امير المؤمنين ، خباني رجل اسمه سحبان » . قال : « ألم يكن الوزير مؤيد الدين الذي خباك ؟ » . قالت : « كلا يا مولاي ، ولم يكن يعرف اني مختبئة هناك » . قال : « الا تعرفين وزيرنا قبل الان ؟ »

فتحيرت في الجواب وتلعنمت لانها توسمت من وراء تلك الاسئلة سوءا يريد الخليفة بالوزير وهي لم تر من الوزير الا الخمر ، ولا تحب

مع ذلك أن تقص خبرها على الخليفة فارتجع عليها . فوقف مؤيد الدين وقال للخليفة : « يتفضل مولانا بالسؤال عن اسمها ومن أين أتت الى بغداد وما سبب مجيئها ؟ »

فقال الخليفة : « وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟ » . قال : « سري مولانا انه ذا علاقة كبرى بذلك ، وسيكشف له عن أمور جلية » . فقال الخليفة : « ها اسمك ، ومن أين أتيت ، ولماذا ؟ » . ففهمت شوكار من تعرض ابن العلقمي لهذا الأمر انه يريد لها أن تقول الحقيقة ، فقالت : « اسمي شوكار ، وقد جئت من مصر لأكون مغنية في قصر أمير المؤمنين » فلما سمع الخليفة قولها أجفل وخفق قلبه اذ ترجع له انها المغنية التي كان قد أضعافها ، فنظر الى مؤيد الدين ثم الى الداوداد وقد تولته الدهشة وأعاد السؤال عليها قائلا : « أنت شوكار جارية شجرة الدر ؟ » قالت : « نعم يا مولاي اني شوكار جارية شجرة الدر » . قال : « من أخذك مني ؟ وأين كنت كل هذه المدة ؟ »

قالت : « أخذني ابنك الأمير أبو بكر وأخفاني عنده »  
قال : « ألم تكوني أنت الجارية التي حدثت مقتلة الكرخ من أجلها ؟ »  
قالت : « أنا تلك الجارية يا مولاي ، وكنت قد فررت للنجاة بنفسى »  
قالت : « وكيف أخذك ابني وأنت محمولة الى ؟ »

قالت : « لما وصلت مع الركب الى قرب بغداد جاءنا جنود قالوا انهم قادمون من قصر أمير المؤمنين ليأخذوني اليه ، فدفعني الركب اليهم فأخذوني الى قصر عرفت بعد ذلك انه للأمير أحمد أبي بكر . »  
فأخذ الغضب من الخليفة مأخذا عظيما ، وندم الداوداد لانه تصدى لحمل الجارية الى هناك ، وأصبح خائفا على أبي بكر من غضب أبيه ، فوقع في حيرة ، وأعاد النظر الى تلك الجارية بدهشة . وظل مؤيد الدين ساكتا وقلبه يرقص فرحا لفوزه ، أما شوكار فقد عدت انتقالها من بيت أبي بكر الى بيت الخليفة فرجا وان كانت تفضل الانتقال الى مصر



وحينما تحقق الخليفة الواقع صفق ، فجاءه غلام فأومأ اليه ان يأخذ شوكار الى قصر التاج ويسلمها الى القهرمانه ويوصيها بها خيرا ، والتفت الى الداوداد وقال : « قد سمعت الآن ان الدين أعانوا أحمد على هذه الجريمة من الجند . أليق ذلك بالاجناد ؟ اليست هذه خيانة منهم ؟ »

فاعتبر الداودار هذا التوبيخ موجها اليه لانه القائد العام ، فاضطر  
في سبيل الدفاع عن نفسه أن يشكو ابن الخليفة فقال : « لم يفعل الجند  
ذلك بأمرى وإنما فعلوه بأمر الأمير أحمد أبى بكر ، وهل نستطيع أن  
نخالف له أمرا ؟ »

قال : « كيف لا ؟ اتطيعون ابنى في سبيل معصيتى ، وأنا لا أزال  
حيا ؟ »

وتحرك في مجلسه من شدة الغضب وأخذ يلهث وينفخ ويصر على  
أسنانه ، فخيل لمؤيد الدين أن أبى بكر لو كان حاضرا لأمر الخليفة بقتله،  
وود لو أنه يحضر، وإذا بالخليفة يقول للداودار : « أين أحمد الآن ؟ » .  
قال : « لا أعلم يا مولاي » . قال : « الى به حالا أينما كان » . فخرج  
الداودار ، ونظر الخليفة الى مؤيد الدين نظر الاعتذار لانه شك فيه  
وقال : « لقد أسانا الظن بك يا وزيرنا . جوزيت خيرا ، لماذا لم تطلعنى  
على خبر هذه الجارية من قبل ؟ »

قال : « لانى لم أعرف بها الا منذ أيام قليلة ، وقد قلت للذى قص  
على خبرها أن يخبئها في مكان أمين ريثما نطلع أمير المؤمنين على أمرها  
في فرصة مناسبة لا يدرى بها الأمير أبو بكر ، لأننا لو أردنا أن نفعل  
ذلك نعلمه لما نجونا من الأذى وهو ابن أمير المؤمنين والجند طوعا رادته »

فهر الخليفة رأسه وقال : « انا لله وأنا اليه راجعون . انى أخطأت  
باطلاق سراح ابنى هذا ، ولو كان محجورا عليه كما كان الأمراء قبله  
لما كان في مثل هذه الاخلاق ، ولما جر علينا هذه البلايا . لأحبسنه  
ولأحجرن عليه ولأعلمنه كيف يكون مطيعا . فبحه الله من ابن عاق »

. وبينما هما في ذلك اذ سمعا ضوضاء بالباب عرفا منها صوت  
أبى بكر وهو يقول بلحن الغضب : « أما كفاه من في داره من النساء  
حتى يطمع في جاريتى . دعنى ادخل » . وإذا بالحاجب يدخل وهو يقول :  
« أن مولانا أبى بكر ابن أمير المؤمنين بالباب ، هل يدخل ؟ » . فقال :  
« هل جاء وحده ؟ » . قال : « نعم » . قال : « وكيف ذلك ، اليس  
الداودار معه ؟ » . قال : « لا » . ولم ينتظر أبو بكر الاذن له في  
الدخول ، فدخل والغضب ياد في محياه ، فلما رآه أبوه داخلا استعاذ  
بالله وأبتدعه قائلا : « ما هذا يا أحد ، أهكذا يدخلون على أمير المؤمنين ،  
أين التربية ووقار الخلافة ؟ »

فجلس دون أن ينتظر الاذن ، وقال : « تسألنى عن التربية وأنا ابن  
أمير المؤمنين وقد ربيت في حجره ؟ ولعل ذلك من أسباب شقائى . .  
يحسدنى الناس على أن الخليفة أبى ولو علموا كيف يعاملنى لاشفقوا  
على » . قال ذلك واختنق صوته كأنه يجهش بالبكاء

فلما سمع المستعصم اجهاشه ولحظ شيئاً يتلالا في عينيه كالدمع  
خدغضبه وتغلب حنانه ، وأن لم يكن هناك ما يدعو الى الحنان والأسفاق ،  
وذلك لأن المحبة الأبوية لا تدعن للحقوق ولا تعترف بقواعد المنطق  
ولا تطلب البراهين ، وإنما هي حاكم مستبد أكثر أعماله لا تنطبق  
على القوانين ، وكثير منها يناقض المنطق ويخالف أحكام العقل . الأب  
يحب ابنه ويغار عليه ويرى فيه حسنات لا يراها الآخرون . وهو  
لا يحبه لأنه يرجو منه نقعا ، أو لأنه يستحق المحبة لفضائل فيه أو  
حسنات اتاها ، وإنما يحبه عفوا . يحبه لأنه ابنته ، ويزداد حبه له  
كلما شقى في تربيته ، ويزداد عطفه عليه اذا رآه حزينا . ان الوالدين  
ليس ادعى الى تحريك شفقتهم من أن يريا ابنهما باكيا وان كانا في  
أشد حالات الغضب كأن دموعه تقع على نار ذلك الغضب فتطفئها  
ويتصاعد دخانها فيفضي ما هناك من دواعي النقمة فلا يريان غير  
بواعث الشفقة والمعطف

وكان المستعصم من اضعف الآباء قلبا واكثرهم حنانا ، فاوشك أن  
ينسى أسباب غضبه على ابنه لكنه تجلد وقال : « أبئثل هذا تخاطب  
أباك ؟ هل يحق لك الشكوى من أبيك وقد منحك ما كان يشتهي  
أبناء الخلفاء قبلك ؟ كانوا مسجونين وانت حر طليق ولك الامر والنهي ،  
ألم تر الداودار ؟ »

قال : « لا . لم اره . لكنهم قالوا لي انه اتى قصرى وحل جاريتى  
فلم اطق الصبر على ذلك فجئت لأشكو اليك عمله . فاذا أنت تمن  
على بالحرية التي وهبتني اياها . وإى حرية هذه وقد ضمنت على  
بجارية مع كثرة الجوارى في قصرك ولكن . . . »

فقطع المستعصم كلامه قائلا : « لم أضن عليك بجارية ، لكننى عتبت  
عليك لأنك اختطفت جارية آتية من مصر باسمى »

فقال وهو يحول وجهه استخفافا : « آتية من مصر باسمك ؟  
انك لا ترى ياسا من اقتناء مئات الجوارى وتبعث في طلبهن من الأطراف .  
وابنك الشاب اذا أخذ جارية منهن اتهمته بالعقوق وشدت النكير  
عليه . لو كنت ابن أحد العلماء لم يفعل أبى معى فعل أمير المؤمنين .  
قال ذلك وغص بريقة وأظهر أنه ضاق صدره من الاجهاش وأنه انما  
يمسك نفسه عن البكاء حياء ثم قال : « ومع ذلك أنت أمير المؤمنين  
ولك الحق في أمور ليس لسواك الحق فيها . ونحن عبيدك وكل ما هو  
لنا طوع ارادتك . ولا يزال عندي بضع جوار آخر أبعث الداودار  
ليحملهن اليك . يا ليتك أبقيتنى أسيرا ولم ترنى نور الحرية . ان  
المولود في الظلمة لا يعرف لذة النور ولا يأسف لفرقه ، واذا كفت قد

ندمت على اطلاق سراحى فيها انذا بين يدىك احبسنى أو اقتلنى .  
والقتل خير لائى أريحك من المتاعب » . وأظهر أنه لم يعد يستطيع  
التماسك من البكاء وأخذ فى الشهيق ، وأوشك أبوه أن يشاركه فى ذلك  
أما مؤيد الدين فكان جالسا يسمع ويرى وقد أدهشه ما رآه من  
الانقلاب فى عواطف المستعصم ، فذهب فرحه بالفوز عبثا ، واكتفى  
بالنجاة من الغضب ، وود الخروج من ذلك المجلس ، ولكن لا يجوز له أن  
يستأذن قبل أن يرى الخليفة راغبا فى صرفه على عادة الخلفاء والملوك .  
فأخذ يتحرك فى مجلسه ليوجه التفات الخليفة الى صرفه ، وقد يكون  
الخليفة أكثر رغبة منه فى ذلك

لكن حركته لفتت انتباه أبى بكر فتحول نحوه وعاد الى الكلام  
فقال : « أنا لا أشك فى حب أبى ، ولكن الذنب كله على هذا الوزير  
الذى شب على كرهنا لانه علوى ولا يرى لنا الحق فى الخلافة » .  
ووجه خطابه الى أبيه وقال : « وأنى لاستغرب صبر والدي على رجل  
يكرهنا ويسعى فى خلع خلافتنا ويخاير الد أعدائنا سرا ، وأغرب من  
ذلك أنه صدق دفاعه عن نفسه » . ومد يده الى كتاب هولاء ، وكان  
ما زال فى يد مؤيد الدين ، فاخطفه منه بخسونة وفتحها وقال وهو  
ينظر فيه : « صدق دفاعه وظنه بريئا من المواطاة مع عدونا وهو  
يقول له فى هذا الكتاب انه صديقه ويشير عليه بارسال الرسالة كما  
قال له قبل ، الا يدل هذا على سبق المخابرة فى شأن الخيانة ؟ . ومع  
ذلك فان قول ابن الطقلى العلوى مصدق وقول أحمد مكذب » . وغاد  
الى البكاء

فتفطر قلب أبيه لبكائه ، ورأى مؤيد الدين فى وجهه الانصياع الى  
رأى ابنه ، فأسقط فى يده وتحقق أن سعيه ذهب سدى ، وود لو أنه  
يخفى من المجلس لئلا يسمع تائيبا من الخليفة نفسه ، فاذا هذا  
يقول : « سأنظر فى أمر أحمد والجاوية فى فرصة أخرى . أما من حيث  
مخابرة العدو فقد صدق أحدى مؤيد الدين . كيف صبرت على مخابرة  
ذلك العدو مدة ولم تخبرنا . انى واثق بامانتك ولكن للثقة حدودا  
تقف عندها . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا .  
قال ما قاله الآن من غضب »

فقطع أحمد كلام أبيه قائلا : « لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا . لا .  
سوء رأيى فى هذا الوزير من قبل وقد تحقق ظنى فيه اليوم »  
فلم يشأ الخليفة أن تنتهى الجلسة على هذه الصورة لانه يعتقد  
اقتدار وزيره ويرى نفسه فى حاجة اليه ، لكنه لم يستطيع أن يغالب  
عواطفه الأبوية ويجادل ابنه فأحب اقفال باب الكلام ، فأبدى إشارة

الصرف فوقف مؤيد الدين واستأذن في الانصراف وهو ساكت يفكر  
خرج الوزير وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما حتى أخطأ الطريق  
من الديوان الى موقف الدواب حيث كان غلامه في انتظاره ، ثم انته  
لنفسه فركب بقلته وسار قاضدا منزله وهو لا يكاد يرى طريقه لعظم  
ما جاش في خاطره من الأسف والياس والخوف . وتضاربت خواتره  
بين الانتقام والتربص حتى وصل الى المنزل فاستقبله قيم الدار على  
جاري المعادة ، فحالما وقع نظره عليه تذكر الملوك الذى كتب الرسالة  
على رأسه فسأل عنه فقال : « هو فى حجرى » . قال : « كيف  
شعره ؟ » . قال : « قد نما حتى كسا رأسه ، وإذا شئت أتيتك به  
الساعة »

قال : « أحضره » . ومشى الى غرفته وهو يفكر وخاطره مشتغل  
بما مر به فى ذلك اليوم ، وكلما تصور أبا بكر واحتقاره آياه أقشعر  
جسمه قشعريرة الحقد والغيظ والكراهية . فقع على سريره وهو  
مطرق ، وإذا بالقيم قد جاء ومعه ذلك الغلام يساق كالبهيمة ، وليس  
فيه من علامات الانسانية الا شكله الخارجى ونطقه اذا تكلم . فلما رآه  
مؤيد الدين نظر الى رأسه فرأى شعره قد نما وتكاثر ولم يبق شيء  
ظاهر من جلده ، فتفرس فى رأسه وهو يناجى نفسه قائلا : « أن تحت  
هذا الشعر رسالة اذا بلغت صاحبها أقام الدنيا وأقعدها وانتقم لى  
من ذلك المغرور الطائش . وما على اذا أنا أرسلتها الى هولاء ؟ أن  
الرجل قادم النبالا محالة وهو فاعل ما يريد ، ولا ريب عندي بفوزه ،  
فإذا أرسلت اليه دعوتى هذه على رأس هذا الملوك ضمنت حينئذ  
وحياة من أحب من أهلى وأصدقائى . ولو علمت أننا قادرون على دفع  
هولاء ورجاله لم أكن لأبالي بجهالة هذا الفر واستخفافه ، بل كنت  
أدافع من أمتى وبلدى وأغضى عن ضعف الخليفة وطيش ابنه . ولكن  
انى لنا أن ندفع التتر وليس عندنا الا عشرون الفا قلوبهم متفرقة  
ونياتهم متناقضة . إذن . . » . ووضع سبابتة على ذقنه كما يفعل  
التمامل ثم رفع بصره الى قيم القصر وقال : « أرسل هذا الغلام فى المهمة  
التي تعرفها »

فحقق قلب القيم فرحا لأنه كان كثير الرغبة فى الانتقام من الخليفة  
فنادى الغلام اليه فتبعه ، فلما خلا به أفهمه أن مولاه الوزير يريد منه  
أن يذهب إلى هولاء خاقان التتر ، ويقول له أنه قادم من وزير بغداد  
وكفى . ومضى عاد نال المكافأة الكبرى ، ففرح الغلام ومشى كالشاة  
تساق الى الذبح

## شوكار في دار النساء

ذهبت شوكار مع غلام الخليفة الى دارالنساء ، برغم ارادتها ، لكنها كانت تفضل ان تكون فيه على ان تبقى عند أبي بكر . وكانت قد قضت فترة وجودها عنده وهي في حرب دائمة معه ، لانه يريد لها لغير الفناء وهي تآبى ذلك ، ولاسيما بعد ان جاءها كتاب ركن الدين مع الخصي عابد البصري رسولها اليه الذي كتبه وهو نافر من سعاية سلافة في شوكار ، ولم يكن سعيها فيها الا ليزيده تمسكا بحبها ، فكتب اليها كتابا ضمنه العطف عليها والوعد بانقاذها ، فجاءها الرسول بالجواب المذكور وهي في حوزة ابن الخليفة ، فاحتالت حتى ادخلت عابدا في خدمته لعلها تحتاج اليه في شيء بعد ان اختبرت امانته ، وهو الذي اعانها في الفرار الى الكرخ وجرى بسبب قرارها ما جرى من القتل والنهب ، وخرج معها الى الكاظمية ، ولما استرجعها ابو بكر الى منزله كان عابد لا يزال فيه . ثم بعث المستعصم في طلبها فجاءت وحدها وامر الخليفة بارسالها الى دار النساء كما رايت

وقبل وصولها الى الدار بلغ اهل القصر ان الجارية المغنية التي كانت مرسلة الى الخليفة واختطفها للصوص قد وجدت وجيء بها الى قصر التاج ، وانها قادمة الان الى دار النساء . فلا تسل عن تجمع لمشاهدتها من الرجال والنساء . وكان في قصور النساء هناك مئات من السرازي والجواري على اختلاف الطبقات والاغراض ، فجاء كثير منهن الى قهرمانه القصور يستوضحن ما سمعن عن شوكار ، وقد اختلفت الروايات في شكل هذه الجارية وطول قامتها او قصرها ودرجة رخامة صوتها وغير ذلك مما تصوره المخيلة في مثل تلك الحال

وكان اكثر النساء اهتماما بامرها المغنيات ، لان شوكار قادمة لمناظرتهن في عملهن ، فاجتمعن وتحدثن في امرها وما وصل الي علمهن من الاقاويل عنها . وهذا طبيعي في الناس ، وبخاصة في ذلك العصر ، وبين نساء لا عمل لهن غير امثال هذه الاحاديث . اذ لا يشغلن عن ذلك كتاب ولا جريدة ولا مجلة ولا مدرسة ولا خطاب ولا اجتماع علمي ولا ادبي ، مما قد يشغل نساء هذا العصر . وانما همهن كله هذه الاحاديث



## والمباراة في التبرج لاجتذاب قلوب الرجال

وأول من لقيته شوكار هناك أستاذ الدار ( رئيس الحصيان ) ، أخذت إليه وهو متصدد في غرفته فقبلت يده ووقفت باحترام تنتظر أمره ، وهو الأمر الناهي في تلك القصور ، وذو نفوذ كبير في الشؤون السياسية ، كما كان شأن بعض أفوات بلد في زمن عبد الحميد . وبعد أن قدمت نفسها لأستاذ الدار واستفهم عن اسمها وعمرها ويوم وصولها وسائر الاوصاف المميزة لها أمر بتدوين ذلك في أماكنه لئلا يختلط أمر النساء بعضهن ببعض لكثرتهم . وقد تشابه الاسماء

ثم أخذوها الى قهرمانه الدار وهي كهلة رهلة قد تراكم اللحم على بدننها مثل تراكم المصوغات والمجوهرات حول عنقها وزندنها ، وعليها أفخر اللباس ، وهي في تلك الدار كالملكة ، ليس في الجوارى والسراى من لا يتزلف اليها ويخطب رضاها بالمحاسنة والمجاملة والهدايا . مشيت شوكار وهي مطرقة حياء لكثرة من لقيتهم في طريقها من الحصيان والجوارى وقوفا في الدهاليز والابواب بتغرسون فيها ويتهامسون . فلما أقبلت على غرفة القهرمانه رأت الحصيان يبأبها كالحراس بآبواب الملوك ، فدخلت تلك الغرفة وتلفتت لتتعرف الوجوه ، فعرفت القهرمانه من مجلسها المرتفع ولبسها الفاخر : فمشيت نحوها حتى اذا دنت منها أكبت على يدها قبلها ، فقبلتها القهرمانه وأمرتها بالجلوس الى جانبها ، وأخذت ترحب بها بعبارات مألوفة في مثل تلك الحال ، لو تليت على انسان لم يألها لظن قائلها أشد الناس مودة له وتفانيا في مصلحته ، لكنها على طول التكرار أصبحت لا معنى لها ، أو أن لها معنى يناقض أصل المراد بها .

فاستأنست شوكار ونظرت الى ما في تلك الغرفة من الرياش الفاخر ، وتاملت حال أهل ذلك القصر من الرخاء والتنعيم ، فاوشكت أن تؤثر القام هناك على الاجتماع بركن الدين . ثم ناداها قلبها فاصفت الى ندائه ، ولسان حالها يقول : « ليست السعادة بالرياش والمجوهرات وانما هي في الحب » . ثم سمعت القهرمانه تنادى بعض الحصيان وأمره أن يهيه لغنية الخليفة غرفة فيها كل أسباب الراحة . والتفتت الى شوكار وقالت : « تمكثين هنا ريثما تنهى الغرفة كما يليق بك ، انى في انتظار قدمك من أمد طويل ، وقد شغل بالنا خوفا عليك ، فحمد الله على سلامتكم »

فأجابتها شوكار شاكرة وقالت : « انى لا استحق هذا الالتفات يا سيدتى ، ما انا الا جارية حقيرة »

فأجابتها القهرمانه ( أو القيمة ) وهي تضحك : « أنت تظنيننى

لا اعرفك قبل الآن ، ولكنى اعرفك من عهد بعيد ، واعرف كل شيء عنك ، عرفت ذلك من صديقتى قهرمانة الملك الصالح صاحب مصر رحمه الله . اتعرفينها ؟ »

فتذكرت سلافة وما بينها وبين سيدتها شجرة الدر من المنافسة ، ولم تكن تعرف لها هذه المنزلة لدى قيمة قصور الخليفة فقالت : « أظنك تعنين سلافة . نعم اعرفها يا سيدتى ولم أكن أظنها تعرفنى » قالت : « بالعكس ، انها تعرفك جيدا ، وهى التى لفتت انتباهى الى رخيم صوتك ، وانك تليقين بمجالسة مولانا أمير المؤمنين ، فأشرت على مولانا باستقدامك ، فطلبك من سلطان مصر كما تعلمين »

فأحسست شوكار بفضل سلافة عليها ، ولكنها كانت تفضل الخروج من ذلك القصر ، غير انها نظرت فى الأمر من حيث قصدتها فقالت : « الحقيقة ان حسن ظن السيدة سلافة منة كبرى يجب ان أشكرها عليها ، ولو عرفت ذلك لشكرتها وأنا فى مصر » . قالت : « ويمكنك ان تشكرها هنا » . قالت : « وهل هى هنا الآن ؟ » . قالت : « هى هنا منذ بضعة أيام »



استغربت شوكار هذه المصادفة ، وبان البشر فى يحياها ، وسبق الى ذهنها حسن الظن ، وتصورت ان وجود سلافة هناك سيكون أكبر تعزية لها ريثما تستطيع التخلص ، وخيل لها ان سلافة ستكون عوناً كبيراً لها فى ذلك فقالت : « الله ما أسعد حظى . أين سيدتى سلافة حتى أقبل يدها وأشكر لها صنيعها »

قالت : « سترينها بعد قليل ، وقد سألت عنك ساعة وصولها من مصر فأخبرتها عن ضياعك فتأسفت ، ولما جاءتنا البشارة الآن بوجودك أخبرتها ففرحت فرحاً عظيماً وهى آتية الساعة . هذه جاريتها قادمة . أين سيدتك يا اقحوانة ؟ »

فاجابت الجارية : « انها فى غرفتها يا مولاتنا ، وقد بعثتنى لأدعو القادمة الجديدة أيتها لتتمتع برؤيتها فأنها فى شوق اليها »

فضحكت القهرمانة حتى بانَت بقايا أسنانها وما يتخللها من الفراغ فى أماكن الأسنان المقلوعة وقالت : « هل تريد ان ترسلها اليها لترأها قبل ان يراها أمير المؤمنين ؟ »

فقالت الجارية : « هذا ما قالت مولاتى ، والأمر لك »

قالت : « لأبأس . ان ضيفتنا شوكار ذاهبة معك للقاء صديقتنا

سلافة لانها في شوق لرؤيتها وتقديم شكرها لها . وقولها لها ان لا تطيل المقام فلا بد من ارسالها الى الماشطة بعد قليل لاصلاح شأنها بحيث يليق بها الجلوس بين يدي مولانا الليلة لسماع صوتها الرخيم : ولا اقلنه يصبر على الانتظار الى الغد . . . قومي يا شوكار الى سلافة . . . واحب ان تستأنس بنا وتثقى بي فانك كاحدى بناتي»

نهضت شوكار ومشيت في اثر الجارية اقحوانة ، وهي تمر من معمر الى معمر ، والغرف على الجانبين . وشعرت ان في تلك الغرف اناسا يتشوقون الى رؤيتها ، فعنى الجوارى او السرارى ، فتري الابواب بين مفتوح ومشفوق ، والرؤوس تطل لمشاهدتها ثم ترجع خلسة ، حتى وصلت الى غرفة سلافة . فتقدمتها اقحوانة واعلمت سيدتها بمجيء شوكار ، فلما اطلت شوكار على مجلس سلافة تصاعد الدم الى وجهها خجلا وفرحا ، اذ شعرت بان هذه السيدة ارادت الاحسان اليها بارسالها الى بيت الخليفة وان كان ذلك لم يوافق حالها ، فلما شاهدتها سلافة مقبلة نهضت لها وتقدمت لاستقبالها ببشاشة وترحاب زادا الفتاة خجلا ، لانها تعرف منزلة تلك السيدة في قصر الملك الصالح بمصر وقصور المستعصم في بغداد ، فاكبرت تواضعها وعطفها واكبت على يدها تريد ان تقبلها . فمتمعتها من ذلك وهي تقول : « مرحبا بالعزيزة شوكار ، واشكر الله ان رايتك في هذا القصر ، فقد طالما تمنيت لك هذه السعادة . هل انت مسرورة يا شوكار ؟ » واومات اليها ان تقدم على وسادة بجانبها ، فجلست شوكار وهي تقول : « اشكر لك غيرتك وقضلك يا سيدتي . انى في سعادة بحمد الله و . . »

فقطعت سلافة كلامها قائلة : « ولكن ساعني انهم اختطفوك في اناء الطريق ، واليوم عرفت سبب ذلك ، فالحمد لله على سلامتك . . . كم انا مسرورة بقبلك ، ومهما يكن من حظوتك بالقدوم الى بغداد والمكوث في دار الخليفة فان الخليفة اكبر حظا منك بالحصول على مغنية ليس في العراق ولا مصر ارحم صوتا منها »

فاطرقت شوكار وعيناها ولسانها ينطقان بالشكر ، وقلبا ينكر ذلك الفضل ، لانها كانت تؤثر البقاء بقرب ركن الدين ، ولو في سجن ، على وجودها بعيدة عنه في قصر الخليفة

ولم تكن سلافة تجهل ذلك لكنها خاطبتها بما قد تتوقعه منها ، لان شوكار لم تكن تعلم شيئا مما دار بين حبيبها ركن الدين وهذه المرأة ، ولو علمت الغرض الذي حلها على الجيء الى بغداد لاقشعر بدننها وكرهت النظر اليها ، فان سلافة قد تركت مصر بعد حديثها مع ركن الدين الذي غادر دارها وقد اغضبها لانه لم يطعها فيما

أرادته منه ، فتركته واقفا ومشيت بعد أن رمته بنظرة كالسهم وقالت :  
« سر بحراسة الله . سر الى فراشك أيها الأمير . ولا تظن فشلي  
هذا يذهب عينا »

قالت ذلك يومئذ وقد أثار باعراضة نعمتها منه ، وانقلب حبها بغضا  
ولكنها رأت أن تتربص عساه أن يرجع الى صوابه ويتحول عن  
حب شوكار والاعمدت الى اذاه . وما زالت تبث الجواسيس لاستطلاع  
مقاصده حتى علمت عزمه على السفر الى بغداد ، فأسرعت اليها  
لتستقصي أخباره وتري ما يكون من أمره . وكانت قد سمعت بضياغ  
شوكار ، فلما عادت ووجدتها حية أخذت تفكر في حيلة أخرى ، وهي  
تعتقد أن وجود هذه الفتاة حية يقف في سبيل فرضها . ومن أخلاق  
هذه المرأة أقدامها على عظام الأمور ، بلا دهاء أو تدبير سابق يضمن  
نجاحها ، فإذا خطر ببالها أمر أقدمت عليه

فلما سمعت شكر شوكار لها ، وعلمت حسن نيتها ، وإنها لا تعلم  
بما دار بينها وبين ركن الدين ، استسهلت تنفيذ بغيتها ، فظهرت أنها  
مسرورة جدا ببقائها ، وخطر لها أن شوكار قد تفضل البقاء في دار  
الخليفة على الاقتران بركن الدين ، فاجبت أن تستطلع رأيها في ذلك  
فقالت لها : « يظهر أنك نسيت مصر وأهلها . . لك حق فان المقيم في  
هذه القصور بجوار أمير المؤمنين لا تخطر مصر بباله » . قالت ذلك  
وجعلت تتفحص ما يبدو منها ، فتحيرت شوكار بماذا تجيبها ، والمحـب  
حريص على سره لا يفشيـه الا لمن يعتقد إخلاصه وصدق مودته ، وقد  
سبق الى ذهنها أن سلافة تجبها ، بدليل سعيها لها في هذه النعمة بما  
لها من النفوذ في تلك الدار ، فتصورت أنها اذا شكت اليها حقيقة  
حالتها فربما ساعدتها على التخلص من بغداد والرجوع الى مصر ،  
فترددت في الجواب ، وبان التردد في عينها ، ولحظت سلافة ذلك فيها  
فقالت لها : « ما بالك لا تتكلمين يا حبيبتي ؟ قولي . . يظهر أنك  
تستحيين مني أو لا تثقين بي »

فخجلت شوكار من هذا التوبيخ وقالت : « كلا ياسيدي ، اني أقدر  
تنازلك حق قدره ، ولولا حبك لي لم تسمي لي في هذه السعادة ،  
ولكن . . » . وسكنت

فقالت سلافة : « ولكن ماذا يا شوكار ؟ ألم اقل لك أنك لا تثقين بي ؟ »  
قالت : « العفو ياسيدي ، لكنني استحي أن أقول ما في خاطري  
لئلا تضحك مني . . »

قالت : « أضحك منك ؟ لماذا » . فاطرقت وقد توردت وجنتها  
وجعلت تتشاور بطرف جديلتها تلفها على سبابتها ، ثم قالت : « ان

الإقامة في هذه القصور تشتهيها كثيرات ، وربما حسدن عليها ، لكنني  
أفضل الرجوع الى مصر »

فاظهرت سلافة الاستغراب وقالت : « ترجعين الى مصر ؟ وما  
الذي خلفته هناك ، الا أن تكوني مخطوبة لأحد ؟ . حتى هذا  
فانك تجدين بدلا منه في بغداد . وإذا سمع الخليفة غناءك ومهارتك  
في ضرب العود وربما أصبت نصيبا لا يتيسر لك مثله في مصر »

فكانت شوكار بكل بساطة وأخلاص : « ليست السعادة في قربي  
من الخلفاء ولا بالتزوج من أمير أو شريف ، وإنما هي في الحب المتبادل » .  
قالت ذلك وتورد وجهها حياء ، فحولته الى ستارة معلقة بالحائط  
عليها صور بعض الطيور وتشاغلته بالنظر اليها

فابتدتها سلافة قائلة : « اذا كنت عالقة القلب ببعض الشبان في  
مصر فأحذري ولا تنخدعي . قد يكون ذلك الشاب حينما علم بسفرك  
تزوج غيرك . وهبى أنه تزوجك فليس أسهل على الرجال من الطلاق .  
لا تنقئ بأحد منهم ، أقول لك هذا عن اختبار »

فابتسمت شوكار ابتسام النصر لثقتها بحبيبها وقالت : « ان  
الشباب الذي أحبه على خلاف ما تقولين ، وأنا واثقة من ثباته على  
حبي . وقد يأتي الى هذا البلد لا تقاذي »

فضحكت سلافة باستخفاف لتحمل شوكار على التصريح بما في  
قلبيها ، وهزت رأسها عن الإنكار وسكتت ، فقالت شوكار : « أؤكد  
لك بأسيدتي أن خطيبى هو كما أقول لك ، ولو عرفته لوافقتنى على  
رأىي »

فأجبت سلافة أن تتبع الحديث الى آخره فقالت : « ما اسمه ؟ » .  
واخذ قلبها يخفق لعلمها بالجواب قبل سماعه

فقالت شوكار : « هو الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، ولا  
شك أنك تعرفينه ، فهل الأم على حبه ؟ » . قالت ذلك وأبرقت  
عينها وأكبت على يد سلافة قبلها وهى تقول متضرعة : « بالله  
يا سيدتى ساعدنى ، فليس في الدنيا أحد يقدر أن يحقق لى هذه  
الأمنية سواك . أنت جئت بى الى هذه المدينة ، وأنت وحدك تقدرين  
على أرجاعى الى مصر . » وشرقت بدموعها

وكانت سلافة حالا سمعت اسم ركن الدين قد هاجت عواطفها  
وزادت نغمتها وبشيت من النجاح في هذا السبيل ، فتظاهرت بالحنان  
عليها وتلطفت اليها وقالت : « نعم أعرف الأمير ركن الدين ، وهو من  
خيرة الامراء ، وإذا كنت على ثقة من حبه فانى أبذل جهدى في مساعدتك  
لانى أحبيتك كثيرا ولا غرض لى الا راحتك وسعادتك »

فلما سمعت شوكار كلامها اعتقدت صدقه ، فاخترج قلبها في صدرها من الفرح وقالت وهى تضحك : « صحيح ؟ ! صحيح ما تقولين ؟ ! ترجعيني الى مصر ؟ ! شكرا لك يا سيدتى ، اسرعى في انقاذى » . وهمت بتقبيل يدها فمنعته وضمتها الى صدرها تحببا . ولو علمت شوكار بما يكنه ذلك الصلر نحوها لاجفلت وتراجعت ، لكنها صدقت واعتقدت قرب الفرج

أما سلافة فقالت : « يصعب انقاذك سريعا .. وانت لم يرض عليك يوم بقصر أمير المؤمنين الذى امر باصلاح شأنك ليسمع صوتك في هذه الليلة .. كوني مطمئنة ، انى لا ادخر وسعا في اجابة طلبك ، ولا بد من حيلة ادبرها لك »

فاحست شوكار بارتياح كثير ، وعولت في نجاتها على سلافة ، وشكرت الله لالتقائهما



والتفتت سلافة اليها بلهفة كأنها استدركت شيئا فاتها ، او انها وفقت الى رأى جديد وقالت : « اسمى يا عزيزتى اذا لم يكن بد من الرجوع الى مصر فالأوفق أن نبدا بالسعى من هذه الساعة . أما بعد أن يسمع أمير المؤمنين صوتك فسيصبح الخروج صعبا » فتأكد لدى شوكار صدق رغبتها في انقاذها فقالت : « وما هو الرأى يا سيدتى ؟ انى رهينة اشاركك افعل ما تأمرين به »

قالت : « ارى أن تبذنى من الآن فتشكى من صداع في رأسك وألم في حلقك ، وأنا ارفع خبر ذلك الى القهرمانة وأقنعها بصحته ، ثم احتال في نقلك الى قصر آخر اهداه الى الخليفة لاقيم فيه على مقربة من قصر التاج ، ومتى صرت هناك هان انقاذك »

فخدمت شوكار بهذا القول ، واستبشرت به ، ورات فيه سبيلا لعودتها الى حبيبها ركن الدين ، فانحنى على قدمي سلافة تحاول ان تقبلهما وقالت : « شكرا لك يا مولاتى .. شكرا لك .. انى اشعر بالصداع من الآن .. » . فتناولت سلافة منديلا عصبته به رأسها ، وصفتت ، فجاءتها اقحوانة وهى تقول : « أن مولاتنا القهرمانة استبطات شوكار فبعثت في طلبها لأن أمير المؤمنين أت بعد قليل »

فقال : « انظرى ، انها مريضة تشكو صداعا شديدا وألما في حلقها وقد تعبت في معالجتها ، فالأحسن أن تعتلر القهرمانة الى أمير المؤمنين من غيابها ريشما تشفى » . فذهبت اقحوانة الى القهرمانة بالخبر ،

فأسرعت هذه لمشاهدة شوكار وهي تقول بصوت جهورى خشن :  
« كيف ذلك ؟ .. مولاى الخليفة يأتى بعد قليل .. وقد قضى زمنا  
طويلا فى انتظار هذه المغنية .. فكيف تمرض فى ساعة وصولها ؟ »

ولما وصلت الى غرفة سلافة رأت شوكار مستلقية على الارض  
وهى تصبح من شدة الألم وقد تغير لونها ، فلم يسعها عند رؤيتها  
الا الاشفاق عليها ، ونظرت الى سلافة فرأتها شديدة الاهتمام بها  
والحنو عليها فقالت لها : « أحب أن أنقل هذه المسكينة الى دار المرضى  
ليعودها الطبيب ثم .. »

فقطعت سلافة كلامها قائلة : « لا ، لا ، لا تنقلها الى مكان ، دعينى  
أهتم بامرها . دعى ذلك لى .. » . قالت ذلك وهى تهتم بتغطية  
شوكار وتلمس جبينها وخديها ثم قالت : « دعى امرها لى ، وإذا  
اقتضت الحال نقلها نقلتها الى قصرى ، لأن موقعه يساعد على سرعة  
شفائها »

فعدت القهرمانة وهى تهىء الأعدار للخليفة لتخلف مقبته بعد  
أن منى نفسه بها على اثر انتظاره الطويل للحصول عليها . وقبل  
وصولها الى غرفتها جاءها رسول الخليفة يدعوها اليه ، فذهبت  
مهولة الى غرفته فوجدته يعد نفسه للذهاب الى المنطرة ، وقد أخذ  
يلبس ثياب المنادمة . فلما وقع بصره عليها صاح بها : « أين المغنية  
الجديدة ؟ لقد ظفرتنا بها بعد طول الانتظار ، والحمد لله . هل جربت  
صوتها ؟ . هل اسمعتك اياه ؟ يقولون انها أرخم النساء صوتا وأتقنهن  
صنعة ، قد آن لى أن استريح من مهام الدولة ومتاعنها ، سامح الله  
أبا بكر انه سبب هذه المتاعب كلها » . واسترسل المستعصم فى الكلام  
وهو واقف والمخادم يساعده على لبس الفلانة ولف العمامة الصغيرة ،  
والقهرمانة واقفة تنتظر سكوته لتجيبه على أسئلته . فلما سكث  
قالت : « ان جاريتك شوكار مريضة الآن »

فصاح فيها : « مريضة ! لقد رأيتها اليوم فى عافية . متى مرضت ؟ »  
قالت : « كانت فى خير ، لكنها أصيبت منذ ساعة بصداع شديد  
كاد يقتلها ، وقد أهتمت بجاريتك سلافة بامرها »

فقطب المستعصم حاجبيه ، وكان المخادم الواقف بين يديه يناوله  
منطقة من الحرير ليتمنطق بها ، فتناولها ورمى بها الى الارض ، وألقى  
نفسه على المقعد كأنه يستريح من تعب ، وتنهّد وقال : « يا الله من  
سخرية القدر ! لقد تشاءمت من هذه الجارية ، فأنها منذ خروجها من مصر

وامورها معرقة ، ولما ظفروا بها مرضت ، وأخاف أن تكون شوما  
علينا فيما نحن فيه . » واطرق لحظة ثم قال : « يا ليتها ظلت عند  
أبي بكر ولم تغضبه لأجلها ، وهل تظنين مرضها يطول ؟ » . قالت :  
« أنها تشكو صداعا والمأ في حلقها ، والأمل أن تشفى في يومين أو بضعة  
أيام . وإذا لم تشف فغيرها خير منها . . ان الجوارى المغنيات كثيران  
في خدمة أمير المؤمنين . . هل يامر بتهيئة سواها ؟ »

قال : « هيثى من شئت منهن . . انى في حاجة الى الراحة بعد تعب  
هذا النهار . هل علمت ماذا جرى لنا اليوم مع أبي بكر ؟ »

قالت : « انه غضب للهاب شوكار من يده ، وقد أخطأ لأنه اخذها  
وهو يعلم انها محمولة لمولانا أمير المؤمنين . لكنه فعل ذلك بدالة الابن  
على أبيه . . » . وقد استرضته بهذه العبارة . وهو انما سألها هذا  
السؤال ليسمع منها هذا الجواب ، لأن قلبه ما زال مشغولا من جهة  
ابنه ، يتنازع في شأنه عاملان : أحدهما النعمة عليه لأنه تجاوز حدوده  
وتعدى على حقوق أبيه ، والثاني عطفه عليه ورغبته في إرضائه ، والعامل  
الاخير اشد ظهورا وأكثر تسلطا على قلبه . وهو يعلم ان تلك القهرمانة  
تحب أبا بكر ، او هي تعرف حبه اياه فلا تجيب الا بما يخفف من غضبه  
عليه ، فسألها ذلك السؤال ولم يكن عنده ريب في اطلاعها على ما جرى  
في جلسة ذلك اليوم وان كانت في دار النساء . فانها كانت كثيرة  
التدخل في شؤون الدولة والاطلاع على ما يجرى منها ، لان المستعصم  
كثيرا ما كان يذكر ذلك بين يديها على سبيل التفاخر ، فاصبحت  
كثيرة النفوذ عنده شأن الدول في عهد انحطاطها

فلما سمع الخليفة قولها عن أبي بكر سرى عنه وقال : « صدقت  
انه فعل ذلك بحسن نية ، وقد جراه عليه الداودار . . وكان ينبغي لهذا  
أن يردعه ويقف في وجهه »

ولم تكن القهرمانة تحب الداودار لأنه جندي خشن لا يحترمها ،  
فلما سمعت الخليفة ينتقده وافقته وقالت : « طبعا كان يجب على  
الداودار أن يردعه . . لكنه يفعل ذلك بدالته على أمير المؤمنين لأنه  
قائد جنده . . وتلك دالة كاذبة ، اذ يستطيع أمير المؤمنين أن يبدل  
بداوداره أحسن منه . . لكنه لا يبدل بابنه سواه . . » . قالت ذلك  
وضحكت إعجابا بهذا التعبير ، وأظهرت انها تهتم بالخروج لتهيئة  
جلسة القناء ، فأجابها بضحكة من نوع ضحكتها وقد فهم قصدها ،  
وهي تعنى أن يعزل الداودار وقال لها : « ابعثى الى أبي بكر ليحضر



هذا المجلس معنا . عسانا أن نعوضه ونرضيه فأشارت إشارة الطاعة  
وانصرفت



تركنا مؤيد الدين في داره وقد بعث رسوله الى هولاء بعد أن  
بش من الإصلاح ، على انه ظل برهة بعد ارسال الفلام وهو غارق  
في التفكير ، تتناوبه المخاطر المتضاربة بين ندم وارتياح ، لكن الارتياح  
كان غالبا عليه لأنه لم يقدم على مخابرة هولاء الا بعد تردد طويل .  
قضى ذلك اليوم ولم يخرج من منزله ، ومضت أيام آخر وهو لا يريد  
أن يرى أحدا ولا أن يخاطب أحدا لعظم قلقه وفظاعة ما أقدم عليه ،  
وازداد قلقه لأن الخليفة لم يسأل عنه ، ولم يدمه اليه ، فعذ ذلك  
تغيرا عليه ، ففضل البقاء في منزله كالمحاصر ريثما يرى ما يحدث

وأصبح ذات يوم فإذا بطارق يطرق الباب ، فعرف من طريقه انه  
سحبان ، وكان قد طال غيابه هذه المرة حتى قلق عليه ، فلما  
راه مقبلا رحب به وأشار اليه أن يقعد ، ورأى في وجهه تغيرا فقال :  
« ما وراءك يا سحبان ؟ أراك متغيرا »

قال : « وأنا أراك متغيرا أيها الوزير .. ولا عجب اذا رأيت في تغيرا ،  
فانا اذا بقينا على رأيك ، فنحن متغيرون جميعا .. بل نحن منتقلون  
الى الدار الآخرة عما قريب » . قال ذلك وتشاغل بعض شغفه السفلى  
كانه يفكر

فأدرك مؤيد الدين أن سحبان ينتقد صبره على المستعصم ومحافظته  
على ولائه الى هذا الحد فضحك وقال : « الانتقال الى الآخرة خير لنا  
من هذه الدنيا » . قال : « نعم ، ولكننا لا ينبغي أن ننتقل قبل أن  
ننتقم » . قال : « لك على ذلك »

ولم يكن سحبان يتوقع سرعة الموافقة ، فاستغرب جوابه وقال :  
« ومتى ؟ » . قال : « بعد بضعة أيام »

فدهش سحبان ونهض فجأة متاثرا وقال : « ماذا تعني ؟ !  
اظنك لم تفهم مرادى » . قال : « كيف لا ؟ ألم تقصد التخلص من  
أولئك القوم ، ولو استنجدنا عليهم الغريباء ؟ » . قال : « بلى ! » .  
قال : « قد فعلت .. فاصبر لنرى النتيجة »

فتلفت سحبان حوله خوفا من أن يسمعه أحد وقال : « استنجدت  
هولاء ؟ . كتبت اليه أن يأتي ؟ ! » . قال : « لقد فعلت ذلك ..  
وكنت أنتظر مجيئك قبل الآن لأخبرك وأرى رأيك .. »

فقطع سبحانه عليه كلامه وصاح : « وهل لي رأى غير ذلك ؟ ! هذه هي أمنيته ، إذا حصلت عليها لأبالي أن أنا مت الساعة . . وقد جئتك الآن بأمر جديد مهم لكنه لا يقف في سبيلنا » . قال : « وما هو ؟ » . قال : « الأمير أحد الذي سميناه الإمام . . أنت تعلم أنني بعد أن أتيت به الى هنا أرجعته الى حيث كان في قصر الفردوس . وكان القوم أدركوا قصصنا ، أو لعلم علموا بخروجه وارتابوا في حرس قصره ، فنقلوه الى قصر آخر » . قال : « أى قصر ؟ » . قال : « نقلوه الى قصر قرب باب كواذى في الجنوب ، وأقاموا عليه الحراس وشددوا التضييق عليه . . » . قال : « هو الآن في كواذى ؟ ولماذا فعلوا به ذلك ؟ »

قال : « فليفعلوا ما يشاءون ، انه خليفتنا حيثما كان ، وهل يصعب علينا اخراجه من سجنه متى تم لنا ما نطلبه ؟ ! اذا دخل التتر بغداد وقبضوا على هذا الخليفة فستكون أنت معهم فترشدهم الى الامام أحد فيولونه الخلافة . . آه ما أجل ذلك اليوم السعيد ! وأسعد منه أن نعيد دولتنا العلوية . . هذه هي أمنيته الحقيقية »

فنظر مؤيد الدين اليه وهو يضغط فيه ذلك الأمل الواسع والوثوق بالنجاح لأضعف الأسباب . . ان صاحب هذا المخلق قديحطىء ويفشل ، لكنه أقرب الى السعادة من الرجل الخلر الكثير الشكوك الذى يرى السعادة فى قبضته ويشك فى وجودها . ولذلك استغرب مؤيد الدين سرور سبحانه واطمئنانه لاشئ الا ان سمع منه انه وافق هولاء كوعلى القدوم الى بغداد ، وفاته ما يعترض نجاحه من العقبات ، وانه قد عرض نفسه فى هذا لخطر جسيم . ثم رفع نظره الى سبحانه وقال : « وفقنا الله فى سعيينا على القوم الظالمين »



## ركن الدين في بغداد

وبينما هما في ذلك اذ سمعا فرع الباب . وكان الباب بعيدا عن غرفة الوزير ، ولم يكن يهتم لسماع قرعه من قبل : أما الآن فانه لشدة قلقه أصبح لا تفوته حركة مما يحدث في البيت ، فتطلع نحو الباب ، واذا بفلام سحبان قد دخل وفي وجهه تغير ، فقال له سحبان : « من أين أتيت يا غلام ؟ »

قال : « أتيت من المنزل يا سيدي » . قال : « ولماذا ؟ » . قال : « لأن قادمًا غريبًا جاء يطلبك والي على أن أوصله اليك حالا ، فجئت به لعلمي أنك في دار الوزير » . قال : « من هو هذا القادم ؟ وأين هو ؟ » . قال : « لم يشأ أن يخبرني عن اسمه ، لكنه جاء معي وهو واقف في انتظار الأذن له »

فالتفت سحبان الى الوزير كأنه يستأذنه في ادخال ذلك الضيف ، فقال الوزير : « ادخله » .

فعاد الفلام ومعه رجل حسن البزة عليه لباس السفر ، وحالما وقع نظر سحبان عليه صاح : « الأمير ركن الدين ؟ ! الأمير ركن الدين ؟ ! » ونهض للاقائه والترحيب به

ونهض مؤيد الدين وهو يقول : « مرحبا بالامير ركن الدين » . فمشى ركن الدين حتى دنا من الوزير فحياه وحيى سحبان ، وجلس على كرسي قدموه له ، وأخذ الوزير يرحب به قائلا : « طالما سمعنا بالامير ركن الدين يبرز أعماله في مصر ، وكنت في شوق الى رؤيته فمن الله علي بذلك »

فقال ركن الدين : « ليس في ركن الدين ما يدعو الى الاعجاب لاني لم اعمل عملا ، ولكن الاعجاب يجدر بالوزير مؤيد الدين بن العلقمي القابض على أزمة الدولة العباسية يدير شؤونها »

وتصدى سحبان للكلام قائلا : « إن الامير ركن الدين بطل عظيم » . ووجه كلامه الى الوزير وقال : « ألم أقل لك عن بسالة هذا البطل وما أتاه من المدهشات في محاربة الافرنج وتخليص مصر من أيديهم ؟ فعساه أن يساعدنا في تخليص بغداد من غير الافرنج . . » . وضحك

فلم يعجب مؤيد الدين تسرعه لكنه تفاقل ، وتفاقل أيضا ركن الدين لأنه مثل مؤيد الدين تكتما وحلرا ، فحجل سحبان من نفسه وأراد أن يقطي خجله فأثار موضوعا جديدا فقال لركن الدين : « متى وصلت الى بغداد أنها الامير ؟ وكيف عرفت داري ؟ »

قال : « وصلت في هذا الصباح ، وأما منزلك فقد عرفت منك في مصر أنه بالكاظمية . وأنا أعرف بغداد ، فصرقت من كان معي وأجبت أن ادخل البلد متنكرا ، فوصلت الى الكاظمية وسألت عنك فقبل لي انك عند مولانا الوزير فجئت لأراك وأراه لأنى أعرفه بالسمع ، فطلبت الى خادمك أن يأخذنى اليك وقد فعل »

فقال الوزير : « لقد جئت أهلا ووطئت سهلا »

وتذكر سحبان تعلق ركن الدين بشوكر وقلقه عليها وحديثه معه بشأنها عند سفره من مصر ، فقال له : « هل تأذن أن نتكلم عن المهمة التى أنفذتنى إليها من مصر ؟ ان لمولانا الوزير اطلاعا على شىء منها ، وهو يحب لك غيور على شؤونك »

فقال ركن الدين : « اظنك تعنى شوكر . نعم تكلم وقد كنت أتوقع أن تكتب الى بشأنها قبل الآن »

فحجل سحبان لكنه بادى الى الاعتذار قائلا : « كان ينبغي أن أفعل ذلك ، ولم أتأخر عن أعمال ، لكننى حال وصولي الى بغداد لقيت شوكر في المكان الذى كانت مخبوءة فيه ، وأخبرتني انها كتبت اليك ، وقد عملت على انقاذها فلم أوفق الى ذلك حتى الآن ، وما الفائدة من الكتابة بلا عمل ؟ والوزير يعلم بما وقف في طريقنا من العراقيل »

فقال : « والغلاصة اين هي الآن ؟ » . قال : « هي في قصر الخليفة منذ أيام » . قال : « وأين كانت قبل ذلك ، ومن خطفها ؟ » . قال : « كانت عند أبى بكر بن المستعصم ، وابوه لا يعلم انها عنده وأخذ يبحث عنها . ثم تمكننا من اختطافها من بيت أبى بكر وأخفيناها في منزلنا ، وهنمت أن أفر بها اليك فلم يها ذلك القلام وأخذها منا بقوة الجند . ثم علم أبوه انها عنده فأخذها اليه ، ولذلك حديث طويل يهمل منه أن شوكر لا تزال كما عرفتها في مصر تبذل نفسها في سبيل رضاك ، ولا تفضل مكانا في الدنيا على قربك . ولا شك انها في بيت الخليفة رغم ارادتها . ولا بد من أخذها . . . تمهل . . . انسا في مشكلة شائكة ستقلب بغداد رأسا على عقب . وسيصل دويها الى مصر والانديلس وكل أنحاء العالم ، وسيكون لها شأن عظيم ، وأما يستفيد منها العاقل الحازم »

فخاف الوزير بعد هذه المقدمة أن ييوح سحبان بما حدث من

المسامي وهو يحب كتمانها ، فتصدي لمخاطبة ركن الدين قائلا :  
« لا تعجب أيها الأمير من اضطراب حالنا فخطيبتنا مشغول باستجلاب  
الغنيات من أقاصي المملكة ، عن الاهتمام بأمور الدولة والعدو على  
الأبواب لا يلبث أن يأتينا ، وجندنا في اختلال و .. »

فقطع ركن الدين كلامه قائلا : « سمعت وأنا قرب بغداد أن هولاكو  
التتري زاحف بجند كثيف على هذا البلد وأنه الآن على مقربة منها .  
ألم تستعدوا له ؟ »

فهز الوزير رأسه وقال : « كيف لا ؟ بلغنا منذ أيام أن حلة من جند  
هولاكو وصلت إلى تكريت بقيادة باجو وعبرت دجلة إلى البر الغربي  
ونزلت تتطلب بغداد ، وقد اختلفت آراؤنا في طرق الدفاع ، ولم  
يستقر الرأي إلا بعد أن وصل جند التتر إلى دجيل وعددهم نحو  
٣٠٠٠ فارس ، فأمر الخليفة بإرسال عسكره لدعمهم بقيادة مجاهد  
الدين أيبك الداودار ، ولكن عسكرنا قليل العدد والعدة ، ولا ندرى ما تكون  
النتيجة . على أني أخاف سوء العقبى لأننا غير متفقيين في رأي ،  
وخطيبتنا ضعيف مستسلم لابنه وقائد جنده ، وكلاهما على غير  
خبرة ، ونخاف أن يكون الله قد أراد انقضاء هذه الدولة و .. »

فتصدي سحبان قائلا : « لا تخف ، بل توسل إلى الله أن تنقضي  
هذه المحنة ، وهذا الأمير ركن الدين لا يخفي عليه شيء من أمرنا ،  
وقد حادثته وأنا في مصر عن استرجاع خلافة الفاطميين »

فاستاء مؤيد الدين من اندفاع سحبان في ابداء آرائه وقال : « لاظن  
الأمير وافقك على ذلك .. ونحن يكفيننا الآن أن نبذل خليفة بآخر كما  
سبق الكلام »

فاستحسن ركن الدين اعتدال ابن العلقمي في رأيه فقال : « هذا  
هو القول المعقول ، وهو حين ميسور لمن يبذل المال بدون حرب ،  
وأنا اضمن لكم ذلك متى رجعت إلى مصر وتم الاتفاق بيننا على رأي  
نرضاه . وهو يضمّر أن يجعل أمر ابدال الخليفة مرتبطا بصيرورة  
سلطنة مصر إليه . أي أنه يشترط على الخليفة الجديد قبل توليته  
أن يساعده في التسلط على مصر »

وأدرك مؤيد الدين غرضه فاستحسنه وندم على رسالته إلى هولاكو  
وتعريض الخلافة للتتر ، لكنه ما زال يعتقد أن هولاكو لا يزيد على أن  
يخلع الخليفة المستعصم ويطلب سواه وهم يدلونه على الإمام أحمد  
فقال : « سننظر في ذلك ونرجو أن يعود بالحجر »

فعاد ركن الدين إلى الحديث عن شوكار وخبرها ووجه خطابه إلى  
سحبان وقال : « والآن ماذا تفعل شوكار ؟ قل لي .. فقد تركت

بلدى وقومى وهم فى حاجة الى وجئت الى هذه الديار من أجلها ،  
فهل أعود دون أن أخذها معى ؟ هذا لا يمكن »

فقال سحبان : « لا بد من أخذها ، وقد قلت لك أن ذلك ميسور لما  
نرجو حدوثه من الانقلاب ، ومع ذلك فإن الحصى عابدا الذى حمل  
اليك رسالة شوكار وحلته جوابك اليها مقيم عندى منذ أخذوا شوكار  
منا ، وقد أوصيته أن يتبع أخبارها . وكان قد جاءنى منذ يومين  
بخبير لم أصدق له بعده » . فقال ركن الدين بلهفة : « وما هو ؟ » .  
قال : « أنبأنى أن شوكار خرجت من قصر التاج ، على أنها لو خرجت  
لجاءت إلينا ، وقد أوصيته بالامس أن يبذل جهده ويدقق البحث  
ويعود بالخبر الصحيح »

فقال : « أين هو الآن ؟ » . قال : « أظنه عاد الى منزلنا فى الكاظمية  
أو يعود الليلة ، هل تريد الذهاب الآن للبحث عنه ؟ » . قال : « نعم ،  
هلم بنا ومتى فرغنا من أمر شوكار عدنا الى أمر الخلافة ، أو لعل  
الأميرين يتمان معا » . قال ذلك ووقف واستأذن فى الانصراف ، ثم  
ودع الوزير وخزج ومعه سحبان



كان ركن الدين قد عرف بغداد فى صباه ، فلما جاءها هذه المرة  
وجد فيها تغيرا كثيرا . ومشى هو وسحبان فى طريقهما الى الكاظمية ،  
وهى على مسافة بعيدة من قصر الوزير ، فعبرا الجسر حتى صارا  
فى الجانب الغربى من بغداد ، حيث كانت البلدة التى بناها المنصور  
منذ خمسمائة سنة وثيف ولم يبق منها إلا آثار قد عفتها الأيام وأقيم  
فى مكاتها الاسواق . وبينما هما سائران وركن الدين يتأمل فيما  
يمران به من الإنبيية ، رأيا جماعة من العامة يركضون نحو الجسر  
وهم فى خوف شديد ، وعرف سحبان رجلا منهم فناداه اليه ، فجاءه  
وقد غطى الوجه قدميه الى ركبتيه ، فسأله سحبان عن سبب هذا  
الركض فقال : « التتر ياسيدى ، التتر ! »

فقال : « ماذا تعنى ؟ أين هم ؟ » . قال وهو يرتعد : « هم هنا . .  
هنا فى بغداد »

فصاح فيه : « فى بغداد ؟ وأين جندنا ؟ . . ذهبوا لمحاربتهم عند  
دجيل ؟ ! أين الداودام ؟ ما بالكم ؟ تكلم »

قال : « أن هؤلاء التتر من الجان لا يقدر أحد أن يقف فى طريقهم .  
كنت قرب دجيل يوم وصولهم اليه ، وما ذاع أن التتر قد أقبلوا حتى

ذعر الناس وهربوا قاصدين المدينة بأولادهم ونسائهم في حالة يرثى لها ، حتى كان الرجل يقذف بنفسه في الماء خوفا منهم ، وقد رأيت ملاحا لم يرض أن يعبر برجل في سفينته من جانب الى جانب الا اذا اعطاه عدة دنائير ، ورأيت امرأة دفعت للملاح سوارها ليعبر بها الى الضفة الاخرى ، ثم قالوا لنا ان جند الخليفة جاء لمحاربة أولئك العفاريت فسكن روعنا ، لكننا ما لبثنا ان رأينا جندنا يتقهقر مدحورا امام التتر ، والتتر يطاردونهم ويمعنون فيهم قتيلا وأسرا . وأعانهم على ذلك ماحفروه في الليل من خندق وصلوه بالنهر فكثرت الوحول في طريق المنهزمين ، ولم ينج الا من رمى نفسه في الماء وأنا منهم .. » . قال ذلك وأشار الى الوحل على قدميه وهو يلهث

وكان ركن الدين يسمع ذلك وشرر الغضب يتطاير من عينيه فقال سبحانه للرجل : « والداودار ، اين هو ؟ »

قال : « رجع مع بقية الجند مدحورين مكسورين ، ولذلك انكسرت قلوبنا .. نعوذ بالله من التتر ! يا لطيف ! »

فقال : « وكيف رأيت هؤلاء القوم ؟ »

قال : « رأيتهم من الابالسة ياسيدي .. لا يمكن لجندنا ان يقف امامهم ، واذا وقفوا اكلوهم اكلا .. أعوذ بالله ! لم أر مثل هؤلاء الناس . لا : لا لم أر مثلهم عمري . اذهب ياسيدي من الطريق . لانني اظنهم الان على مقربة من بغداد ، او لعلمهم دخلوها . وبلغني ان فريقا منهم نزل عند المارستان العضدي ، وفريقا آخر وصل الى البقعة تجاه الرصافة ، ولم يبق بينهم وبين قصور الخلفاء الا دجلة . سر ياسيدي . لا تعرض نفسك للسهم المتساقطة فساهمهم تتساقط كالطرز .. لا . لا . لم أر مثل هؤلاء الناس قط » .. قال ذلك وجري مسرعا

فالتفت سبحانه الى ركن الدين فراه يهتز من الغضب ، وقد احمرت عيناه وقطب حاجبيه ، وود لو أن فرسه تحته ليهجم على التتر فقال له سبحانه : « ما بال سيدى الامير ؟ » .. قال : « ويلك ياسبحان ! اهكذا يكون رجال الخلفاء ؟ يهربون من وجوه التتر المتوحشين حتى يدخلوا دارهم ! كم اتمنى ان يكون فرسى تحتي . أو يكون رجالي معي لأريهم كيف يكون القتال ! »

فضحك سبحانه وأمسك بنراع ركن الدين وتحول به الى زقاق ضيق ومشى وهو يقول : « ان اظهار البصالة لا يفيد ، لانها ضائعة بامولاي . ان القوم ماتت نفوسهم وذهبت دولتهم ، وكفى ما ارتكبوه من المظالم ، ولو أراد الله نصرهم لأثار بصائرهم وهداهم الطريق الصواب ، لكنهم

يتخبطون في أعمالهم تخبط الاعمى ، ولا يعلمون . دعهم ان الله أقدر منا على نصرتهم اذا شاء »

وبينما هما في ذلك الا رآيا سهما وقع امامهما ذا شكل خاص لم يعهد سبحانه مثله فيما يعرفه من السهام ، فالتقطه وتامله فرأى عليه كتابة عربية فقرأها ، فاذا هي : « ان الرؤساء العلويين ( الشيعة ) ، وكل من لا يقاتلنا ، آمنون على أنفسهم وحرهم وأمواهم »  
فدفع السهم الى ركن الدين فلما قرأه قال : « يلوح لى ان العلويين ينصرون التتر »

قال : « ان العلويين مظلومون ياسيدي . اما كفاهم ما قاسوه من الضيم والعذاب أجبالا ؟ . فاذا كانت الغلبة للتتر وأنصفوهم فلا حرج عليهم ولا علينا » . وهز كتفيه هز التنصل من التبعة

فتحقق ركن الدين ان حماسه للعباسيين لا تجدى نفعا ، ولم يبق له من هم الا ان يعثر على شوكار ويخرج بها من بغداد ويرجع الى امارته ويسعى في نيل السلطنة بمصر . ولا بد له قبل كل شيء من لقاء عابد المحصى ليسمع منه خبر شوكار

وجعل سبحانه طريقهما في ازمة مهجلة لا يتزاحم فيها الناس ، ثلا يصدمهم الهاريون ، حتى أقبل على المارستان العضدى ، فرأيا ضفاف دجلة وما يليها تعج عجيجا بالتتر وخيولهم وخيامهم واعلامهم واسراهم . فوقف سبحانه على مرتفع وأوما الى ركن الدين ان يتأمل اولئك القوم ويميز بينهم وبين البغداديين وقال له : « أرايت التترى وقوة بدنه وخشونة يديه ، وكيف هو مشمر عن ساقيه ، وعينه تكادان تطيران من وجهه .. ان بين هؤلاء الناس من قضى اباما وهو ساع على قدميه لاينام الا لاما ولا يأكل الا القومز ( لبن الخيل ) . كما كان البدوى في صدر الاسلام يكتفى بناقته يسافر عليها ويقتات بلبنها ويتفقا ظلها ويستانس بها . هكذا هؤلاء التتر مع أفراسهم . وقد يعدو التترى فيسبق فرسه . فاین ذلك من جند بغداد وقد ألفوا الراحة والرخاء ، كما كان الروم في صدر الاسلام .. هل نستطيع ياسيدي ان نقاوم القضاء ؟ . لكل أجل كتاب ، والله يفعل ما يشاء ، هلم بنا الى الكاظمية لنرى عابدا ونسمع خبر شوكار »

فلم يحر ركن الدين جوابا من الدهشة التى تولته مع ميله الى معرفة خبر شوكار ، فتجاوز المارستان العضدى والحريية الى الكاظمية ، فاختلف منظر الأهلين في عين ركن الدين عما رآه في سائر الاحياء . رأى اهل الكاظمية هنا مستبشرين مطمئنين ، كان فوز التتر فوز لهم ، أو كان التتر دولة شيعية جاءت لنصرتهم . وهكذا



الإنسان يحب من يأخذ بناصره مهما بعدت الروابط ، ويكره من يسلبه حقه ولو كان أخاه . مرا في أزقة الكاظمية وأهلها قرحون . وحالاً رأوا سحبان تقدموا للسلام عليه وتهنئته ، فرد السلام وقد استحيى من التظاهر بالفرح الى هذا الحد بين يدي ركن الدين

وبعد قليل وصلا الى بيت سحبان فدخلوا وقعدا ، وسال سحبان عن عابد فجاءه ، وحالاً رأى ركن الدين تنائر الدمع من عينيه واكب على يده يقبلها ، فاستغرب ذلك منه وقال : « ما وراءك يا عابد ؟ أين شوكار ؟ ماذا جرى لها ؟ » . فتماسك الحصى وقال : « بذلت جهدي بامولاي في سبيل سيدتي شوكار كما وعدتك ولم أفارقها لحظة إلا هذه المرة ، فلن الجند أخذوها رغم أنفي . لكنني أتعقب أخبارها كائى معها »

قال : « واين هي الآن ؟ » . قال : « آخر ما عرفته عنها انها في قصر التاج » . فقال ركن الدين : « هذا عرفته من أخى سحبان ، وقد أخبرني انك ذهبت للبحث عنها أمس ، فعماذا عرفت ؟ » . فأتفق عابد وقد ارتج عليه ، فصاح ركن الدين فيه : « قل . قل يا عابد ماذا جرى ؟ » . قال : « تنكرت أمس في زى الخدم حتى دخلت قصر التاج في جلتهم واجتمعت بكثير من اصدقائي الحصيان ، واستطلعتهم خبرها فاختلجوا في الرواية ، وفهمت من مجمل احاديثهم أن شوكار يوم وصولها الى قصر التاج أصابها صداد شديد ، ولم تقدر أن تغنى للخليفة ، فباتت تلك الليلة عند صديقة لها من مصر اسمها سلافة » . فلما سمع ركن الدين اسمها ارتعدت فرائضه وصاح : « سلافة ؟ سلافة هنا ؟ أين سلافة ؟ » . قال : « نعم ياسيدي ، يقولون انها كانت قيمة قصور الملك الصالح بمصر ، ولها نفوذ عظيم في قصر التاج لصلتها بقهرمانة القصور وأستاذ الدار ، حتى الخليفة نفسه يحترمها »

فاترق ركن الدين ، وتذكر سعى هذه الجارية في ابعاد شوكار عنه ليخلو لها الجو معه ، وكيف كانت مقابلته الاخيرة لها ؟ وكيف هدده ؟ مر كل ذلك في ذهنه في لحظة ، وقلبه يخفق خوفا من أذى تلحقا بشوكار ، فنظر الى عابد وقال : « قل وبعد ذلك ماذا جرى ؟ »

قال : « واختلف الرواة فيما جرى بعد تلك الليلة ، فقال بعضهم ان سلافة أخذت شوكار الى قصر لها قرب باب كلواذي ، وقال غيرهم انها لم تأخذها ، بل ظلت نجاة في قصر التاج ، وقال غيرهم غير ذلك » . وتغيرت سحتته كأنه يخفى شيئا خطر له ، ثم قال : « بظن بعضهم ان شوكار اختفت ، لكنهم لا يعلمون أين هي ولا كيف ضاعت ؟ » . فصاح ركن الدين : « لعل سلافة قتلها ؟ »

قال : « لا . لا سمح الله . والمشهور عندهم ان سلافة أحب الناس إليها ، وهي التي بذلت جهدها في راحتها ، على أنهم لا يعرفون هل هي حية أو ميتة ، لكنهم يعرفون انها كانت تشكو صداعا وان سلافة قد احتضنتها ثم نقلتها الى قصرها للاستشفاء ، ولا يعلمون ماذا جرى بعد ذلك ، فلعلها مقيمة عندها الى الآن بحيث لا يراها أحد »

فهز رأسه هز الإنكار ، والتفت الى سحبان كأنه يستطلع رايه في الأمر فرآه مطرقا يفكر . وكان قد انفرد عنهما في أثناء الحديث ، وخطب بعض العارفين من أهله عن أخبار التتر وهولاكو ، ثم عاد فقمع وسمع بقية الحديث . ولم يكن هو مطلعاً على ما بين سلافة وشوكر من التحاسد ، لكنه كان يعرف جراءة سلافة وسوء نيتهما ، مما اختبره بنفسه . فرفع بصره الى ركن الدين وقال : « ان سلافة شريرة لا تقدر العواقب فيما تركبه من المنكرات . أنا أعرفها جيدا ، وإذا كانت قد جاءت بغداد فوجودها في قصور الخلفاء خطر على الناس ، لأنها اذا عزمت على أمر اندفعت اليه بكليتها ، ولا يخدعك انها حاسنت شوكر أو صادقتها ، فإذا رأت في الاساءة اليها نفعا لها فلن تتأخر عن اذاها »

فوافق ذلك ما في خاطر ركن الدين ، فهاج غضبه وأصبح صدره يصعد ويهبط كالأسد الهائج ، وما لبث أن نهض كأنه يهم بالمسير فأمسكه سحبان وقال : « ماذا تريد يا سيدي ؟ »  
قال : « أريد ؟ أريد أن أبحث عن هذه اللعينة فإذا كانت قد ألحقت الأذى بشوكر أطرت رأسها عن بدنها »

قال : « تمهل ، ان الوصول اليها الآن صعب لأنها في قصور الخليفة وهذه القصور لا تبرح أن تفتح أبوابها لكل قادم فنفعل ما نريد . بسلافة وغيرها ، وعسى أن نوفق الى وجود شوكر وهي في خير . . تعال معي لأريك شيئا جديدا سمعته الساعة وهو يخفف ما بك من القلق . . ويهون عليك الصبر »

وأخذ بيده وخرج به الى مسجد بالقرب من داره ، وأصعده الى منة عالية تشرف على بغداد كلها ، وكان الجو صافيا ، ولفت نظر ركن الدين الى شرقي بغداد حيث قصور الخلفاء وقال : « أنظر الى الرصافة التي كنا فيها منذ ساعة وفيها قصور الخلفاء والحدايق والمدارس وغيرها ، ووراء ذلك سورها المحدد بتلك القصور من الشرق ، ولهذا السور عدة أبواب وأبراج ، في جملتها برج هائل عند الزاوية الشرقية الجنوبية هو برج المعجمي . وإذا أمعنت النظر جيدا رأيت وراءه خياما وأعلاما . تلك خيام هولاكو وأعلامه »

فأجفل ركن الدين وقال : « خيام هولاء ؟ هولاء وصل بجنده الى هنا ؟ »

قال : « وصل من الشرق وحاصر بغداد من جهة برج العجمي ، وقد سمعت أن قائده باجو وجنده دخلوا بغداد من الغرب ، وهم فرقتان : أحدهما معسكرة عند المارستان العضدي ، والأخرى عند البقلة تجاه قصر التاج . فهل بعد هذا ترجو نجاحا للمستعصم ؟ » فقال : « لكن القوة الحقيقية على ما أعلم في شرقي بغداد حيث قصور الخلفاء ، والأمر أصعب على التتر مما تظن يا صاحبي . أن أسوار ذلك القسم متينة وجندها قوى »

قال : « ستري ، هلم بنا نزل ، وفي نيتي أن اذهب الآن الى مؤيد الدين لأرى رأيه في هذه الأحوال لأنه داهية مدبر عاقل ، واستشيريه فيما نفعل »

فنزلا ، ودما سحبان ركن الدين الى المكوث في منزله ، واوصى الخدم به خيرا ، وفيهم عابد ، ثم مضى



لما خلا ركن الدين الى نفسه ، بعد ما شاهده في بغداد من اضطراب أحوالها واختلال أمورها وما يهددها من الخطر جلس وهو يفكر في مصيرها ، ورجح لديه أن التتر غالبون ، وتساءل : هل يقبلون الحكومة ويمحون الخلافة أم يبقون عليها ويبدلون خليفة بآخر . وتذكر مطامعه في سلطنة مصر ، وهو يرجح مصيرها اليه لضعف القائلين بها هناك ، وتذكر حاجته الى مصادقة الخليفة لتثبيت سلطته ، فتمثلت له أهمية بغداد - مركز الخلافة الإسلامية - وكيف أن العالم الإسلامي على بكرة أبيه في مشارق الأرض ومغاربها لاغنى له عنها ، فلا يثبت السلطان على عرشه أن لم يات به تثبيت من خليفة بغداد لما للخلافة في نفوس العامة من الاحترام الديني . ثم نظر في حال هذه المدينة وخليفتها على ضوء ما علمه في ذلك اليوم فاستغرب سلطان الأوهام على الناس . ولكن رجال السيادة لاغنى لهم عن الأوهام ليسوقوا بها العامة الى حيث يريدون . ولما وصل في تصوره الى هنا أطرق وقد خطر له خاطر رقص له قلبه طربا رغم بعده عن المألوف ، ولكن المرة اذا رغب في أمر أخذ يفكر فيه حتى يرى مستحيله ممكنا - فخطر له بعد ما شاهده من اضطراب أحوال بغداد ، وما يحدث بها من الخطر ، أن ينقل الخلافة منها الى مصر ، فتصير تلك الأهمية الى مصر

بدلاً من بغداد وتصير القاهرة مركز العالم الاسلامي ، لاستغنى عنها  
أمير أو سلطان ، وإن استقل عنها بإدارة حكومته فهو في حاجة الى  
خليفته في تثبيته . ولو كان المفكر في ذلك سحبان لرقص فرحاً وتصور  
نفسه قد نقل الخلافة الى مصر وصار هو سلطاناً يخطب رضاه سائر  
السلاطين ، لكن ركن الدين كان ضعيف الثقة في المستقبل ، إذا بدا له  
أمل في أمر يرغب فيه بحث عن كل ما يمكن أن يحول دون نيته ، وهو  
أميل الى تصديق أسباب الفشل . فلما خطر له أمر الخلافة تصور  
العراقيل الكثيرة التي تحول دونه ، فعاد الى التفكير في شوكار فهاجت  
أشجانه

نقى في هذه الافكار برهة جاءه في اثناها عابد يدعو الى الطعام  
مرة وإلى الصلاة مرة أخرى ، وبذل ثيابه حتى دنا الأصيل فقبل له أن  
سحبان عاد من عند مؤيد الدين ، وبعد قليل جاء سحبان والاضطراب  
باد على وجهه ، والغضب يتجلى في عينيه ، فناداه ركن الدين وقال  
له : « ما وراءك ، هل رأيت الوزير ؟ » . قال : « لم أره » . قال :  
« ولماذا ؟ » . قال : « لأنه ليس في منزله ، وقد برحه بعد خروجه  
من عنده » . قال : « الى أين ؟ » . قال : « بعثه المستعصم الى هولاءكو ،  
والظاهر أن هذا الخليفة تحقق الخطر المحقق به ، وهو يعتقد دهاء  
وزيرنا وتعقله فانغده اليه ليسترضيه »

قال : « الى هذا الحد بلغ الضعف من خليفتك ؟ » . فابتسم وقال :  
« ألم أقل لك ذلك من قبل ، وأرسال وزيرنا في هذه المهمة أحسن  
رأى ارتأه المستعصم ، لكن أخشى أن يكون قد جاء متأخراً ، وذلك  
لأن هولاءكو كان قد اشترط نحو ذلك من قبل للكف عن العدا ،  
وأشار به الوزير على المستعصم ولكنه لم يطعه لأنه كان يسيء الظن  
به ويصدق ابنه أبا بكر ، وهو شاب مغرور — فالظاهر أن المستعصم  
لما رأى جند التتر يحاصر القصور ، وسمع دوى المجانيق ووقع قنابله  
على القصور ، ورأى عجز جنده عن القتال لجأ الى المسألة ، وقد أحسن  
لأن وزيرنا حفظه الله له ذالة على هولاءكو فيشير عليه بما فيه خير  
الجاتين »

فقال ركن الدين : « لم أفهم مرادك من دالة الوزير لدى التتر ، وما  
هو الباعث عليها ؟ هل كانت بينهما معرفة ؟ »

قال : « لا أخفى عليك يامولاي أن بين الوزير وهولاءكو مخابرة في هذا  
الشان ، أعني أن هولاءكو أخبره وطلب اليه أن يكون معه ، ووعدته خيراً  
كثيراً ، وظل مؤيد الدين يتردد ، وهو ينصح الخليفة ويخوفه ، فلما  
يثس من اصلاحه أخبر هولاءكو خوفاً من أنه إذا جاء وفتح بغداد

ينتقم منه ومن اهله وسائر الشيعة. اما اذا اظهر موافقته فانه يراعى جانباً ، ولم يفعل ذلك خيانة »

ففهم ركن الدين من ذلك ان «يؤيد الدين خان خليفته ، ولو تنصل من ذلك ، وزعم أنها ليست خيانة - فقال في نفسه لا شك ان هذا من اكبر ادلة السقوط . ولم يبد رأيه في ذلك لكنه سأل سحبان قائلاً : « وما تظن الوزير يفعل الآن اذا اجتمع بهولاكو ؟ »

قال : « اظنه يتفق معه على خلع المستعصم . وتنصيب الامام احمد اخي المستنصر ، فانه اجدر بنى العباس بمنصب الخلافة ، والمستعصم يخافه ، ولذلك حبسه في قصره وأقام عليه الرقيب ، فهذا الامام قد عرفناه واجتمعنا به وخاطبناه في امر الخلافة اذا صارت اليه فوجدنا خيراً . ولا شك انه يسهل عليك سلطنة مصر ويساعدك عليها ، فانك أولى بها من سائر الأمراء »

فعلم ركن الدين ان سحبان يرغب في مظاهرتة على المستعصم وفي تنصيب الامام احمد خليفة ، لكنه يطمع فيما هو اكثر من ذلك : يطمع في نقل الخلافة الى القاهرة . غير انه لم يسمح لنفسه ان تتمكن منه هذه المخاطر خوفاً من فشلها فاكفى بموافقة سحبان على تنصيب الامام احمد بدلاً من المستعصم وقال : « وأين هو الآن ؟ »

قال : « كان محبوساً في قصر الفردوس بجوار قصر التاج ، ثم احدثت الشكوك به فنقلوه الى قصر عند باب كلواذي واقاموا الحرس حوله ، وأنا عارف مكانه ، ومن أسهل الامور على اذا تم اتفاقنا على خلع المستعصم أو قتله ان أخرج الامام احمد من محبسه وأنادي به خليفة مكانه ، ولا اجد من يخالفني لان الناس ملوا ضعف السياسة ، ولا سيما اذا علموا ان هذا التبديل كان بإرادة الخاقان هولاءو قائده التتر . وكيف ترى يا سيدي ؟ »

قال : « أراك مصيباً ، ونعم الراي رايك ، وفقك الله الى اتمامه » . لكنه حالاً سمع اسم باب كلواذي تذكر ما سمعه من عابد عن سلافة وانها اخذت شوكار الى قصرها قرب هذا الباب ، وعادت اليه هواجسه وعاد يفكر في شوكار : احبة هي أم ميتة ؟ وهل سلافة لا تزال على كرهها لها فالتفت الى سحبان وسأله قائلاً : « سمعتك تذكر باب كلواذي ومحبس الامام احمد عنده ، وامس سمعت عابدا الخصى يذكر هذا الباب وان قصر سلافة عنده ، فكيف ذلك ؟ »

قال : « ان كلواذي يا سيدي حتى فيه باب من ابواب سور بغداد سمى باب كلواذي ، وبقره قصور كثيرة كما تقولون في مصر باب زويلة

وباب النصر وباب الفتوح فقد أصبحت أسماء أحياء فيها قصور  
عديدة »

وقضيا بقية اليوم وكلاهما يفكر في أمره ، وأكبرهم ركن الدين  
الوصول الى شوكار ومعرفة حالها واتخاذها أو الانتقام لها . وبات  
وهو ينظم بها



وأصبح ركن الدين في اليوم التالي وقد مل الانتظار ، لكنه توسم  
في بقائه هناك خيرا ينفعه في مطامعه السياسية ، على أنه كلما فكر في  
شوكار خفق قلبه ورأى أنه أساء اليها لأن ما أصابها من الأذى إنما كان  
بسببه . وبينما هو في ذلك إذ جاءه عابد وفي وجهه خبر فقال له :  
« ما وراءك ؟ »

قال بالباب رسول من سلافة معه كتاب اليك »

فلما سمع اسمها اقشعر بدنه وقال : « ليدخل »

فدخل الغلام ودفع الكتاب الى ركن الدين وتناولوه فاذا فيه : « من  
سلافة الى الأمير ركن الدين . علمت أنك في بغداد وأنا فيها . . . وعندي  
أمر يهمك أحب عرضه عليك ، فاذا شئت تفضلت بالمجيء الى قصرى  
بباب كلواذى وهذا رسولي يهديك اليه والسلام »

فلما قرأ الكتاب دفعه الى سحبان ليرى رأيه فيه فحذرته من الذهاب ،  
فقال ركن الدين : « لا بد من الذهاب لأرى هذه الداهية وأتحقق أمر  
شوكار ، وماذا عساه أن تفعل بى . . عار على أن أخافها وخنجري  
معنى . لكن أين موقع قصرها من هنا ؟ »

قال : « هو بعيد ، لابد للذهاب اليه من المسير مسافة طويلة ثم عبور  
دجلة فوق الجسر الذى جئنا منه . اذا شئت المسير فهذا فرسى بين  
يديك ، وهذا عابد يسير في ركابك فضلا عن الرسول القادم من عندها »

فوقف ركن الدين وقال : « اذهب السلافة » وتحول الى غرفة  
منامه وأصلح هندامه وتسلح بخنجرين وتشدد ، ثم خرج وركب  
الفرس ، وسار عابد في ركابه والرسول يمشى بين يديه . ولحظ في  
أثناء الطريق أن أهل الكاظمية فرحون معتزون وقد اشتدت عزيمتهم  
وهاجت نفقتهم على جيرانهم من أهل السنة الذين كانوا يعتزون بالخليفة  
وحكومته . ولما خرج من الكاظمية رأى الناس في خوف شديد يجتمعون  
جلوسا أو وقفا للمداولة في الأحوال الجارية ويتلقفون الأخبار من  
أفواه المارة متناقضة متباينة

وصل الى الجسر فعبره الى الرصافة ، فرأى الناس هناك أقل قلما لقرهم من قصور الخلافة حيث لا يسمعون غير ما يدعو الى الثقة بقوة الجند ومتابعة الحصون رغم ما كان يتساقط عليها من حجارة المجانيق حيناً بعد آخر ، وهى حجارة صوانية كروية الشكل قطر الواحد منها نصف متر أو أكثر ، يقذفه المنجنيق من مبسك التتر على أبراج السور أو على بعض القصور ، وكانت الأسوار تجيب بمنلها ، وهذه هى مدافع تلك الأيام

وانتهى مسيره أخيراً الى ضفة دجلة الشرقية ، فوقف الرسول والتفت الى ركن الدين وأشار بأصبعه الى قصر على ضفة النهر تحيط به حديقة حولها سور . دخل ذلك السور راكباً ، فتقدم الرسول لإعلان وصوله ، وترجل ركن الدين وسلم زمام الفرس الى عابده وأوصاه أن ينتظره وأن يكون على حذر ، ومشى فى الحديقة وقلبه يخفق تطلعا الى ما يكون من أمر سلافة ، وصورتها لا تزال فى ذهنه كما فارقتها فى المرة الأخيرة



وصل ركن الدين الى باب القصر فرأى سلافة واقفة فى انتظاره وقد لبست أجمل ما عندها من الحلى والثياب ، وبذلت جهدها فيما تملك به قلبه . اما هو فقد كان مدرماً بالتعقل وحب شيوكار ، فحيهاها فردت التحية ورحبت به ترحيباً حسناً ، ودعته الى قاعة مفروشة أحسن فرش فيها النمارق والستائر والطنافس ، وأشارت اليه أن يقعد وهى تقول له وتبتسم : « من كان يظن أننا سنلتقى فى هذا البلد ؟ »

فقال : « ان المصادفة تاتى بأعجب العجيب »

قالت : « الصدف ! هل تظن أننا التقينا هنا صدفة ؟ »

قال : « نعم ، لأنى لم يخطر لى ببال أنك تجيئين الى هنا »

قالت : « هذا يصح عليك وأما أنا .. أنا المسكينة الشقية فيخطر لى كل شيء ، وأبذل راحتى وحياتى فى سبيل لقاء ركن الدين . لم تخط خطوة فى مصر وغيرها الا عرفت بها وحسبت لها حساباً . ثم تنهكت ، فتشأهم ركن الدين من هذه المقدمة ، وأراد تغيير الحديث فقال : « أشكرك بأسيديتى على حسن ظنك بى . وصل الى كتابك فجيئت ، لكننى أسألك سؤالاً أرجو الجواب عنه . »

قالت : « قل ما تريد »

قال : « علمت ان شوكر جاءت اليك في هذا القصر فأين هي ؟ » .  
قال ذلك وهو يخاف أن يسمع خبر موتها أو قتلها ، فتجلد وهو  
ينتظر الجواب ، فلبطأت سلافة في الجواب وهي تنظر اليه نظر  
الاستغراب ثم قالت : « مسكينة » . فصاح فيها : « مسكينة ؟ !  
أين هي ؟ »

قالت : « ليست هنا ، لعلك تذكر أني كنت ناقمة عليها ، وقد قلت  
لك اني أحبيت أبعادها رغبة في قربك ، لكنني شعرت هذه المرة لا  
لعتيها في قصر الخليفة ، أنها لا تستحق العذاب لسلامة قلبها وطيب  
عنصرها .. » . وتنهدت وأظهرت سلامة النية وشدة الأسف  
فقال : « قولي ما بالها . أين هي ؟ ماذا جرى لها ؟ » . قالت :  
« قلت لك انها ليست هنا » . قال : « فهمت أنها ليست هنا فأين  
هي ؟ »

فنظرت اليه نظرة العائب وقالت : « الله أنت ! ما أكثر تسرعك !  
أنطمع في الملك وتوشك أن تناله ، ولا تستطيع أن تصبر على سماع  
حديث قصير عن جارية ؟ ! اسمع لأقص عليك خبر هذه المسكينة :  
رايتها في أول يوم جاءت فيه الى قصر التاج ، وسرت بها ، وقد ملأت  
قلبي ، وندمت على ما فرط مني في حقها ، واستأنست هي بي  
وقصت علي حديثها معك وأنها لا تود البقاء بعيدة عنك ولو كان مقامها  
بقصر الخليفة ، فأشرت عليها أن تحتال بالمرض ، ولما لي من النفوذ  
في دار النساء وعند الخليفة تمكنت من اقناعهم بأنها مريضة  
وأنها في حاجة الى تبديل الهواء ، وفي اليوم التالي انتقلت أنا الى هذا  
القصر وبعثت من يأتي بها الى وليئت في انتظار قدومها » . وسكنت  
وأظهرت أنها غصت بريقها ، فقال ركن الدين : « وبعد ذلك هل  
أتت ؟ » . قالت : « لا ، لم تأت » . فصاح قائلاً : « اذن ماتت أو  
قتلت ؟ »

قالت : « احسب كما تشاء . انها ماتت وانتهى أمرها »  
فنهض وقد ثارت شجونه وقال : « لا . انها لم تمت انك خبايتها في  
مكان »

فضحكت وهي تنظر اليه باستخفاف وقالت : « بل ماتت يا ركن  
الدين ، ويسوءني انها ماتت ، وقد أخبرني البحارة الذين حلوها الى  
في القارب أنها غاصت في الماء رغم ارادتهم . أرجع يا ركن الدين الى  
رشدك واستسلم لقضاء الله ، ولا تعمل عمل النساء وتبكي على جارية ،  
وبين يديك سلافة تعرض عليك نفسها ، وهي فوق ذلك تعرض  
عليك منصباً لم يحلم به أحد من سلاطين مصر »



فرجع له موت شوكار ، وكان في ريب من سبب موتها ، وان كان يرجح أن سلافة سعت فيه برغم تنصلها منه وأظهارها الميل إليها . فأسف أسفا شديدا وود أن يقتل سلافة ، لكنه لم يتحقق أنها هي القائلة . ومع ذلك أراد أن يعرف ما هو المنصب الذي تعرضه عليه فرأى من الحكمة أن يسمع حديثها الى آخره فقال : « مسكينة شوكار واسفاه عليها »

فأقلت هي : « مسكينة ، لقد شق والله على موتها ، ولكن ما الحيلة ؟ لابد لنا من التسليم للقضاء والقدر ، والآن ألا تريد أن أخبرك بما انتدبتك له ؟ » . قال : « وماهو ؟ » . قالت : « لنجلس ولنحدث » . ومشت به الى القاعة فقعدت ، وقد سرها انه اطلعها وأصفى لها ، وبأن البشر في محيائها ، وقالت : « لعلك عالم بالاضطراب المستحوذ على الدولة بسبب محاصرة التتر ، وهذا هولاءكو عند برج العجمي . ولم يصل الى هنا الا لضعف رأي الداودار قائد الجند . وقد غضب مولانا أمير المؤمنين عليه وأراد ابداله ، وحادثني أستاذ الدار فيمن يليق بهذا المنصب ويرجى منه أن يرد شرف الجند العباسي ويدفع العدو عن أسوار بغداد فلم يخطر ببالي سواك — وان كنت لا تبرح بالي في أي وقت » . ثم ابتسمت وقالت : « ليس هناك من يستطيع أن ينقذ الدولة من هذا الضيق سواك ، وانت اذا صرت قائدجند بغداد هان عليك أن تكون كما تشاء ، وأنا اضمن لك سلطنة مصر وأغريها كما تريد . . اني احبك واتفاني في الحصول عليك وأحب أن تقول لي انك تحبني ، أو على الأقل لا تحب سواي » . قالت ذلك بلحن الفرام

فأطرق هنيهة واستجمع قواه ، وأطرق يفكر فأصحاب المطامع طلاب منفعة قبل كل شيء . انه أحب شوكار في بادئ الامر شفقة عليها ، ثم أحبها حقيقة بعد ما قاسته بسببه من الشقاء . وكان يود أن يجعلها سعيدة ، أما الآن وقد ماتت فليس من الرجولة أن يموت في أثرها ، وان كان موتها قد شق عليه كثيرا ، ولم يطاوعه قلبه أن يحب التي كانت تبغضها وكانت سبب موتها . لكن ذلك لا يمنع أن ينظر فيما تعرضه عليه لعل فيه ما يلغه الاماني التي طالما تافت نفسه اليها وحلم بها . وقد تأكد من قرائن كثيرة أن سلافة ذات نفوذ لدى الخليفة وأهله وحكومته ، فخطرله انها قد تفيد في مطامعه ، فأراد مسابرتها مع حفظ مقامه فقال : « لا أرى في الكفاءة لهذا المنصب يا سيدتي ، ولا أشعر من نفسي بميل للتكلم في المتناصب الآن . سننظر في ذلك في فرصة أخرى »

فأقلت : « هذا امر لا يمكن تأجيله لأن الدولة في حرب ، وهذه

قنابل المجانيق تصل الى قصورنا صباح مساء ، وأما كفاءتك فانا اعلم الناس بها . لم يبق الا انه يشق عليك يا قاسي القلب أن تعترف بحبي لك ! فكيف لو طلبت اليك أن تعترف بحبك لي ؟ يا الله ما أقسى قلبك ! اسمع ، هذا أستاذ الدار قادم الى لاني أسمع صوته بالبواب يخاطب الحاجب . انه أت ليري هل اقنعتك بقبول القيادة ، فبالله لا تخجلني بين يديه . أما اعترافك بحبك لي فاتركه الى ما بعد نيلك هذا المنصب وبغيره مما يستراه مني »

ثم دخل الخادم يستأذن لاستاذ الدار ، فخفت الى الباب لاستقباله واخذت ترحب به لما تعلمه من نفوذه لدى الخليفة ، ثم دخلت به الى القلعة وأشارت الى ركن الدين وقالت : « هذا هو الأمير ركن الدين البندقداري الذي قهر الافرنج وأرجعهم عن مصر . وقد ذكرت لك عنه ما يكفي . وانا أباحثه الآن فيما انتدبتني له »

فنظر أستاذ الدار اليه وهش له وقد أعجبه ما في طلعه من أدلة الشجاعة والذكاء وقال : « سرنا أن يكون في الأمير ركن الدين ما يرضى مولانا أمير المؤمنين ويكشف عنا العار الذي سببه الداودار السابق بسوء تدبيره . هل تريد أن نذهب معا الى قصر التاج الساحة ؟ »

فأراد ركن الدين أن يعتذر من عجزه ، فرأى أستاذ الدار ذلك تواضعا وقال : « لا . لا تقبل منك عذرا ، هلم معي الى أمير المؤمنين » قال ذلك ومشى فالتفتت سلافة الى ركن الدين لفئة هيام ، وأمسكت يده بصحة الوداع وضغطت عليها وهي تقول : « سرني النجاح في هذه المهمة ، وعسى أن تفوز بانتقاذ الدولة من الخطر . وأما انا فإذا مت بعد هذا فحسبي أنك أعطتني في شيء عرضته عليك وأن لم يكن فيه غير لوعتي وآلامي . واذا التقينا بعد الآن كان لنا شأن آخر »

ولكنه لم يزد على أن حياها مودعا وأنصرف في اثر أستاذ الدار ، فركب كل منهما فرسه ، ومشى عابدا في ركاب ركن الدين الى قصر التاج

سار ركن الدين وهو غارق في تفكيره على اثر ما شاهده من سلافة وهو لا يفهم حقيقة حالها . على أنه فعل ما يفعله الرجل العاقل البصير . ولم يلم نفسه لسكوته عن الانتقام لشوكار ، لانه لم يحقق مصرها وهل تعمدت سلافة أذاها ، وأن كان ميالا الى اتهامها بناء على سابق عهده بها . لكنها شغلته بأمر ذلك المنصب ، ثم جاء أستاذ الدار فلم يسعه الا السير معه الى الخليفة ، وفي نفسه أن هذا كله لا يمنع من انتقامه لشوكار عند الوثوق من صحة القتل

قطع مسافة الطريق وهو لا ينتبه لرفيقه الراكب الى جانبه ولا الى اشتغال القوم بأخبار التتر ، ولا يسمع وقع قتابل المجانيق على المنازل ، فقد كان ذلك بعيدا عن طريقهم لا يسمعه الا النصت . ولكنه حالا وصل الى قصر التاج وجد أهله في هرج واضطراب لكثرة ما تساقط حوله من حجارة المجانيق او النبال المرمية عن الآلات . ووجه التفاته الى أستاذ الدار ليقوده فيما يقطعه من الرسوم المعتادة ، فلما رآه ترجل عن دابته ترجل هو ايضا وسار في أثره حتى اقتبلا على باب مجلس العامة فلاقاهما الحاجب فأمره أستاذ الدار بالاستئذان له . وما عثم ان جاء الاذن فدخل والامير ركن الدين يتبعه

فالتقى الأستاذ التحية على جاري العادة ثم قال : « ياذن لي مولاي امير المؤمنين ان اقدم له الامير ركن الدين بيبرس البندقداري ، وكنت قد ذكرت اسمه لمولاي وأنه خير من يقوم بقيادة جند بغداد في هذا الوقت العصيب ، وقد اشتهر بمهارته في الحرب وتدريب الجنود كما شهدت به سلافة القهرمانه »

وكان الخليفة في تلك الساعة مطرقا يفكر ، وليس في مجلسه أحد ، كانه التمس الانفراد للتفكير . فلما سمع قول أستاذ الدار قال : « مرحبا بالامير ركن الدين » . وأشار اليه أن يقعد وقال له : « اصحیح ما يقوله أستاذ دارنا ؟ ! »

قال : « ربما اثبت حسن ظنه ما مضى ، أما الآن فلا ارانى كفوا لهذه المهمة لانى من أصغر القواد »

فاعجب الخليفة بتواضعه فقال : « بل انت قائد باسل ، وكلام القهرمانه سلافة مصدق عندي ، ونحن الآن في حرب مع عدو غريب هو عدو كل مسلم ، لانه إذا فاز لاسمح الله في حربه معنا لا تنجو مصر من اذاه ، فانت مطالب بقهره للدفاع عن الخلافة ببغداد وعن السلطنة بمصر ، وانت فاعل ان شاء الله . ولو عرفت فضلك من قبل لما سلمت قيادة جنودنا الى الداودار الذى البسنا العار ، فعسى ان تكون الوسيلة لمحو هذا العار عن جيش بغداد » . قال ذلك وتنحنج وأظهر انه لم يكمل حديثه بعد فظل ركن الدين ساكنا

ثم عاد الخليفة الى الكلام قائلا : « اظننا اخطانا لاننا لم نصغ الى رأى وزيرنا مؤيد الدين من اول الامر ، فلو اطعناه لما اضطربنا الى اتفاده الآن لطلب الصلح وتأجيل الحرب ، ولا ندرى اذا كان طلبنا يجاب . ولكن سامح الله أبا بكر انه تمدى حقوق الابناء وكثر قلبى على الوزير ، فلان أنظر أيها الامير انى جعل اماره جند بغداد اليك فاذا دفعت العدو كافانك بما انت أهله »

فأجا بركن الدين : « ان الدفاع عن دار السلام وأمير المؤمنين  
فرض على كل مسلم ، واني باذل روحي في هذا السبيل ، وعسى أن  
يوفيني الله الى القيام بحق الخدمة »



وبينما هم في ذلك اذ دخل الحاجب وقال : « ان الوزير مؤيد الدين  
بالباب » . فأشرق وجه الخليفة وبان التطلع في عينيه . وحالما دخل  
مؤيد الدين لم يصبر المستعصم عليه حتى يلقي التحية فصاح به :  
« قل ماذا جرى ؟ » . قال : « كل خير ياسيدي . والتوفيق من  
عند الله »

قال : « أقعد وحدثنا بما جرى »

فقعد والعرق يتصبب من جبينه وأخذ في الحديث ، فقال : « لقيت  
هولاكو خاقان التتر ، وبينت له جرم اعتدائه علينا بلا حق ، واننا لانخافه ،  
لكننا نحب حقن الدماء ، فأجابني جوابا غليظا . وبعد جدال طويل  
لم يقبل الكف عن الحرب الا اذا ذهب مولانا أمير المؤمنين بنفسه الى  
معسكره ، وتعهد بالمحافظة على مقام مولانا والابقاء على خلافته كما  
فعل بن حاربه من الملوك ، وقد قال لي انه لايهمه تغيير الملوك والخلفاء  
وانما يهمه الا يهان جنده . وهو يعد رفض مولانا أمير المؤمنين نجده  
على الاسماعيليه اهانة لأنه كان يريد بذلك قطع دابر أولئك الاقوام  
لينجو العالم منهم . ثم حارب القوم وحده وغلّبهم وبعث الى مولاي  
يعاقبه فلم يرد عليه . وكنت قد أشرت على سيدي ان يبعث اليه  
هدية فمنعه بعض خاصته من ذلك . وبعث اليها هولاكو أنه لم يعد  
يقبل هدية ولا يرضى الا ان يذهب اليه الوزير أو الداودار فلم تفعل .  
فعد ذلك اهانة مكررة لا يقبل ترضية عليها الا ان يركب مولانا أمير  
المؤمنين اليه ويكون هناك معززا مكرما مع رجال خاصته . وقد  
أخبرني اننا اذا أطعناه في ذلك فهو عازم على ان يزوج ابنته من مولانا  
الامير أبي بكر »

وكان الوزير يتكلم والعرق يتصبب من جبينه خجلا من حمل هذه  
الرسالة الى الخليفة . والخليفة مطرق يسمع ولا يتكلم ولا يبدى حركة ،  
وكذلك كان ركن الدين . فلما فرغ مؤيد الدين من كلامه رفع المستعصم  
رأسه وتنهّد وقال : « انه لعزير على نفسي ان اذهب الى هذا التتري ،  
واني لأرجو أن نفوز عليه ونرده عن بلدنا بعد أن عهدنا بقيادة الجند  
الى الامير ركن الدين . . » . ولبث ينتظر جوابه  
فقال الوزير : « ان الامير ركن الدين اهل لثقة أمير المؤمنين ، وقد

يأتي النصر على يده . لكنني أخاف أن يكون جندنا أضعف مما نظن .  
ولا يبقى باب للصلح ، وقد عرض علينا القوم صلحا تحقق به الدماء  
ومع ذلك فالأمر لمولاي »

فقال الخليفة : « لكن هذا الطاغية يطلب أن اذهب أنا بنفسى الى  
معسكره ؟ »

قال : « كلا يا مولاي قد رضى أن يركب مولاي بأعوانه ورجال  
خاصته الى فسطاط ننصبه لهم عند باب كلواذى مما يجاذى الشاطيء  
فيلاقيه هولاء هناك وينقضى الأمر »

فهان عليه القبول بعد هذا التسهيل ، لكنه التفت الى استاذ الدار  
واستشاره فى الأمر فأشار بالقبول لأنه رأى الخليفة مائلا الى السلم -  
ذلك كان دأبه اذا استشاره الخليفة فيجعل نصب عينيه أن يرضى  
احساس مولاه . فاذا رآه مائلا الى رأى أشار عليه به ، شأن المتعلقين  
المتزلفين فى كل زمان ومكان . وهؤلاء اذا كان الامير او الخليفة عاقلا  
نبيذهم ، واذا كان ضعيفا أصبحوا من القريين اليه فيفسدون حكومته  
ويعينون على سقوط دولته

فاستقر رأى الخليفة على اجابة هولاء الى طلبه ، والتفت الى ركن  
الدين وقال : « قد سمعت ما أشار به وزيرنا ، وقد طامنا بالخلفاء ولم نر  
فى مخالفته خيرا . اما الآن فالرأى أن نطيعه . وعلى كل حال فائنا نعد  
الامير ركن الدين من كبار قوادنا وعسى أن نوفق الى مكافاته » . والتفت  
الى الوزير وقال : « متى نصب الفسطاط ذهبنا اليه »

فأشار الوزير مطيعا واستأذن فى الانصراف وانفض المجلس .  
وأوما الوزير الى ركن الدين أن يوافيه الى منزله

فخرج ركن الدين وهو غارق فى الهواجس ، وقد نساءه تنازل  
الخليفة الى هذا الحد . لكنه ركب الى بيت مؤيد الدين - وعابد  
يرشده - ليستفهم عن الحقيقة ، فلما وصل اليه رأى مؤيد الدين  
قد سبقه ورأى سحبان عنده وكان قد جاء للاستطلاع بعد علمه  
بخروج الوزير الى هولاء



## نهاية الدولة العباسية

دخل ركن الدين فوجد الوزير يذرع غرفته ذهباً وإياباً وقد قطب حاجبيه وأخذ منه التأثير مأخذاً عظيماً ، وسحبان قاعد ينتظر التفاته اليه . فلما دخل ركن الدين أومأ اليه مؤيد الدين أن يقعد فقعد . ثم وقف أمامه وقال : « أيها الأمير قد قضى الأمر »

فتصدى سحبان للكلام قائلاً : « وكيف قضى ؟ »

فالتفت اليه وقال : « قضى كما تريد أنت لا كما أريد أنا ولا كما يريد الأمير ركن الدين »

فقال ركن الدين : « أفصح يا مولاي »

قال : « لم أقدر أن اقنع هولاء بالاستبقاء للخلافة العباسية . انه مصمم على إبادتها »

فصاح ركن الدين : « إبادتها ! يريد أن يقتل كل بنى العباس ؟ »

قال : « هكذا ظهر لي من مغزى كلامه وان لم يصرح بذلك »

والتفت الى سحبان فرآه يضحك فانتهره قائلاً : « أنت تضحك لأنك لا تنتظر الى العواقب ، اذا بحيث الدولة العباسية ذهب الاسلام من هذه الديار »

فقال سحبان : « ولماذا ؟ نحن نعيد الخلافة الفاطمية »

فصاح فيه : « انك رجل أوهام وأباطيل ، اذا كنت ترجو ارجاع الدولة الفاطمية فانك ترجو المحال وتطلب إقامة الاموات » . والتفت الى ركن الدين فرآه ينظر اليه ويراعى حركاته ويوافق على كل حركة منها بملأه وعينيه . فلما التفت اليه نظر هذا الى سحبان وقال : « قد أصاب الوزير بقوله ، انه رجل عاقل مدبر ، وكم سمعتك تذكر امر الفاطميين ، هل سمعت منى موافقة على ذلك ؟ »

قال : « كنت اذا ذكرتهم سكنت »

قال : « وسكوتى يكفي ؟ واذا كان هذا الطاغية ينوى حقيقة إبادة العباسيين كافة فانه يحدث كسراً في الاسلام يصير جبره » . ووجه

كلامه الى الوزير وقال : « لكنك قلت للخليفة ان هولاء ينسبون  
استبقاءه »

قال : « هذا ما قاله لي هولاء ، لكنني لا اصدقهم وقد فهمت من  
خلال كلامه وقرأت في عينيه ما ذكرته الآن ، ويؤيد ذلك انه اعطاني  
رايات عليها علامته ، واوصاني ان انصبها على ابواب المنازل التي اريد  
حمايتها من الاذى ، او على الطرق المؤدية الى منازل الشيعة . فاذا  
رأها رجاله عرفوها وكفوا عن الاذى ، ألا يدل هذا على عزمه الذي  
ذكرته لكم ؟ وعلى كل حال لا بأس من الاحتياط للمخاطر » . قال ذلك  
وتحول الى ناحية من الغرفة اخرج منها راية صفراء عليها صورة  
خنجر أحمر ودفعها الى ركن الدين وقال : « خذ هذه لعلك تحتاج  
اليها » . ودفع رايات أخرى الى سحبان وقال له : « خذ هذه الرايات  
اغرسها في مداخل آحياء قومنا في الكرخ والكاظمية ، افضل ذلك بلباقة  
لثلاثين شهر بك أحد »

فتناول ركن الدين رايته وخياها تحت ثيابه ، وقد شق عليه  
الالتجاء الى هذه الخرقه للنجاة من السيف وهو قائد باسل تعود دفع  
الاذى من نفسه وقومه بالسيف البتار . لكنه كان داهية يلبس  
لكل حال لبوسه

اما سحبان فانه مكث بعد ما سمعه من الانتهاز الصريح صامتا وقد  
استولى اليأس عليه ، لكنه ما لبث ان رضي بما وقع ورأى ذلك فوزا  
عظيما للشيعة . ونظر الى ركن الدين وسأله عما فعله عند سلافة  
فاختصر هذا الجواب لانه شعر انه بين يدي أمر مهم ينبغي له ان يسرع  
في تدبره واستأذن في الانصراف

خرج ركن الدين مهموما وفكره تائه ، فتقدم عابدا اليه بالجواد  
قوية وهو لا يقصد مكانا معيناً . ثم خطر له ان يتجه الى منزل سلافة  
لانه ما زال يرجو ان تكون شوكار حية ، واذن لا يليق به الخروج من  
بغداد قبل ان ينتقم لها . قضى مسافة الطريق وهو يردد ما سمعه  
من مؤيد الدين عن عزم هولاء على ابادة العباسيين . ففكر في الأمر  
مستوحيا نفع نفسه ، كما يفعل كل انسان في كل زمان . وليس  
ما يدور على أفلام الكتاب من أسماء الفضائل الراقية ، كالارحية  
والنجدة والاتحاد والشجاعة والاحسان وغيرها ، الا أسماء  
مختلفة ترجع الى معنى واحد وهو « المنفعة الذاتية » فمن اراد ان  
يستنهض همم جماعة لعمل فلن يلقي نجيبا ان لم يكن في ذلك العمل نفع  
عائد على كل منهم

فكر ركن الدين في مطامعه الراسخة في قلبه ، ومرجعها طلب السلطة

في مصر ، فرأى لذهاب الخلافة العباسية علاقة كبيرة بذلك فاعمل فكرته للاستفادة من تلك الاحوال ، وعاده الخاطر الذي كان قد مر في ذهنه بالامس وهو أن يجعل مصر قسبة الخلافة العباسية بحيث لا يستغنى عنها سلطان ولا أمير . وارتاحت نفسه الى هذا الأمر ، وتذكر الامام احمد وما سمعه عنه من اللياقة لهذا المنصب وأنه محبوب قرب باب كلواذي . فرأى ان يتأمله ويسعى في اتقائه فاذا فتك هو لاكو بسائر بني العباس احتفظ هو بهذا الامام . ومتى صار هو سلطانا على مصر جعله خليفة فيها . فلما تصور ذلك رقص قلبه من الفرح



قطع ركن الدين الطريق الى باب كلواذي وهو غارق في هذه الهواجس ، ولم ينتبه الا والناس في ازدحام وهرج عند ذلك الباب وقد أخذوا في نصب القسطنطين للخليفة ، فعاد الى تذكر الخليفة وما علمه من مصره ، وتذكر الامام احمد لعلمه أنه مسجون قرب باب كلواذي فنأدى عابدا فدنا منه فقال له : « يقولون ان الامير احمد عم الخليفة مسجون في قصر بهذه الجهة فهل تعرف مكانه ؟ »

قال : « اظنه هذا القصر » . وأشار باصبعه الى قصر وراء قصر سلافة

قال : « هل تعرف احدا من خدمه او حرسه ؟ »

قال : « كلا يامولاي . لانه نقل الى هنا من عهد قريب ، واذا شئت ان ابحت في ذلك فعلت ، هل تريد الذهاب اليه الآن ؟ »

قال : « اريد الآن ان اعود الى سلافة وافرج جهدي في استطلاع خبر شوكار لاني على وشك سفر . . كن على استعداد يا عابد ، هل تسافر معي الى مصر ؟ »

فقال شاكرا : « ذلك حظ كبير لي يامولاي ، ولكن شوكار ، هل تذهب بدونها ؟ »

فأثر سؤاله في نفس ركن الدين تأثرا شديدا ، وكان أولى به ان يسأل نفسه هذا السؤال ، فقال وهو يستمهل الفرس بالمسير : « آه يا عابد ان سؤالك هذا دلني على غيرتك وصدق خدمتك . صدقت كيف تأتي بغداد لاجل شوكار ونرجع بخفي حنين ؟ هذا لا يكون . . انا سائر الآن الى سلافة اللعينة ولا بد لي من ان اقف على مصير شوكار ، وعند ذلك افعل ما يرضي المروءة والوفاء »



وكان ركن الدين يسير على جواده الهوينى على ضفة النهر وعابد  
يماشيه فوصل الفرس الى عشب استطيعه فوق ليتناول منه شيئا .  
فقال عابد : « انظر يا مولاي ، لا يلقى بي أن أحذرک أو ألقت نظرك  
لكننى استأذنى فى هذا الأمر ، بلغنى عن سلافة هذه أنها من شر  
النساء وأدها من حتى أن الخليفة لا يرد لها طلبا ، وأنت ستكون وحيدا  
فى قصرها فأحذر أن تغدر بك أو تستعين عليك ببعض الأشقياء  
خلسة » .

فأثنى ركن الدين على غيرته وقال : « لا تخف على يا عابد ، لكننى  
أوصيك بالانتظار فى الحديقة قريبا من القصر ، فإذا لحظت مكيدة أو  
شيئا فنبهنى بالتداء على الملاحين فى هذا النهر ، أى أجعل نفسك  
كانك تنادى ملاحا أو شك أن يفرق فتحضره من الفرق ، وأنا  
حالما أسمع صوتك أفهم المراد ، وفى كل حال لا تفارق الجواد وليكن  
مهيأ للركوب » .

فأجاب مطيئا ودخلا الحديقة ، وأسرع الحارس فى إبلاغ خبره الى  
سلافة فهزولت لاستقباله وقد بدلت بثوبها ثوبا أجمل منه ، وتلقته  
بالترحاب ودخلت به الى القاعة وهى تقول له : « أرجو أن تكون قد  
نجحت فى مهمتك » . قال : « وأى مهمة ؟ » . قالت : « ألم تذهب  
فى هذا الصباح مع أستاذ الدار على أن تلقى أمير المؤمنين ليؤليك قيادة  
الجند ؟ فهل تم الاتفاق على ذلك ؟ » . قال : « لم يتم شيء من هذا  
القبيل ، أرى أنه لم يبلغك الاتفاق الذى أبرم بين هولاء والخليفة »  
قالت : « لا . ماذا جرى ؟ »

قال : « بعث الخليفة وزيره مؤيد الدين الى هولاء للبحث فى شأن  
وقف القتال ولو هوئنا ، فعاد الوزير ونحن عند الخليفة وأبلغه أنهم  
اتفقوا مع هولاء على أن يخرج الخليفة بنفسه اليه مسترضيا الى باب  
كلواذى . وإذا أطلت من هذه النافذة رأيت الفراشين ينصبون  
الفسطاط الذى سيأتى المستعصم لللاقة هولاء فيه ، وهذا الاتفاق  
يمنع حدوث حرب ، ولم تبق حاجة الى قائد ريشما نرى ما يكون »  
فلما سمعت كلامه نهضت الى النافذة وتطلعت ، فرأت الفسطاط  
يوشك أن يتم نصبه فصغقت ولطمت خدها وقالت :

« ويلاه ! وأذلاه ! أمير المؤمنين يخرج من قصره للاقة عدوه  
ليسترضيه ؟ . قل على الخلافة وأصحابها السلام . . » . قالت  
ذلك وبن التفكير فى عينيتها وركن الدين صابر فإذا هى تقول له : « لم  
يبق لنا وطرف فى هذا البلد ولا خير فى المقام به هلم بنا . وهذه  
أموالى وجواهرى وكل ما أملك بين يديك . هلم بنا » . فقال : « الى

أين ؟ » . قالت : « إلى مصر » . قال : « نذهب إلى مصر وحدنا ؟ » .  
قالت : « خذ من شئت من الاتباع والاعوان »

فنظر إليها باهتمام وقال : « وشوكار ؟ » . قالت : « ألم أقل لك  
عن مصيرها ؟ » . قال : « لا أفهم ما تقولين . جئت من مصر إلى  
بغداد للبحث عن شوكار فلا أرجع بدونها »

فهزت رأسها هز الاستغراب وأبتسمت وقالت بلطف : « ماذا أعمل  
ياسيدي ؟ » من أين أتى بشوكار وقد قلت لك انها غرقت وأصبحت  
طعاما للأسماك » . فأجابها يهدوء : « لا . انها لم تموت ، ولا بد انها  
موجودة في مكان . ابحثي عنها لعلك تجدينها فاني لا أرجع بدونها »  
فزاد استغرابها وقالت : « ماذا تعنى ؟ أظنك تمزح »

قال : « كلا . انى أقول الجذ وقلبي يحدثنى بأن شوكار لم تموت »  
فأمسكت يده وهى تقول : « اذا كنت لم تصدق فتعال لاريك  
برهاناً يقنعك وتتأكد صدق قولى »

فلمشى معها فمرت في دهليز إلى غرفة تشرف على دجلة ، وتقدمت  
إلى خزانة في الحائط فتحتها واستخرجت صرة أخرجت منها خصلة  
كبيرة من الشعر وقدمتها اليه ، فحالما وقع نظره عليها عرف انها شعر  
شوكار ، فاقشعر بدنه وارتعدت فرائصه وصاح : « ما هذا ؟ »

قالت : « اليس هذا شعر المسكينة المأسوف على شبابها شوكار ؟ » .  
قال : « نعم ، ومن أين أتاك ؟ » . قالت : « جاءني به الملاحون الذين  
أرسلتهم إلى قصر التاج ليأتوني بها إلى هنا لأجل الاستشفاء ،  
فجاءوني بهذا الشعر وقالوا ان السفينة انقلبت بهم في هذا المكان  
( وأشارت إلى مكان في الماء تحت القصر ) وانهم حاولوا اخراجها  
فأمسكوا بشبابها وشعرها فغرقت وتقطع شعرها وظل في أيديهم »

فأصبح صدر ركن الدين يعلو ويهبط ، وهو يقف كالرجل من  
الفيظ ، وأطرق بفكر فيما سمعه وأوشك أن يعتقد اشتراك سلافة في  
قتل شوكار . وظننت هذه أن بأسه من لقاء شوكار هو عليه الرضا بها  
فوضعت يدها على كتفه تلطفاً وأبتسمت وهى تقول : « أظنك صدقتني  
الآن ، أه يا ركن الدين لو تعلم منزلتك في الحب عندي . لقد بذلت كل  
ما في وسعى لكي أجعلك قائداً عند الخليفة فتكون أعظم قائد في  
الإسلام . ولا يغضبك أن ذلك لم يتم فاني قد هيات سلطنة مصر  
ومهدت لك سبيلها ولم يبق الا أن تصل إلى القاهرة فتنتالها »

## موت شجرة الدر وعز الدين

وقع لفظ السلطنة على قلب ركن الدين أجل وقع لأنه أقصى ما يتمناه فخف غيظه ومال الى استطلاع حقيقة ما تقوله سلافة ، وظل ساكنا وهي ترعاه بنظرها . فلما رأت سكوتة أمسكت بيده ومشت الى شرفة في تلك الفرقة تطل على دجلة وأومات اليه أن يقعد على وسادة هناك ، وقعدت هي بجانبه والماء يجري بين أيديهما ، وركن الدين لا يرى شيئا لعظم ماجاش في خاطره ، فقعد فعود التحفز وأدركت هي أنه يطلب تفصيل ما ذكرته

ف قالت : « اظنك تحب أن تطلع على تفاصيل خبر سلطنة مصر وما فعلته في سبيل اعدادها لركن الدين ؟ . آه لو تشعري يا قاسي القلب بعظم حبي ، ولكنك ستشعر متى علمت بما ارتكبته من الامور العظام في سبيل مرضاتك »

وتنحنحت ووضعت صغيرة الشعر الى جانبها استعدادا للحديث ثم قالت : « فارقت القاهرة وأنت تعتقد أن الملك الأشرف سلطان عليها وعز الدين ابيك وصي عليه »  
فهرز رأسه أن : « نعم »

فضحكت وقالت : « ذهب هؤلاء جميعا وذبحت شجرة الدر معهم »  
قال : « الي أين ؟ » . قالت : « الى الموت » . فأجفل وقال : « كيف ماتوا ، أنك تكذبين » . قالت : « سأمحك الله على هذه التهمة ، أنا لا أكذب ، الا اذا كان ذلك في سبيل مرضاتك . نعم قد ارتكبت في هذا السبيل افطع من الكذب ، ارتكبت القتل والخيانة في سبيل ركن الدين ، وهو ما زال يرضن على بكلمة أو لفظة » . قالت ذلك وغصت بريقها وتلالا الدمع في عينيها ، فتأثر ركن الدين من منظرها لكنه تجدد ليسمع تنمة الحديث

ف قالت : « أنك تركت عز الدين وصيا على الملك الأشرف ، وقد رضى بذلك ، وشجرة الدر ساكنة قانعة بالسلامة ، ولو بقي الحال على ذلك لم يبق لركن الدين سبيل الى نيل السلطة . وهب أنه نالها فهو لا يكون

سلطانا بل وصيا والسلطان من بنى أيوب ، وأنا أريد أن يكون ركن الدين سلطانا كما وعدته ، أتدري ماذا فعلت ؟ »

فتطاول لسماح الحديث فقالت : « أظنك تعلم منزلتي عند عز الدين ومقدار انصياعه إلي لاني كنت السبب في نيله ذلك المنصب بعد خلع شجرة الدر . أنا خلعت شجرة الدر ونصبت عز الدين ، وأنا جعلت القوم يختارون سلطانا أيوبيا ففعلوا وصار عز الدين وصيا . فعلت ذلك تمهيدا لك يا قاسي القلب ، وقد ذكرت لك عملي هذا ونحن في القاهرة فلم نعبأ بقولي ، وأوشكت أن أنقلب عليك وانتقم منك ، لكن قلبي لم يطاوعني فظلت على حسن ظني بك ، والقيام على خدمتك ، فأغريت عز الدين بالملك الأشرف فألقاه في سجن مظلم سيموت فيه قريبا إن لم يكن قد مات . وقبض عز الدين على السلطنة بيده ولم ينازعه أحد في ذلك ، بقي على أن اتخلص من عز الدين ليخلو الجو لركن الدين ويكون هو السلطان ، وأنا أعلم أن لعز الدين أعوانا أشداء ولايسهل قتله ، فأغريت به شجرة الدر ، وكان قد تزوج بها فدسست بواسطة بعض الجوارى من أبلغ شجرة الدر أن عز الدين لايجبها وأنه عازم على التزوج بابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . وشغلت عز الدين عن زيارتها مدة فتحققت تلك الاشاعة ، وأنت تعلم غلط قلب هذه المرأة ، فاشتدت غيبتها حتى أغرت بعض الخدم وأوصبتهم إذا دخل عز الدين الحمام أن يقتلوه خنقا فقتلوه وقالوا انه أقمى عليه في الحمام فأخرجوه وشاع انه مات مصروعا

فصاح ركن الدين : « مات عز الدين ؟ » . قالت : « مات ومات أيضا شجرة الدر »

فقال : « وشجرة الدر أيضا ماتت ؟ وكيف ذلك ؟ » . قال ذلك وقد غلبته الدهشة

قالت : « لما توفي عز الدين بايع القوم ابنه نور الدين علي ، وكنت قد ربيتة ، وهو يصغي لقولي ، فلما تولى أتاباته أن شجرة الدر هي التي قتلت أباه ، وحرضته على الانتقام له ، فأوعز إلي نساء بيته فاماتوها ضربا بالقباقيب على رأسها ، وطحروا جثتها في خندق القلعة فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي في مقابر السيدة نفيسة »

فبغت ركن الدين لذلك الحديث وقال : « أكنت أنت السبب في ذلك كله ؟ »

قالت : « نعم . أنا السبب في ذلك ، وقد ارتكبت هذه الأمور في سبيل مرضاتك ، فانت إذا نزلت مصر الآن لاتجد من يقاومك ، وهذا

نور الدين على في قبضة يدي ، اذا شئت قتلته ايضا ، فتكون انت سلطان مصر »

فادهشته تلك الفظاعة والقسوة من امرأة ، وخيل له انه قبض على السلطة بيده ، فاختلج قلبه في صدره ، وأطرق لحظة يفكر ، فوقع نظره على خصلة الشعر بجانب سلافة ، فعادت صورة شوكار الى ذهنه ، وتذكر أن شجرة اللر كانت السبب في خطبتها ، وإن هذه المرأة الخائنة اعترفت بأنها كانت سبب قتل كثيرين ، ورجح لديه انها قتلت شوكار ايضا . وما يمنعا أن تقتله اذا خامرها شك في صداقته ويشت منه ؟ فتحير في أمره معها . فلما رآته ساكتا قالت : « اريت ماذا ارتكبت في سبيل حبك يا قاسي القلب ؟ وانت تحاسبني الآن على جارية تستطيع أن تبتاع أحسن منها بمائة دينار! دع عنك الجفاء ، ولننس الماضي ، ونذهب الى مصر لتتم سعادتك ، وهذه أموالى بين يديك »

فمر بخاطره انه اذا اطاعها صار سلطانا ونال البقية التي طالما شغلت باله وتمناها قلبه ، لكنه ما لبث أن أكرر ذلك على نفسه وتصور شوكار وما أصابها بسببه ، فنهض على رغم ارادته فنهضت سلافة معه وهي تحسبه اقتنع بأقوالها ، فمديده الى خصلة الشعر وتناولها ، وجعل يتفرس فيها فقالت سلافة وهي تداعبه : « أظنك تأسف على صاحبة هذا الشعر ، ولكن ما لك وله وهذا شعر امرأة حية تخاطبك وتتمنى رضاك ؟ ! » . وأشارت الى خصلة من شعرها مرسلة على كتفها فقال : « وشوكار ؟ هل ماتت ؟ » . فقهمقت وقالت : « ألم اقل لك انها ماتت ؟ » . قال : « قلت ذلك نقلا عن اللاحين وقد يكذبون » . قالت : « بل هم صادقون ، ولماذا يكذبون ؟ » . قال : « قد يكون لهم غرض »

فنظرت اليه نظرة هيام وقد احمرت عيناها من فرط ما جاش في خاطرها من أمره ، ثم قالت : « لقد أخرجتني يا ركن الدين لأؤكد لك موت هذه الجارية . انها ماتت ، وأنا ذبرت قتلها ، وقد فعلت ذلك ايضا في سبيل الحصول عليك لئلا يكون وجودها حائلا بينى وبينك ، وهي تمة الفظائع التي ارتكبتها لأجلك »

فلما سمع إقرارها لم يعد يستطيع التجلد والأغضاء ، ونظر الى ما حوله فلم يجد من يخشى بأسه ، ولاحت منه التفاتة فرأى عابدا في الحديقة يشير اليه بيده أن يقتلها ، فقال في نفسه : « لأمرا ما يلح على هذا الغلام بقتلها » . فاستل خنجره وطعنها في قلبها طعنتين ،

فسقطت على الارض لا تبدى حراكا واغمد خنجره وأخذ صرة الشعر  
بيده وتحول الى الباب ، ولم يجد في البيت أحدا يعترضه



ماكاد ركن الدين يحتاز الباب حتى استقبله عابده والفرس معه ، وأوما  
إليه إن يركب وهو يقول : « لا شئت يمينك ! قد انتقمتم لسيدتى  
شوكار ، أركب يا سيدي وهلم بنا »

فركب وخرج من الخديقة ، وإذا هي خالية ليس فيها أحد من  
الناس ، فلما صار خارجها قال لعابده : « لماذا تعجلت قتلها ؟ »

قال : « لأنى تيقنت من بعض الخدم أنها هي التى تعمدت قتل  
سيدتى شوكار ، فأغريت من كان هنا من الخدم بالذهاب الى باب  
كلواذى لمشاهدة الخليفة قادمًا الى الفسطاط الذى نصبوه له ، فمضوا  
وخفت أن تقتلك تلك الحبيثة بأنها بريئة فتؤجل قتلها »

فقال : « بورك فيك من صادق أمين . لقد اعترفت بأنها قتلتها ،  
واعترفت بفظاعتها ولكن كيف عرفت أنت أنها تعمدت قتلها ؟ »

قال : « اغتيمت انفرادى ببعض خدمها وتحدثت في شؤون عديدة ،  
وقصصت عليهم فظائع زعمت أنى ارتكبتها بإيماز مولاي بين قتل  
ونهب واغراق . وكنت أقول هذا مفتخرا فتحركت غيرة أحدهم  
وقص على كيف كلفتة سلافة مع رفيق له أن يأتيا بشوكار من قصر  
التاج الى هذا القصر ، وأنها أوعزت اليه سرا أن يجعل المسير ليلا ،  
وأن يفتنم فرصة يحتال فيها لالقاء الفتاة في دجلة ، وقال أنه لم  
يستطع ذلك إلا قبيل وصوله الى قصرها ، لأن قاربًا آخر كان في أكثر  
الطريق قريبا من قاربهم لا يعرفون من فيه . فقص شعرها بخفة  
ورماها في دجلة ، هوذهب بالشعر الى سيدته شهادة على امضاء  
امرءها . فسألته : هل رآها غرقت ؟ فقال أنه لم يقدر أن يراها لشدة  
الظلام ، لكنه لا يرتاب في أنها ماتت »

فاطمان ركن الدين عند سماع هذا الحديث لأنه رأى سلافة تستحق  
القتل وقال في نفسه : « الا يمكن أن تكون شوكار قد نجت بقضاء  
الله . » ولم يذكر ذلك أمام عابده ، لكنه استحثه الى سجن الامام أحمد  
ابن الظاهر

فسباق فرسه ، وقد أوشكت الشمس أن تغيب ، وإذا بجند هولوكو  
يركضون من جهة برج العجمى نحو باب كلواذى والناس يفرون من  
بين أيديهم ، فتحول عابده بالفرس الى الطريق المؤدى الى سجن الامير



« وقص كيف كلفته سلافة مع رفيق له أن يأبى  
 بشوكار من قصر التاج ، وبقاياها في نهر دجلة »





أحد ، وركن الدين يفكر في سلافة من جهة وفي مصير الخليفة وأهله من جهة أخرى ، فأراد أن يلقي نظرة على بغداد في نور الشفق عند الغروب ، فصعد إلى مرتفع يطل على باب كواذى وما يجاوره إلى برج العجى ، فهوى التتر زاحفين نحو المدينة ، وتحولت شرمة منهم نحو قصر سلافة وتسلقوا أسواره ، فالتفت عابد إلى ركن الدين وقال : « هل ترى يا سيدى ؟ » . وأشار بيده إلى القصر

فقال : « أرى القوم هاجين يريدون النهب ، ولا أظنهم يجدون من يردهم . . سيجدون سلافة مضرجة بدمها ، وأظنهم يشتركون مع خلمها في النهب والقتل ، تلك آخره القوم الظالمين . كم كنت أحب أن أطلع على ما يجرى في بغداد غدا ، هيا بنا إلى الإمام أحمد »

وقبل الوصول إلى قصره رأوا الحرس وقوفاً بالبواب ، فتقدم عابد وسأل عن الإمام أحمد هل هو هناك فأجابه الحارس : « نعم لكنه في شغل شاغل »

قال : « بماذا ؟ » . قال : « جاءه زائر منذ حين » . قال : « استأذن لنا في الدخول عليه » . قال : « لا أظنه يأذن لأحد لأن أمير المؤمنين يمنع الناس عن مخاطبته »

قال : « نحن غرباء ، وقد أمسى علينا المساء قبل دخول المدينة ونطلب البيت إلى الغد »

فقال : لا بد من الاستئذان ، فماذا أقول له ؟ »

قال : « قل له أننا من مصر نطلب الراحة الليلة »

فذهب الحاجب وطلال غيابه ، وركن الدين لا يزال على جواده ، وعابد واقف ، وبعد برهة سمعوا وقع أقدام الحاجب ثم وصل ومعه رجل آخر تقدم وتفرس في ركن الدين وصاح : « الأمير ركن الدين تغفل يا مولاي »

فعرف ركن الدين من صوته أنه سحبان فترجل ودخل معه إلى دهليز نوره ضعيف لا يسمع فيه صوت ، وقد استولى الهدوء على المكان كأنه مقر الأموات ، فتهيب ركن الدين وتوقع أن يبادئه سحبان بالكلام ، فلما رآه ساكناً قال له : « أنت هنا من زمن بعيد ؟ » . قال : « منذ ساعة » . قال : « وهل الإمام أحمد هنا ؟ » . قال : « نعم » . قال : « أين هو ؟ »

قال : « يلبس ثيابه للخروج مع الخليفة وأهله إلى الفسطاط لمقابلة هولاء كما تم الاتفاق في هذا الصباح »  
قال : « ومن أشار عليه بذلك ؟ »

قال : « جاءه الأمر من الخليفة كما جاء لجميع الأمراء العباسيين »  
قال : « وهل وافقت على أن يذهب معهم »  
قال : « لماذا أمنعه ؟ دعه يذهب »

وبان الغدر في عينيه ، فتذكر ركن الدين مطامع سحبان في ارجاع الخلافة الى الفاطميين ، وأنه ينوى قطع ذابر العباسيين من الأرض حتى اذا لم يجد المسلمون خليفة يبايعونه هان عليهم مبايعة الخلفاء الفاطميين فتعود دولتهم . ولكن هذا يخالف مطامع ركن الدين ، فرأى من الحزم أن يحول دون خروج ذلك الأمير من قصره في تلك الليلة ، فاستوقف سحبان وقال له : « لا ينبغي لنا يا سحبان أن نسوق هذا الأمير الى القتل »

قال : « انهم لم يدعوه للقتل ، ولكن لمقابلة هولاء مع سائر بنى العباس لكف عن الحرب »

فضحك ركن الدين وامسك بكتف سحبان وهزه وقال : « تقول ذلك لى ، وقد سمعنا خبر الاتفاق معا ؟ دع الرجل حيا »  
قال : « وهل يهلك بقاؤه ؟ »

قال : « هب ان بقاءه لا يهينى ، فلا ينبغي أن يهلك أنت قتله ، دعه أين هو الآن ؟ »

قال وقد تلعم وأرتبك : « أظنه خرج »

قال : « لا يمكن أن يكون قد خرج ، ينبغي أن تحضره تو الساعة » .  
قال ذلك وبان الغضب في عينيه

فخاف سحبان غضبه وعمد الى الملاينة وقال : « أراك قد غضبت يا ركن الدين ولا موجب للغضب ، اذا كان الامام أحد هنا فهو يسر بلبقائك » . واطهر الاهتمام ومشى الى باب غرفة الأمير وقرعه وركن الدين واقف فسمع الامام يقول : « أوشكت ان أنتهى من وضع ردائى » فقال سحبان : « هنا أحد الضيوف يرغب فى لقاء مولاي »

## الامام احمد بن الظاهر

فتح الباب واطل الامام احمد وقد لبس بعض ثياب الخروج ، ولم يبق الا الجبة السوداء شعار الفاسيين وقد تناولها ليلبسها ، فتقدم سحبان وساعده في لبسها وهو يقول : « أقدم لمولاي الامام الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى ذكرت لك لسمه الساعة » . انه جاء من مصر ، وكان الخليفة قد ازاد ان يعهد اليه في قيادة الجند ، ثم جرى الاتفاق والصلح بالشكل الذى ذكرته الآن ، وقد جاء ضيفا على مولاي »

فابتسم الامام احمد وقال : « مرحبا بالامير الباسل ، تنزل علينا على الرحب والسعة » . وأشار اليه ان يدخل ثم قال : « تمكث هنا ريثما أعود من مقابلة هولاء بعد قليل »

فلم يتمالك ركن الدين ان قال : « لا ينبغي لمولاي ان يخرج من هذا القصر الليلة »

قال : « ولكن امير المؤمنين يهث الى ان اذهب قياما بالاتفاق الذى عقد بينه وبين هولاء ، وإخاف ان يترتب على تخلفي ضرر ، وقد استشرت سحبان فأشار على بالذهاب »

قال : « أظنه غير رايه الآن ، أسأله »

فالتفت الامام احمد الى سحبان فراه أسرع الى التنصل من تلك المشورة وقال : « غيرت رأي لان الامير ركن الدين نهى الى امر فائى والافضل ان يبقى مولانا الليلة هنا ، وسنرى ما يكون فى الغد » .

قال : « وبماذا أجيب الرسول ؟ »

قال ركن الدين : « قل انك ستنتظر فى الامر »

وشق على سحبان حبوط منعه ، فكتم ما فى نفسه وظهر انه مضطر للذهاب فى تلك الساعة ، فأذن له وانصرف . فارتأى ركن الدين فى نية سحبان ، وأعمل فكرته فيما قد يكون غرضه ، وعزم ان يصطنع الدهاء والحيلة للوصول الى هدفه الذى جعله نصب عينيه منذ نشأت مطامعه السياسية ، فعنى الوصول الى السلطنة ، وهى تستلزم

وجود خليفة عباسي يثبت ، وقد كاد أن يوقن أنه ظافر بها بعد ماسمعه من حديث سلافة ، فحالما خرج سحبان نظر ركن الدين الى الامام احمد وقال : « هل يعرف مولاي هذا الشيعة من عهد يعيس ؟ » . قال : « نعم » . قال : « وهل هو على ثقة من اخلاصه ؟ » . قال : « لم يظهر لى منه ما يوجب شكاً » . قال : « وهل تظن الشيعة يخلصون للخلفاء العباسيين ؟ »

فاطرق الامام لحظة وقال : « لا أدري » . قال : « يأذن لى مولاي أن اصارحه القول ، ونحن الآن على باب مستقبل جديد واتقلاب عظيم »

فاستغرب الامام احمد هذا التعبير وقال : « وأى انقلاب تعنى . كنا نخاف الانقلاب قبل عقد الصلح بين الخليفة وهولاكو ، وأما الآن فلا تلبث الامور أن تعود الى مجاريها »

فابتسم ركن الدين ابتسامة تهكم واستخفاف وقال : « ان الذى بلغ مولاي ليس سوى خداع ، واذا كان المبلغ سحبان نفسه فانه يكون قد تعمد الكذب ، لانه يعلم ان حقيقة هذا الاتفاق تخالف ظاهره . ان الحقيقة فى ذلك تقشعر منها الابدان وتشمئز منها النفوس ، اعوذ بالله منها وأدعو الله أن ينجي الامام احمد من عواقبها »

فوقع هذا الكلام فى نفس الأمير وقعا شديدا ، وتهيب مما سمعه ، وعظم أمر ركن الدين فى نفسه وأصبح شديد الشوق الى معرفة سر الأمر فقال : « انى أرى الجذ فى كل كلمة أسمعها وكل حركة أراها . قل أيها الأمير . أفصح . انى شديد الثقة بك »

قال : « لو ان مولاي أطاع سحبان وذهب فى الأمر الذى دعى اليه لاصبحت بغداد وليس فيها واحد من نسل العباس كرم الله وجهه » . قال ذلك وأبرقت عيناه واشتد لعائهما لاضطراب النور الواقع عليهما من المصباح فخيّل للأمير احمد أنه يخاطب رسولا هبط عليه من السماء وقال : « وكيف ذلك ؟ » . قال : « لأن ظاهر الاتفاق بين المستعصم بالله وهولاكو ان يجتمع هذا بالخليفة وأهله للتصاق والصلح ، وأما حقيقته فهى أن يفتنم هذا التترى الفرصة ويفتك بينى العباس جميعا »

فلما سمع الامام احمد ذلك ارتعدت فرائضه وقال : « وهل كان سحبان يعرف ذلك ؟ » . قال : « نعم » . فقال : « قبح من خائن ، وبارك الله فيك ! انى لا أنسى لك هذه اليد ما حييت . ولكنى أجزع لما سيحل بأهلى وقومى ، هل أنت على ثقة مما تقول ؟ »

قال : « نعم . وفى القدر يظهر الحق ، وعسى أن أكون مخطئا فيكون

ذلك الصلح صحيحا وترجع الأحوال سيرتها الأولى ولا يكون من ينس على مولاى الإمام ، وإذا لحقته من ذلك تبة ، فانا اتحمل عنه كل تبة واقديه بروحى »

فازداد الأمير اعجابا بركن الدين ، وهان عليه أن يفعل كل ما يأمره به لأنه أنقذه من الموت ، فأخذ يشنى عليه ولا يعرف كيف يعبر عن شكره . فقال ركن الدين : « لم أقل ما عندى بعد » . قال : « قل أيها الصديق »

قال : « إذا خلت بغداد من بنى العباس غدا تنحصر الإمامة فيكم ، فلا تظهر للناس ، واستتر كما استتر أئمتكم قبل ظهور دعوتكم على يد أبى العباس والمنصور فى بغداد حتى يأذن الله بظهورها ثانية فى غير بغداد . ستظهر فى مصر ، والقاهرة التى كانت عاصمة الفاطميين الذين يطعم سبحانه هذا فى أرجاء ملكهم تصير عاصمة ثانية لبنى العباس »

فازداد الأمير دهشة من هذه المن التوالية ، ورأى أنه قد آن له أن يكافئه على خدماته بمثلها فقال : « إذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يحدث ما تقوله وتصير الخلافة الى فالسلطنة فى مصر لآئناها سوى الأمير ركن الدين بيبرس »

فوقع القول عنده موقع الرضا ، وقال : « ان السلطنة ياسيدى ينالها الآئوى ، وأما الخلافة فانها حق موروث لا توهب ولا تباع » قال : « وهل فى مصر من هو أهل للسلطنة سواك ؟ » . وأطرق يفكر فيما هو فيه من غرائب الامور ، وتصور المستعصم وسائر أهله فشق عليه ذلك ودمعت عيناه وقال : « يشق على أيها الأمير أن يصيب بغداد ما تقوله »

فقال ركن الدين : « أظن مولاى لا يجهل سبب ذلك ، ان النعمة فيه على فساد الأحكام وضعف الخليفة واستسلامه للملاهي والأشتغال بالفناء ، فانه لم يسمع بمعنىة فى اطراف المملكة الا بعث فى استقدامها ، وأطاع التملقين ، وبخاصة ابنه أبا بكر ، وغير ذلك مما لا يليق بصاحب هذا المقام ، فلعل الله أزال هذه النعمة عنه ليضعها فيمن هو أهل لها »

فقال الأمير أحمد : « قد آن وقت العشاء فلنذهب الى الصلاة ريثما يعدون لنا الطعام فنأكل ثم نذهب للرقاد التماسا للراحة »

فقال ركن الدين : انى طوع ارادة مولاى فى كل ما يريد به الا الرقاد ، فليذهب مولاى الى فراشه متى شاء ، وأما أنا فسامكت ساهرا أقرب ما أخشاه . ان خروج سبحانه على النحو الذى خرج به لم

يرضنى ، ونحن على كل حال في إبان فتنة كما يعلم مولاي «  
 فأعجب الأمير بيقظته وعلو همته وقال في نفسه : « مثله يليق  
 بالسيادة » . ثم خاطبه قائلاً : « بارك الله فيك أيها الأمير وما الذي  
 أخافك من سحبان ؟ »

قال : « أخافني فشله وسكوته ، ولوجدلتي وعنفتي على معارضتي  
 له لما خفت خوفي من كظمه لأن الكظم يحبس الفيظ ويزيد النعمة »  
 قال : « لا ينبغي أن تخافه لأنه من أوليائنا وأصدقائنا »

قال : « لعلني مخطيء ، وعلى كل حال أتى شديد الحذر ، وإن شاء  
 مولاي فاني رفيقه الى الصلاة » . فنهض الإمام أحمد وذهباً للصلاة في  
 مصلى خاص هناك ، وعاداً للعشاء



استحسن ركن الدين مآظر من تقوى الإمام أحمد وتدينه وتوكله ،  
 وجلسا الى الطعام فتناولاه ، والأمير أحمد يبالغ في أكرام ركن الدين  
 الذي انتقله من القتل ، فقال له ركن الدين : « لم أعمل من عند نفسي ،  
 إنما كان ذلك بقضاء الله مكافأة على حسنة من حسناتك الكثيرة »

فأطرق الأمير أحمد وهو يتسم كأنه تذكراً ما يسهه تذكره ، فتوقع  
 ركن الدين أن يقص عليه سبب ابتسامه فسكت وأخذ يراعيه فقال  
 الإمام أحمد : « أعلم أيها الأمير أتى شديد الاعتقاد بأن من يعمل خيراً يلق  
 خيراً ، ولعل الله بعثك الليلة لاتقاضي من هذا الخطر مكافأة على حسنة  
 وفقت الى آياتها بقضاء من الله »

فأعجب ركن الدين بتواضعه وانصت .سمع تنمة الحديث فقال  
 الإمام : « أحمد الله على ذلك التوفيق ، فإنه من نعم الولي . . وقد  
 وفقت اليه وأنا في أشد الضنك ، واستبشرت من تلك الساعة . وذلك  
 أتى كنت سجيناً في قصر الفردوس ، وأنا صابر على السجن ، ولا  
 ذنب لي غير أتى من آل العباس المرشحين للخلافة . وكم شكوت الى  
 الله ذلك وتعميت لو كنت من عامة الناس ، ولكن الخليفة لم ينع  
 بالسجن فأراد مزيداً في التضييق فأمر بنقلي الى هذا القصر ، فنقلوني  
 ليلاً في سفينة نزلنا فيها دجلة في مثل هذا الوقت ، وكان النوبة ومن  
 جاء معهم من الجند بكرمونني ووثائسونني ، لكن نفسي ضاقت وعظم  
 على ذلك الظلم ، وانفردت في مكان عند مقدم السفينة أتشافل بالتفرج  
 على الماء في الظلام ، وكان نظري يقع بين الفينة والفينة على سفن  
 تمر بنا صعوداً أو نزولاً ، واستأنس بتداع ملاحبها أوغنائهم الا سفينة

كانت سائرة على مقربة منا لم نسمع فيها صوتا ولم نعلم بوجودها الا من نور ضعيف كان معلقا في ساريتها ، وقبل وصولنا الى هذا القصر بقليل سمعت صيحة ورايت شبحا وقع في الماء فحدثني نفسي بجرمة ، فناديت ربان سفينتنا وامرته ان يتعقب تلك السفينة فلم يستطع ولكنه عثر في اثناء تفتيشه على غريق يتحرك ويستغيث ، فاعانه وانتشله وهو على آخر رمق .

وكان ركن الدين يسمع الحديث وشوقه يتزايد الى سماع ثامنه ، حتى اذا وصل الى هنا خطر له ان الفريق الذي يشر اليه شوكار ، فلم يتمالك ان صاح : « وهل هي حية ؟ » فاستغرب الامام دهشته وتسرعه وساله كيف عرف انها امرأة ؟

قال : « عرفتها يا سيدي عرفتها ، قل بالله ماذا جرى ؟ »

قال : « فاخلد الاخون في معالجتها حتى افاقت وراينا شعرها مقصوصا ، وارادنا الاستفهام منها عن حالها فلم تشأ ان تقول شيئا ، فلم نكرها على ذلك »

فقال ركن الدين : « هي شوكار ياسيدي ، شوكار ، اريد ان اراها » قال : « لا يا عزيزي ، لو عرفت ان امرها يهلك لاحتفظت بها » . فقال : « اين هي الآن ؟ » . قال : « لما وصلنا بها الى هنا وارتاحت ويدلت ثيابها وانتعشت سألناها عن شأنها وعما تريد ان نساعدنا عليه فلم ترد على ان شكرت فضلنا وأبت ان تبوح بشيء ، لكن الملاحين عرفوا من شكل السفينة ان الفتاة من جوازي الخليفة قضى بافراقها . ولم يجرؤ احد منا ان يقص خبر هذه الفتاة على احد ، وبعد بضعة ايام سألتها اذا كانت تعرف احدا في بغداد تريد ان تذهب اليه ، فقالت انها تعرف سحبان ، وتريد خادما يوصلها اليه ، فتنكرت بلباس الرجال وارسلنا معها بعض الخدم يوصلونها الى بيت سحبان في الكاظمية . وكان ذلك في صباح هذا اليوم ولما جاءني سحبان ورايته انت عندى لم يكن قد علم بوصولها بعد »

فأطرق ركن الدين ، وقد ثارت عواطفه وتضاربت افكاره ، وسر كثيرا لنجاة شوكار ، لكنه اسف لذهابها الى بيت سحبان ، ولا سيما بعد ان وقع ما وقع بينهما في ذلك المساء ، واصبح الامام احمد في شوق الى معرفة علاقة شوكار بركن الدين فسأله عن ذلك فقص عليه خلاصة تاريخ تلك العلاقة في مصر وما ارتكبته سلافة الى آخر الحديث ، فأسف الامام اسفا شديدا لانه بعثها الى بيت سحبان ، لكنه لم يلم نفسه لانه لم يكن يعلم علاقتها بالامير ركن الدين

## التتر يخربون بغداد

وبينما هما في ذلك اذ سمعا ضوضاء في حديقة القصر فاستغرب  
الامام ذلك ، لكن ركن الدين لم يستغربه بل كان يتوقعه وقد استبطاه ،  
فارما الى الامام ان يظل في مكانه ، ووثب كالأسد حتى أتى الباب  
فراى احد الحراس قد دخل واقلع الباب وراءه وهو في اضطراب شديد ،  
فقال له ركن الدين : « ما بالكم ؟ »

قال : التتر يا سيدى ، دخلوا الحديقة وهم يطلبون القبض على  
مولانا الامير وقد غضبوا لانه لم ياتهم من تلقاء نفسه »

قال : « اذهب وقل لهم انى خارج لهم بنفسى »

قال : « ولكنهم يطلبون الامام والا فانهم يأخذوننا عنوة ويقتلوننا مع  
الامام »

وسمع الامام حديثهما فهزول وتوسل الى ركن الدين الا يعارض  
التتر فيما يريدون ، وانه يؤثر الذهاب معهم الى القسطنطينية .  
فاشار ركن الدين اليه قائلا : « كن مطمئنا يا مولاي ، لا يستطيع  
هؤلاء القوم ان يمسوا ظفرك من اظفارك قبل ان يستباح دمي »

قال : « وما الفائدة من اباحة دمك اذا فاز أولئك التتر علينا ، وهم  
فائزون لانهم أكثر عددا وأقوى عدة »

قال : « لا تخف انهم غير فائزين باذن الله » . قال ذلك وصعد الى  
كوة فوق الباب واطل منها على الحديقة فرأها مزدحمة بالناس بينهم  
حيلة المشاعر للانارة وحيلة العصي والنبال والسيوف ، وقد علا  
ضجيجهم وتماثلت غوغاؤهم وفي مقدمتهم رجل يظهر من هندائه انه  
كبيرهم وبجانبه سحبان ، فلما رأى سحبان معه تحقق عنده ماظنه فيه  
منذ خرج من القصر على تلك الصورة . فناداه : « سحبان » . فرقع  
سحبان بصره الى ركن الدين وقال : « لا بد من تسليم الامير احد  
لان خبره وصل الى الخاقان هولاء ولم يعد بالإمكان اخفاؤه » . قال :  
« انى لا ارى تسليمه » . قال : « لكن الخاقان امر بالقبض عليه ، والا  
فان الجند يهاجمون القصر ويأخذونه عنوة » .



قال : « انهم لا يفعلون ذلك ، ولم يخطر لهم ان يفعلوا لولا وشايتك  
فارجع بهم ، وذلك خير لك وابقى »  
قال : « لماذا تعترض وتعرض نفسك لهذا الامر ايها الامير وانت في  
عنى عنه ؟ »

قال : « وانت ايضا في عنى عن هذه الدسائس »  
قال : « فانتى ان اخبرك ان شوكار عندى وانت انما جئت هذا  
البلد من اجلها فاذا شئت فانتى ادفعها اليك ودع هذا القصر »

فلما سمع قوله احس بالتقياض لان سحبان يهدده بشوكار كانه  
يقول له انه اذا لم يطعمه آذاه فيها فوقع في حيرة فقال : « وما تعنى  
بذلك ، وما دخل شوكار فيما نحن فيه ؟ »

قال : « لا اعلم ، والآن افتح هذا القصر والا دخله الجند بالقوة ،  
وانت تعلم عقبي ذلك ، ولا تنس امر شوكار »

وكان الامام احمد واقفا بجانب ركن الدين يحثه على الاستسلام  
ولا سيما بعد ان سمع هذا التهديد فيه وفي شوكار ، فأخذ يحرضه  
ويلح فابى ركن الدين . ولا ابطا ركن الدين في الخضوع وفي فتح باب  
القصر قال له سحبان : « لا تقل ان صديقك سحبان غدر بك ، فانتى  
نصحتك مرارا واعيد النصح الآن ان تسلم والا فانت ومن في القصر  
في قبضة الجند ، ولن ترى شوكار ابدا »

واذا بصوت صاح في وسط الضوضاء قائلا : « لا تصدق ايها الامير  
ان شوكار معنا في امان ، وعرف ركن الدين انه صوت عابد فصدقه  
واحس بانفراج الازمة واشتد قلبه ونظر الى سحبان وقال : « لم اكن  
اتوقع منك يا سحبان ان تحرض الجند علينا »  
فقال : « لم احرصهم ، ولكنهم قادمون بأمر الخاقان »

قال : « كذبت ان الخاقان لم يأمرهم بذلك بعد ان اعطاني الامان  
انا وسائر اهل هذا المنزل وهذا علم الامان انظروه » . قال ذلك  
واخرج العلم الذي كان مؤيد الدين قد اعطاه اياه ، ونشره في النافذة  
فبان جليا للناظرين ، وحالاً رآه الجند التتر طأطأوا رؤوسهم اذعانا  
وتحولوا من الحديقة راجعين ، وسار سحبان في اثرهم كالهارب ،  
ودرك الدين يرقبه ، وقلبه يرقص فرحا بذلك الفوز والامام احمد  
يضمه ويقبله شاكرًا . فنزل ركن الدين الى صحن الدار ونادى غابدا  
وسأله عن شوكار فقال : « هى هنا ياسيدي ، قد علمت بخروجها من  
هذا القصر من الخادم الذى اخذها الى الكاظمية ، فذهبت واتيت بها  
لعلمى ان وجودها هناك يسبب عراقيل كثيرة »

فقال ركن الدين : « بورك فيك من صديق غيور ، أنك لست خادما ، وهذه الاريحية والشهامة جديرة بالصدقة » . ففرح عابد لهذا الاطراء وقال : « اذا شئت أن ترى شوكار فهلم الى غرفتها » . فمشى ركن الدين مسرعا الى تلك الغرفة ، فرأى شوكار لاتزال متنكرة بثوب بعض الخصيان ، فلما رآته طفرت الدموع من عينيها فرحا وترامت على ركبتيه تقبلهما ، فأنهضها وقبل رأسها وقال : « الحمد لله على سلامتك يا حبيبتى .. نشكر الله على هذه النعمة ، والفضل الأكبر في ذلك لمولانا الإمام حفظه الله »

قال الإمام : « الفضل كله لك أيها الأمير ، وأهنيء شوكار بهذا النصيب »  
وانتفت ركن الدين الى عابد وقال : « كيف عرفت يا عابد خبر شوكار ؟ »

قال : « كنت جالسا في الحديقة وصرة الشعر معي ، فسألني بعض الخدم عن خبرها ، وحالها رآها صاح : ( ما أشبه هذا الشعر بشعر الفتاة التي وجدناها في دجلة وأنقذناها من الفرق ) . وبعد أخذ ورد فهمت أن شوكار حلت الى منزل سحبان ، فذهبت بأسرع من لمح البصر وأتيت بها متنكرة كما تراها »

فكرر الثناء عليه ، فزاد فرح عابد ، ولكنه قال : « لا ينبغي لمولاي الإمام أن يبقى هنا »

فقال ركن الدين : « لماذا ؟ » . قال : « لأن التتر وإن كانوا قد تراجعوا فإن سحبان لا يلبث أن يذهب بنفسه الى الخاقان أو غيره ويخبره بوجود الإمام هنا فيبعث في طلبه .. لأنني رأيت في طريق من الفطائع ما لا يخطر ببال بشر »

فقال ركن الدين : « ماذا شاهدت ، هل نزل التتر بغداد ؟ »

قال : « نزلوا دور الخلافة ، ومعهم هولاءكو نفسه ، وتفقد تلك القصور ، وأخرج من فيها من النساء وفرقهن في رجاله »

فقال الإمام أحمد : « والخليفة ؟ ماذا فعلوا به ؟ أين هولاءكو ؟ »

قال : « علمت أن مؤيد الدين الوزير حرض بني العباس وجميع وجوه الدولة على الخروج الى القسطنطينية فقتلهم التتر عن آخرهم ، ثم هجموا عند الغروب على قصور الخلافة وقتلوا كل من وجدوه هناك من أبناء الخلفاء ومن كان منهم صغيرا أخذوه أسيرا ، والقتل الآن على أشده في بغداد ، وللقائد التتري باجو قد عبر البحر الى الكرخ وغيرها وأخذ رجاله ينهبون ويقتلون ، وقد علمت أن الكتب التي كانت



فدورف

« وهم التتر عند التروب على قصور الخلافة وقتلوا  
كل من وجدوه هناك من أبناء الخلفاء العباسيين »



في خزائن قصور الخلافة اخرجوها والقوها في دجلة وهى شىء لا يعبر عنه لكثرة . وسمعتهم يذكرون اسم مولاى الامام وسبب تفييه ، لانهم لم يجدوه في قصر الفردوس كما كانوا يظنون ، ولذلك قلت لكم لا بد من السرعة في الخروج الآن »

فوقع الرعب في قلب الامام أحمد ، فالتفت ركن الدين الى عابد وقال : « أنت من أهل هذه البلاد فارشدنا الى مكان نخفى فيه مولانا حتى تستقر الحال » -

فأشار مطيعا وقال : « ذلك على . فامروا بأخذ ما خف حمله وغلا ثمنه وأتبعونى »

فعمل الامام أحمد وخادمه بما قاله عابد ، ثم ركبوا قبل الفجر ، وعابد يمشى في مقدمتهم حتى خرجوا من بغداد ، وعلموا في اليوم التالي أن التتر يتعقبونهم فلم يروا بدا من الالتجاء الى بعض قبائل العرب ، فالتجأوا الى قبيلة هناك مكث عندها الامام ومعه عابد

ولما اطمان ركن الدين على مصير الامام أوصى عابدا به خيرا ، وسافر الى مصر ومعه شوكار ، حيث عقد زواجه بها ، ووجد سلطان مصر نور الدين ابن عز الدين ، فحرض الامراء على التلذذ منه لانه غلام لا يصلح للحكومة ، وبايعوا بعده سيف الدين قطز سنة ٦٥٧ هـ لانه من سلالة ملوك خراسان ، فصحب ركن الدين على ذلك وهو يسعى لتحقيق أمنيته ليتم له ما دبره من أمر تقبل الخلافة الى مصر

وفي السنة التالية زحف هولاكو على سوريا وبعث يهدد قطز ، فشاوهر الامراء فأشاروا عليه بالحرب وفي مقدمتهم ركن الدين ، فجرد حلة سار ركن الدين فيها ، واضطر هولاكو الى الرجوع لوت والده ، واخذ معظم جيشه معه ، والتقى ما بقى من رجاله بجيش قطز في فلسطين في معركة فاز فيها المصريون وعادوا ظافرين . فافتنم ركن الدين فرصة في أثناء رجوعهم وقتل قطز ، وكان قد تواطأ على ذلك مع رفائه الامراء ورضوا أن يتولى هو مكانه ، فنادوا به سلطانا على مصر سنة ٦٥٨ هـ ولقب بالملك الظاهر . وحالما استقر له الأمر بعث في استدعاء الأمير أحمد فجاءه في السنة التالية ، فبايعه خليفة ولقيه بالاستنصر بالله ، وصارت الخلافة العباسية بمصر من ذلك الحين



# روايات تاريخ الاسلام

## مسلسلة حسب العصور التاريخية

- ١ - فتاة غسان  
تشرح حال الاسلام من ظهوره الى فتوح العراق والشام مع بسط عادات العرب وأخلاقهم في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم
- ٢ - ارماتوسة المصرية  
فيها تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن العاص مع بسط سائر أحوال العرب والاقباط والرومان في ذلك العصر
- ٣ - غزاة قریش  
تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام علي وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعتي الجمل وصفين
- ٤ - ١٧ رمضان  
تتضمن مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج وقيام الفتنة واستئثار بني أمية بالخلافة وخروجها من أهل البيت
- ٥ - غادة كربلاء  
تتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها من مقتل الامام الحسين وأهل بيته في كربلاء ، واقعة الحرة وغيرها
- ٦ - الحجاج بن يوسف  
تناول حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان ، مع وصف مكة والمدينة
- ٧ - فتح الاندلس  
تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي ووصف أحوالها وفتحها على يد طاروق بن زياد ومقتل زودريك ملك القوط
- ٨ - شارل وعبد الرحمن  
تشرح فتوح العرب في بلاد فرنسا وما كان من تكاثف الأفرنج بقيادة شارل مارتل وأسباب فشل العرب في أوروبا

## ٩ - أبو مسلم الخراساني

تشتمل على سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية الى مقتل أبي مسلم . ويتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين

## ١٠ - العباسية اخت الرشيد

تشتمل على نكبة البرامكة وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء وملايسهم ومواكبهم ، وحضارة الدولة في عصر الرشيد

## ١١ - الامين والمأمون

تفصل الخلاف بين الامين والمأمون ، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد ، ودخائل السياسة بين العرب والفرس

## ١٢ - عروس فرغانة

تحوى وصف الدولة العباسية في عصر المعتصم بالله وقيام الفرس لارجاع دولتهم ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية

## ١٣ - احمد بن طولون

فيها وصف جامع لمصر وبلاد النوبة وعلاقاتها السياسية في اواسط القرن الثالث للهجرة على زمن احمد بن طولون

## ١٤ - عبد الرحمن الناصر

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموي وخروج ابنه عبد الله عليه

## ١٥ - فتاة القيروان

تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين في افريقية ومناقب المرزدين الله وقائده جوهر، وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية

## ١٦ - صلاح الدين ومكايد الحشاشين

تتضمن انتقال مصر من الفاطميين الى الايوبيين على يد السلطان صلاح الدين ، مع وصف طائفة الاسماعيلية

## ١٧ - شجرة الدر

تتضمن مباحة شجرة الدر ، وسيرة الامير ركن الدين بيبرس . وحالة الخلافة العباسية وقتئذ وانتقالها من بغداد الى مصر

## ١٨ - الانقلاب العثماني

تشرح احوال الاحرار العثمانيين وما قاسوه في طلب الدستور . ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه



# روايات لجر جي زيدان

مقدمة عن سلسلة تاريخ الاسعوم

لجر جي زيدان أربع روايات أخرى خارجة عن سلسلة تاريخ الاسلام المنشورة في الصفحتين السابقتين . وهي :

## ١ - استبداد المالك

مع بسط عادات الامراء والممالك واخلاقهم ونوع حكومتهم تتضمن حوادث مصر والشام في اواخر القرن الثامن عشر

## ٢ - الملوكة الشارد

تشمل وصف حوادث مصر وسورية واحوالها في النصف الاول من القرن التاسع عشر . ومن أبطالها محمد علي باشا الكبير ، وابراهيم باشا ، والامير بشير الشهابي ، وامين بك

## ٣ - اسير المهدى

تتناول حوادث المهدوية من اول ظهور المهدى في السودان الى سقوط الخرطوم وحوادث الثورة العرابية من اول نشأة عرابي الى الاحتلال الانجليزي

## ٤ - جهاد الحسين

هي رواية ادبية غرامية تبين ما يقاسيه المحبون في سبيل الحب



## رأى الشعر في روايات جرجي زيدان

بقلم المرحوم على الجارم بك

رَدَا شَبَابِي وَرَدَا عَهْدَ زَيْدَانَ  
وَمِنْ رَوَائِعِ مَا أَمْلَأَهُ زَيْدَانِي  
قَرَأَتْهُ وَرِيَاضُ الْعُمُرِ وَارِقَةٌ  
فَكَانَ مِنْهُ وَمِنْ سَيِّ شَبَابَانِ !  
فِي ضَوْءِ حَاقِقَةٍ بِالرَّيْفِ شُعْلَتُهَا  
كَاسَّرَ مَا بَيْنَ إِعْلَانٍ وَكِتَابٍ  
بَدَتْ بِهَا زُمْرُ الْأَبْطَالِ مَائِلَةٌ  
تَطْوِي الْقُرُونِ لِأَلْفَاكَمَا وَتَلْقَانِي  
مِنْ كُلِّ مَنْ شَاقَ لِلْإِسْلَامِ مَمْلَكَةٌ  
أَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ مَعَ رَضْوَى وَنَهْلَانِ  
لِلْعَرَبِ «بِالضَّادِ» إِيْمَانٌ يُوحِّدُهُمْ  
كَانُوا لِعِدْنَانَ أَمْ كَانُوا لِفَسَانِ  
مَا خَطَّ زَيْدَانُ أَشْطَارًا عَلَى صُحُفٍ  
لَكِنْ جَلَّ صُورًا مِنْ صُنْعِ فَنَانِ  
قَدْ كَانَتْ أَوَّلَ مُرْتَادٍ لِأُمَّتِهِ  
وَالْخُلْدُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَهُ ثَانِ  
عَلَى الْجَارِمِ

الرواية التالية

# أرماتوسه المصريه

تصدر في ١٥ ابريل القادم

## صفحات من رواية أرماتوسة المصرية

ننشر في الصفحات الأربع الآتية ، جزءاً من فصول الرواية القادمة  
« أرماتوسة المصرية » ، ومنه يتبين القارئ أهمية هذه الرواية في  
تاريخ الاسلام وتاريخ مصر عند ما فتحها الربيع على يد عمرو بن العاص :

### عمرو بن العاص

ولما كان اليوم التالي أفاق مرقس على ضوضاء الجند ، فنهض  
ملعورا ، فاذا به يراهم قد تجمعوا وخرجوا من العسكر ينظرون  
الى جهة الصحراء ، فرأى غبارا يتصاعد والناس يتطاولون بأعناقهم ،  
وقد علا ضجيجهم ، وفي مقدمتهم « يوقنا » يجر حسامه وراءه تيهيا ،  
وقد أحاطت به حاشيته ، وكلهم ينظر الى جهة الغبار ، فسأل مرقس  
عن ذلك ، فقبل له : « ان العرب قادمون » . فتظاهر بأنه عالم بقدومهم  
لئلا يسيئوا الظن به ، ثم علم انهم جند عمرو بن العاص القادم لفتح  
مصر ، فلبث واقفا في جلة الواقفين ، وقد نسي رجل الامس ، على  
انه حاول ان يراه فيمن حوله من الناس ، فلما لم يره عول على أن  
يستطلع مكانه بعد ذلك

ونظر الى موكب الطريق يوقنا فاذا هو مؤلف من حاشيته ، وكلهم  
في اللباس الروماني الا يوقنا ، فقد لبس العمامة وتقلد الحسام ، وسمع  
الناس ينادونه باسم عبد الله فتخقق لديه اذ ذاك انه اعتنق الاسلام  
لا محالة ، وبخاصة لما رآه مستبشرا بقدوم جيش العرب

ثم جرى اليه بجواد ركبه وركب معه جماعة من رجاله ، وخرجوا  
للقاء العرب ، فلبث مرقس واقفا ينظر الى موكب يوقنا ذاهبا ، وجيش  
العرب يتقدم حتى انكشف الغبار عن جند عظيم يتقدمهم الفرسان  
على خيول عربية تسابق الرياح ، والاعلام تخفق فوق رؤوسهم يحملها  
القواد ، وفي المقدمة رجلان على هجيتين ، فعلم انهما الدليلان يقودان  
الجند ، ومن ورائتهما الفرسان ، وفي مقدمتهم فارس على جواد من  
خيل اليمن ، وعليه العدة والسلاح ، وفي ركاب الفرسان جماعة من  
العبيد يسوسون الخيل . فلما التقى الفريقان ترجل يوقنا ، وترجل  
فرسان العرب ، وتقدم يوقنا الى كبيرهم وتصافحا وتعانقا ، ثم سلم  
على الباقيين وعاد معهم وقد اخذ كبيرهم بيده . فسأل مرقس عن

اسمه فقالوا هذا هو البطل الشهير عمرو بن العاص ، وكان قد سمع به كثيرا فتفرس فيه جيدا ، فاذا هو قصير القامة وافر الهامة ، ادعج أبلج ، يلبس ثيابا موشاة كان بها العقيان تأتلق ، وعليه عمامة وجبة ، وقد احاط به ويوقنا رجال من كبار العرب يهللون ويكبرون ، فتنحى مرقس جانبا ليرى مقدار الجند ، فاذا هم يملأون الصحراء ، وفيهم الفرسان والهجانة والمشاة وحلة الاعلام ، وقد لبس كبارهم العمائم الخضراء ، وتقلدوا السيوف والخناجر ، أما المشاة ففيهم حلة الرماح وحلة النبال ، فجعلوا يتفرقون كل جماعة الى ناحية يتقدمهم علم خاص بهم ، ينصبون الخيام ويضربونها . وأول خيمة ضربت فسطاط الامير ، وهو خيمة كبيرة مبطنه بالحرير الاحمر نصبوها على اعمدة من القصب الهندى وضربوا اطنايبها وفرشوا ارضها بالبسط والطنافس وهياوها لاستقبال الامير . اما عمرو فسار مع يوقنا حتى دخلا خيمته للاستراحة ، فلبث مرقس ليشاهد بقية الجند ، وقد اراد ان يعرف مقدارهم ، فعلم انهم يزيدون على اربعة آلاف ، وبعد ان تفرق الجند فرقا ونصبوا الخيام جماعات ، وصلت جبال الساقة ومنهم الهوداج والاحمال ، وفي الهوداج النساء والاولاد ، وهم يصيحون ويغنون انغام الحدااء فانزلوهم على مسافة من الجند ونصبوا لهم الخيام

فتحول مرقس الى خيمة الامير فراها قد شغلت بقعة كبيرة من الارض ، ولكنه لم يشاهد في فرشها كرسي ولا مقعدا كما كانت الحال بخيام الروم اذا نزلوا ، وشاهد امام الخيمة علما هائلا عليه رسوم كأنها كتابة باللسان العربى لم يفهمها

ثم تحول نحو خيمة يوقنا فرأى عمرو بن العاص قد خرج منها وسار نحو خيمته يصحبه كبار قواده ، فاقترب منها على قدر ما مكنته حاله فاذا بعمره قد جلس في صدرها متربعا على وسادة من الحرير ، وجعل السيف على فخذه ، والى كل من جانبيه رجال من العرب في مثل لباسه ، ويوقنا بين يدي عمرو يرحب به وبينهما ترجمان كان قد شاهده قداما مع عمرو يحمل العلم ، ثم سمع عمره يناديه « وردان » فعلم ان ذلك اسمه

وبعد هنيهة سمع قراءة باللسان العربى وتجويدا ، فنظر فرأى رجلا عربيا جالسا في بعض جوانب الخيمة يقرأ عن ظهر قلبه بنغم مطرب ، والناس جلوس ووقوف يصفون ويطنون لسماع ذلك النغم ، ثم التفت بفتة الى من حوله فاذا بالرجل الذى كان قد شاهده بالامس واقفا الى جانبه ، فاراد ان يخاطبه فسأله عن اسم الرجل الجالس في صدر المكان فقال باليونانية : « هو الامير عمرو بن العاص » . فلحظ مرقس من لهجته انه دخيل على اللسان الرومى ، فخاطبه

بالقبطية وسأله عن هذا النجوى فقال : « انهم يقرأون كتابا عندهم  
اسمه القرآن ، وهى عادة يتركون بها » . فرأى مرقس ان اللسان  
القبطى أيضا ليس لسانه ، فرغب فى الاستفهام عن حاله فقال له :  
« وبأى لسان يقرأون ؟ » . قال : « باللسان العربى » . فقال : « وهل  
تفهم لسانهم ؟ » . قال : « نعم أفهمه جيدا وهو لسانى ، وأنت ما  
هو لسانك » . فقال : « انى من جند الروم »

قال : « ولكننى اراك تتكلم القبطية ، وملاكك قبطية ، فهل أنت  
من أهل مصر ؟ » . فاضطرب مرقس عند ذلك وخاف أن ينكشف أمره .  
فقال : « قلت لك انى من جند الروم وفيه من سائر الملل »

فتبسّم الرجل وقال بالقبطية همسا : « ولكن قل ولا تخف  
الحقيقة على ، انى لا أريد بك سوءا ، ولعلك اذا صدقتنى أن تنال خيرا »  
فتخبر مرقس بماذا يجيبه وسكت برهة لا يتكلم

فأدرك الرجل انه يدافعه ويريد اخفاء أمره ، فعاد سؤاله قائلا :  
« قل ولا تخف ، فاننى أعرفك ولو اخفيت حقيقة حالك ماخفيت على »  
فقال مرقس : وأظننى أعرفك أيضا ، وكأننى قد رأيتك قبل هذه  
المرة فى الاسكندرية »

فقال عند ذلك : « أنت أذن مرقس تابع المقوقس » . فاختلج قلب  
مرقس فى صدره وخاف عاقبة الامر ، فقال له الرجل : « لا تخف  
اننى لك نصير ، فهل عرفتك أم أنا مخطئ ؟ »

قال : « أصدقك الخبر انى أنا هو ، ولكن أين رأيتنى ؟ »

قال : « رأيتك وقد جئت بيت يحيى النحوى الاسكندرانى بعد  
انحيازه لجماعة اليعاقبة مع سيدك المقوقس ، الا تذكر ذلك »

قال : « نعم اذكر ذلك جيدا ، فأنت أذن زياد العربى »

قال : « نعم أنا هو زياد فلا تخف ، فهل جئت هذا المعسكر تتجسس  
حال العرب ؟ »

قال : « لا والله ، وإنما سأقتنى اليه المقادير عن غير قصد منى ،  
وأنت ما الذى جاء بك الى هذا المكان ؟ هل تأذن لى بالسؤال عن ذلك »  
قال : « أما يجيئنى الى هذا المكان فقد كان لى لهما لا اخفيها عليك ، على  
انى لا أخافك فقد آمنت فيك اخلاصا »

قال : « ان ظنك فى محله ، وانى اعد نفسى سعيدا لاجتماعى بك ،  
وقد رأيتك بالأمس وآمنت فيك خيرا ، وكنت منشغل البال لاستطلاع

خالك مذ كنت جالسا على الاكمة خارج المعسكر مساء الامس وبيدك  
الرق ، فافصح ولا تخف »

قال : « أنا زياد العربي ، ولا يخفى عليك أن وجودي في الاسكندرية  
كان بالاتفاق ، اذ قل وجود العرب في بلادكم ، وأما قصتي فساقصها  
عليك على انفراد لتلا بسمنا الجند الرومي نتكلم بالقبطية فيشوا بنا ،  
والافضل تأجيل حكايتي الى المساء على انفراد »

قال : « حسنا فلتتكلم الآن بالرومية ، فاني أريد الاستفهام منك  
عن بعض ما اشاهده في هذا الجيش . وقد عجبت لحال هذا الامر  
وسررت لما أرى في وجهه من الصبابة وما يتجلى في حياه من الشجاعة  
والشهامة ، ولا عجب اذا ساد العرب على الدنيا بأجمعها اذا كانت هذه  
حالهم ، وهل عرفت شيئا عن حال يوقنا هذا فاني أراه روميا ولكنه  
يلبس العمامة ويتزيى بزى العرب ، وهذا جنده في لباس الروم »

فتبسم زياد كأنه يفتخر بجنس العرب وقال : « ان العرب اهل  
شهامة وأقدام وشجاعة ، ولا غرو اذا فتحوا الامصار وأخضعوا  
الملوك . وانظر الى ابن العاص فانه من خاصة رجالهم ، وأنا أعرفه  
مذ كان جاهليا ، وهو يعرفني جيدا ، ولعله اذا رآني الآن يناديني  
باسمى ويرحب بي وأجلس الى جانبه ، ولكني لا أريد أن يكون ذلك  
بمحضر من الناس اكراما لمن أرسلنى ، لانه يود أن تكون رسالته سرية »  
فقال : « ومن هو هذا الترجان الذى ينقل الكلام بين يوقنا وعمرو ؟ »

قال : « هو وردان مولى عمرو ، ويعرف اليونانية جيدا ، ويعرف  
القبطية ايضا ، وأنا لا أعرفه من قبل ، ولكننى فهمت ذلك من كلامه ،  
وسأعرف الليلة حكايته وجكاية هذا الجند وأطلعك عليها »

فقال مرقس : « أحب كثيرا أن أعرف حقيقة خالك وما جئت من  
أجله لكى يكون كلامنا أكثر إيضاحا »

قال : « تعال ننفرد جانبا » . وأخذ بيده وخرجا من المعسكر والجند  
منشغل بشؤونه ، ولم يلتفت اليهما أحد حتى وصلا الى مأمن فجلسا







## رسالة دار الهلال

لدار الهلال غاية تسعى اليها كما أن لها خطة  
مرسومة تسير عليها . فأما الناية فالمساهمة في رفع  
المستوى الثقافي في مصر واقطار العربية . وأما الخطة  
فالتوفيق بين قديمتنا وحديثنا والجمع بين محاسن الشرق  
ومحاسن الغرب : فلا جود ولا طفرة بل هو تمش  
وئيد في سبيل الرقي الوطني

ودار الهلال تؤدي واجبا يهدوء وعزعة معا ،  
مطمئنة الى ماقد أتيحت ، متطلعة الى آفاق بائنتج -  
لاتداهن فرنا ولا تملق كيرا - ولا تنسأهل فيد  
شعرة فيما تعتمد حقا وسوابا

ودار الهلال تؤمن ببقاء العمل الصالح ، وإخفاق  
ماعداه . وهي لذلك لا تحفل بالسفاسف والصفائر ، بل  
ترحب بكل فكرة تزيهة وتمضد كل جهد شريف

وشعارها على الدوام !

# اشترك في روايات الهلال

تضمن وصول الاعداد كل شهر بانتظام

( اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية من الغلاف )

## وكلاء روايات الهلال

بيروت - لبنان : الاستاذ حسن لطفى : ٩٢ شارع البطريرك الحويك

بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعسان

حماه : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

حاص : السيد عبد السلام السباعي - ص . ب ٩٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن السيد علي نحاس - ص . ب ٩٧

بغداد والعراق : السيد محمد جواد حيدر - مكتبة المعارف -

بسوق السراي

البحرين : السيد سلمان بن احمد كمال - المكتبة الكمالية

Snr. Rachid S. Cury, Caixa Postal 1812 :  
Sao Paulo — Brasil. البرازيل

Snr. Oscar S. David, Apartado Nacional 174 :  
Cartagena — Colombia. كولومبيا

Snr. Nicolas Yunes, Acha 2651 :  
Buenos Ayres — Argentina. الارجنتين

The Queensway Stores, P.O. Box 400, :  
Accra, Gold Coast, B.W.A. ساحل الذهب

Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street. :  
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A. نيجيريا

متعهد توزيع روايات الهلال للباعة والمكتبات في العراق

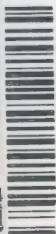
السيد محمود حلمي

# افتراء الله

مجلة الجيل الجديد



Bibliotheca Alexandrina



0668578

35  
sha

في أول كل شهر